

إثيل لينا وايت

ترجمة عبد الفتاح عبد الله


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

بينما هي نائمة

تأليف
إثيل لينا وايت

ترجمة
عبد الفتاح عبد الله

مراجعة
محمد حامد درويش



بينما هي نائمة

إثيل لينا وايت

While She Sleeps

Ethel Lina White



الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

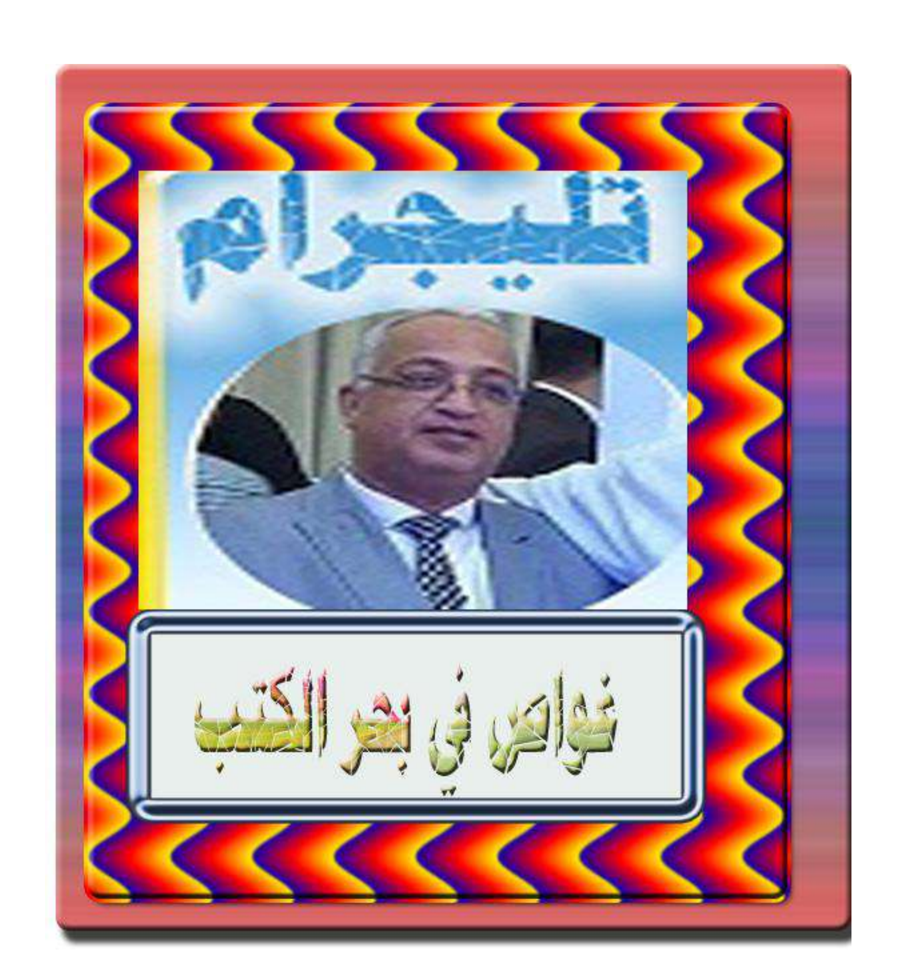
تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٧٤٦ ٦

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٤٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.



المحتويات



تليجرام
غواص في بحر الكتب

الفصل الأول

صباح بهيج

استيقظَت الآنسة لوفابل بابتسامة على وجهها. فقد حصلت على قسط جيد من النوم، وكانت معدتها مستقرة، وذهنها صافيًا، وليس لديها أعداء في هذا العالم.

لم يكُن هناك أي شيء يُنذرها بأنها، في غضون الساعة القادمة، سيقع عليها الاختيار لتكون ضحيةَ جريمة قتل.

بدَت جميلة حين أزاحت الأغطية جانبًا وجلست على السرير. فلكلِّ امرأة ساعة تكون فيها جميلة، وكانت هذه هي ساعتها. ورغم أن ميزانية الآنسة لوفابل للملابس كانت محدودة للغاية؛ فإنها كانت بارعة الجمال وهي متخفِّفة من الملابس.

كشَفَ لباسُ نوم، خفيفٌ قصيرٌ بلا أكمام، عن بياض بشرتها التي لم تتعرَّض للشمس. وتناثَرَ شَعرها الأشقر الثقيل على كتفَيها في جدائل كثيفة. وعندما مطَّت ذراعَيها وهي تتثاءب، بَدَت كأنها تُرحِّب بِبهجَة الحياة.

كان يومًا صافيًا وعاصفًا في أواخر الصيف. وقد أشرقت الشمس ساطعةً على طاولةِ زينتها؛ فاخترقتْ أشعتُها مجموعةَ حُليِّها الزجاجية، فتحوَّلَت الأشعة إلى قوس قُزَح. كانت تستطيع سماعَ صوتِ القِطَع الخزفية الخَفِيِّ، فعرفَت أن الخادمة تصعد الدَّرَج مع شاي الصباح، وجريدة «التايمز».

كانت الطيور تغرِّد في شجرة الزان التي تظلِّل نافذتها، كما لو كانت تحتفل بالأخبار الجيدة. كانت الأخبار قد وصلَت الليلةَ الماضية بالبريد الأخير في رسالةٍ من وكيلِ عقاراتٍ لندني. أخبرها الوكيل العقاري عن فرصة غير مُتوقَّعة لتأجير منزلها في المدينة؛ ممَّا يُتيح لها فرصة نادرة تتمثَّل في قضاء إجازة بالخارج.

قالت جهرًا: «سويسرا. الجبال. كم أنا محظوظة!»

كانت الآنسة لوفابل تُؤمِن بحُسن حظِّها. وكانت متأكدة أن العناية الإلهية قد أعدَّت سلسلة من الأحداث النافعة بما يخدم صالحها. وكان بإمكانها أن تُقدِّم دليلًا على مزاعمها إذا ما شكَّك أيُّ مُشَكِّك في أنها تحت حمايةٍ مباشرةٍ من راعٍ خفيٍّ.

بادئ ذي بَدْء، وقَعَ عليها هي وحدها الاختيار من بين ملايين المُقامِرين المتفائلين لسحب بطاقة حصان مُعيَّن في اليانصيب الأيرلندي؛ ومن ثَم تحقيق أسمى مطامحها في حياتها.

إضافةً إلى هذا النصيب المُدهِش من الحظ السعيد، كان يمكنها تقديم قائمةٍ طويلة من الأمثلة البسيطة الأخرى الدالة على حُسن حظِّها. فقد تُوفِّي أحد النبلاء بعدما اشترت قبعةً سوداء، مما قدَّم مبررًا للترف. وعندما نسيَت توفير الكعك في تلك المناسبة المُرهِقة المتمثِّلة في «يوم البقاء في المنزل»؛ أمطرت السماء بغزارة، فدمَّرَت حصاد القش، ولكنها أبعَدَت كلَّ الزوار فلم يأتِ أحد.

أشياء صغيرة مثل هذه.

وكل عام، عندما تحصل أزهارُها من الكوسا الخضراء أو الدَّلَبُوث على التذكرة الزرقاء المنشودة — الجائزة الأولى — في معرض الزهور المَحَلِّي؛ كانت تستنشق هواءَ الخيمة اللاذع والمُشبع برائحة العشب والفاكهة، كما لو كانت طُيوبًا مُركَّبةً لها خصوصًا.

وتقول لمنافسيها الذين خاب أملهم: «هذا حُسن حظِّي مجددًا. ليس خطأً من جانبكم. تؤسفني خسارتكم؛ رغم أنكم بذلتم جهدًا كبيرًا.»

ثم تتعالى ضحكاتها النابعة من قلبها وتُدوِّي، ذلك أنها تتميَّز بالأصالة والصدق أكثر مما تتميَّز باللباقة والكياسة.

وكانت محظوظة، حتى في الظروف التي أدَّت إلى أن تكون يتيمة. فقد ظلَّ والداها على قيد الحياة حتى صارت في الحادية والعشرين من عمرها، وأنهَت تعليمها وتلقَّت رعايةً طبيةً مُناسِبة لأسنانها. ومن ثَم أُعفيَت من القيود المفروضة على القاصرين حين مات كلا والدَيها جرَّاء الإصابة بوباء الإنفلونزا، في نفس الوقت الذي مرَّرَت فيه السلطات المَحَلِّية خطط إنشاء طريق فرعي جديد.

وحيث كانت هذه الخطط لإنشاء الطريق تنطوي على التضحية بمنزل الأسرة القديم؛ تلقَّت الآنسة لوفابل تعويضًا أكبر ممَّا كانت تأمل أن تحصل عليه إذا ما أعلنَت عن بيع هذا المنزل في سوق العقارات.

كانت الآنسة لوفابل تعيش على هامش الطبقة المُرفَّهة المُنعَّمة، وكانت تملك مصدر دخل صغير خاص بها؛ وهكذا اشترت لنفسها مسكنًا جيدًا ومريحًا؛ منزل البحيرة، كان كبيرًا جدًّا على احتياجاتها وما تطمح إليه، واستقرَّ بها المقام في قرية سكنيَّة مرموقة في كِنت.

وسرعانَ ما قُبِلَت في مُقامها الجديد باعتبارها فردًا أساسيًّا فيه، ومعها خادمتها وقطَّتها وكلبها وكلُّ ما تملكه. كانت الآنسة لوفابل شهيرة؛ ذلك لأنها انخرطت في الروح الاجتماعية لذلك المجتمع المحلي، وعلى الرغم من أنها كانت أصغرَ من غالبية السكان، فقد وفَّرت لها أعمال البستنة والأعمال المنزلية التدريباتِ التي ربما كانت في حاجة إليها.

ولكن، مع أن الآنسة لوفابل كانت وَدودة مع الجميع؛ فإنها لم تكُن مُقرَّبة من أحد. فعلى الرغم من دماثة خُلقها ولِين عريكتها، لم يطرح عليها أحدٌ أسئلةً شخصية أو يُنادِها باسمها الأول. ولم يكُن من المؤكَّد أن أحدًا كان يعرف ذلك الاسم؛ لأنها ظلَّت تُدعى الآنسة لوفابل، صاحبة منزل البحيرة.

أمَّا المناسبة الوحيدة التي تخلَّت فيها عن تحفُّظها، وكشفَت عن أفكارها؛ فقد كان ذلك نابعًا من دافعٍ طوعي من جانبها. حدَثَ ذلك في ليلةِ عيدِ قِدِّيسين حماسيةٍ وجيَّاشة، حين زارها بعضُ النسوة لِتَناوُل الشاي. كان من بين هؤلاء النسوة امرأةٌ من لندن، وقد أحضرت معها تذكرة إلى الشهرة — لوحًا للتواصل مع الأرواح.

كانت المرأة داكنةَ البشرة ونحيفة، ولها ملامح تنمُّ عن بقايا حُسن، وفي عينَيها بقايا جذوةِ شغف. وكانت ترتدي رداءً بديعًا رفيعَ الطراز له لونُ الكبوسين المخملي، وعقدًا طويلًا من حبَّات العنبر. كما كانت تتمتَّع بشخصيةٍ جذَّابة؛ حيث كانت النسوة متحمساتٍ لإفشاء أسرارهن لها وهنَّ يجلسنَ قُرب النار.

كانت نوافذ حجرة الصالون مفتوحة ويظهر منها مشهد الغسق الأزرق لأحد أيام شهر أكتوبر. وجاء صوت خشخشة أوراق شجرة الزان الساقطة، حين حرَّكَها الهواء بحركات دائرية على العشب؛ فغطَّى بها حوضَ أزهار البنفسج. كانت بالمكان ساحراتٌ وأعاجيب.

قالت امرأة ذات مظهر رجولي في أسًى: «سَلِي هذا الشيءَ إن كنتُ سأتزوج.»

ورغم أن اللوح كان حريصًا بشكل واضح على إرضاء الزوَّار، فقد كان عليه أن يضع في اعتباره أنَّ عليه أنْ يكون دقيقًا في تنبُّؤاته. تردَّد اللوحُ قليلًا قبل أن يُشير عليها: «لا تفقدي الأمل.»

ضحكَت السائلة، وكان اسمها الآنسة بيت؛ إثباتًا لمرونة رُوحها.

وقالت: «مُتسوِّلة متفائلة. لكن تُعْوِزكِ اللباقة. يبدو أن معيار قيمة الشكل في عالَم الأرواح مُشابِه كثيرًا له في عالَمنا.»

حينها سألت الآنسة لوفابل سؤالها. قالت بثقة: «أنا لا أومن بهذا الطقس. ولكن ... هل ستتحقَّق أمنيتي؟»

نظرَت المرأة اللندنية إلى ساقَيها الناعمتَين الجميلتَين — وقد ظهرتا بوضوحٍ في ضوء النار — وإلى بَشرتها الرائعة، وملامح وجهها المستقرة. وحين حاولَت أن تنقل انطباعها هذا إلى اللوح شديدِ الحساسية؛ استجاب اللوح من فوره.

كتب اللوح في ثقة: «نعم.» ومستغلًّا الفرصة، أضاف: «قريبًا.»

قالت الآنسة لوفابل: «أتمنى لو أستطيع الاعتماد على ذلك.»

سألت السيدة اللندنية في مُواراة: «أهو شخصٌ تعرفينه، أم لا يزال غريبًا؟»

قهقهَت الآنسة لوفابل من قلبها: «أمنيتي؟ إنها ليست زوجًا ... لا. إنما أريد أن أمتلك ثلاثة منازل. واحدًا في المدينة، وواحدًا في الريف، وواحدًا على الشاطئ.»

وبينما كان الآخرون يُحدِّقون بها، تحدَّثَت هي في تلهُّفٍ؛ لِمَا تشعر به من إثارة.

«لا أستطيع أن أشرح الأمر، لكن هذا هو أعظم آمالي منذ وعيتُ على الدنيا. اعتادت أمي أن تحكي لي عن المساكن الفخمة؛ لذا ربما بدأ الأمر على هذا النحو. هل تعلمون أنني كنت غاضبة جدًّا حين سمعتُ أن العائلة تخلَّت عن منزل أوزبورن. بطريقةٍ ما، بدا ذلك وكأنه كسرٌ للتسلسُل، مثل فقدان أحد المُجَدِّفين في الفريق على متن القارب ... إذا ما حصلتُ على مبلغٍ كبير من المال، سأمتلك المنازل الثلاثة التي أحلم بها ... يبدو هذا جنونيًّا، أليس كذلك؟»

قالت السيدة بيت في رحابةِ صدر: «بل هو خارجٌ عن المألوف فحسب.»

ليلةَ عيد القديسين ... هبَّت الريح داخل المدخنة وانبثقت من النافذة، في نفخات من الهواء الترابي الرطب التي تحمل شيئًا خفيفًا من عطر البنفسج. وكان القمر يتفلَّت بجنون من السُّحب المتلاحقة في السماء المزدحمة بها. كانت الأرواح تطفو وتتمايل كالضباب من القبور المفتوحة. واختلط الأحياء بالأموات.

ثم لم يمضِ وقتٌ طويل بعد ذلك، حتى اختارت الآنسة لوفابل حصانها في سَحب اليانصيب. وبعد أن طابت ثمرة حظِّها المفاجئ هذا، تلقَّت مبلغ أربعة آلاف جنيه تقريبًا. وقد ذاع خبر هذا الأمر على الفور في الأوساط الاجتماعية من خلال شرائها منزلَين آخَرَين: واحدًا في لندن، وجناحًا صغيرًا على الساحل الجنوبي.

وفي حين وُجِّهت الانتقادات إلى تصرُّفها في الأوساط المَحَلية، لم يكُن أحد مُخوَّل بأن يُقدِّم لها النصائح. كان محاميها فقط هو مَن أَلَمَحَ إلى مساوئ ذلك.

«سيتبيَّن أن هذا العقار باهظُ الثَّمن وعديمُ النفع. وإضافةً إلى مصاريف الضرائب والتأمين والصيانة، سيكون عليكِ دفعُ كلِّ هذه الأقساط الشهرية من أجل الأثاث. لا شك في أنكِ ستعجزين عن السداد.»

قالت الآنسة لوفابل: «كلَّا، سيكون دخلي مثلما هو الآن. لقد حسبتُ كلَّ شيء. ولكنني لن أقتطع من قائمة أعمالي الخيرية وتبرُّعاتي. فقد يكون ذلك شُؤمًا. الشيء الوحيد الذي يُقلِقني هو هل أكونُ مناهضةً للاجتماعية؛ إذ لديَّ كلُّ هذه الغرف الفارغة، حين يكتظُّ الناس في الأحياء الفقيرة.»

ويبدو أنها توصَّلَت إلى اتفاقٍ فعَّال مع ضميرها؛ لأن منازلها الثلاثة جعلتها سعيدة تمامًا. كانت الآن حُرَّة من قيود البيئة حولها. فكلما شعرَت بالملل من المناظر الطبيعية، كان بإمكانها تبديلها بمشهد الأمواج وهي تتدفَّق إلى الشاطئ. وإذا سئمَت من النظر إلى ورق الحائط في غرفة نومها في لندن، كان عليها فقط أن تعود إلى منزل البحيرة.

ولكنَّ تضخُّم إحساسها بالامتلاك كان أقوى بكثير من شعورها بالرضا والارتياح الناجمَين من قدرتها على تغيير المناظر حولها. فكلما انتقلَت، كانت تفتح بابَ منزلها الخاص، وتدوس على سجادتها الخاصة، وتكسر الأواني الخزفية التي تمتلكها. مَلَأَها هذا الامتلاك بوعيٍ بالقوة الكامنة بها، ووضَعَها في زُمرة صغيرة تتألَّف من المَلِكات العزباوات، والمُستبدَّات، ومديرات المستشفيات.

في الوقت نفسه، أضفى عليها ذلك الإحساس حالةً من العزوبية النهائية. فعلى الرغم من أنَّ خبرًا عن خطبتها لن يُثير مفاجأةً حقيقية — لأنها كانت في سنِّ الزواج — فإن أحدًا في القرية لم يكُن ليتوقَّع أنها ستتزوَّج.

ويوم وقَعَ عليها الاختيار لتقدِّم دعايةً صحفية مستقبلية — كنتيجةٍ لتجربةٍ سيئة، بغرضِ جعلها «ضحية» — كانت الآنسة لوفابل لا تزال دون الثلاثين من عمرها. وكان أولئك الذين لم يتأثَّر ذوقهم بمقاييس الجمال الضيِّقة لنجمات السينما يعتبرونها جذَّابة. فقد كانت شقراء، بملامح جميلة ولون بشرة جذَّاب، وكان من الممكن أن تظهر على ملصق كتجسيد أنثوي لبريطانيا العظمى التي اتبعَت نظامًا غذائيًّا بما يكفي لتتهيَّأ لارتداء الأزياء الحديثة.

وفي هذا الصباح الخاص، بعد أن ذكَّرَت نفسها بحُسن حظِّها بالعرض اللندني، استعرضَت في نفسها النِّعَم الثابتة المستقرة التي تتمتَّع بها.

«أنا بصحةٍ جيدة وعافية. ولا أدين لأحدٍ بِسِنت. والشمس تُشرق عليَّ. وأملك ثلاثة منازل.»

وعلى الكرسي بجانبها، كان القطُّ الفارسي الأزرق، واسمه ديفيد، نائمًا في سَلَّته، يحتضن بين يدَيه لعبته المزغبة من متجرِ وولورث. لم يكُن عمره قد جاوَزَ سَنَةً، لكنه كان ضخمًا لدرجةِ أن يُشبه شبلًا صغيرًا؛ إذ أبقاه التدليل في فئة القطط.

وبينما كانت الآنسة لوفابل تنظر إليه بحُنوٍّ، دخلت الخادمة الغرفة، يليها كلب التيرير الاسكتلندي سكوتي. كانت «إلسي» في نفس عمر سيدتها، لكنها كانت تبدو أكبر سنًّا. كان من المفترَض أن تكون رقيقة، لذا كانت تقوم بجميع الأعمال النسائية — تنظيف الفضَّة وترتيب الزهور — بينما كانت الآنسة لوفابل تقوم بأعمال المَسْح والتلميع.

قالت إلسي بنبرةٍ خفيضة ومكتومة: «صباح الخير يا سيدتي. آمل أن تكوني قد حصلتِ على قسطٍ جيد من النوم. ها هو السيد الشاب قد جاء لرؤيتكِ.»

ساعدت الآنسة لوفابل سكوتي على اعتلاء السرير المُنخفِض قبل أن تُجيبها.

«سأذهب إلى لندن غدًا يا إلسي.»

«نعم، يا سيدتي.»

وضعَت إلسي الصينيةَ بعناية على طاولة السرير، وصبَّت كوبًا من الشاي، ووضعت سيجارةً بين شفتَي سيدتها، وأشعلَت عودَ ثِقاب لإشعالها. ثم أخذَت ديفيد من سَلَّته وعانقَتْه حتى تدلَّى رأسه الكبير الناعس على كتفها.

وعلَّقت، بنبرةٍ عالية وخَشِنة لِتُثبت أنها تقمَّصَت هوية ديفيد: «يقول ديفيد إنه لا يريد أن تذهب سيدته بعيدًا عن الرِّيف البارد الجميل. يقول إنه لا يوجد معنًى للذهاب إلى لندن، تلك المدينة الحارَّة المزعجة.»

أجابَتْها الآنسة لوفابل: «إذَن يمكنكِ أن تُخبري ديفيد أنه إذا لم تستغلَّ سيدته الفُرَص لكسْبِ بعض المال؛ فقد لا يكون هناك ريفٌ بارد له، ولا لإلسي اللطيفة أيضًا.»

كانت إلسي لا تزال تبدو مستاءةً وهي تُربِّب القطَّ في صمت، في حين كانت سيدتها تُطعِم سكوتي البسكويت.

بعد قليل، سألت الآنسة لوفابل خادمتها سؤالًا مباشرًا.

«ما الذي يزعجكِ في لندن يا إلسي؟»

احمرَّ وجه إلسي الشاحب. «لأنها ... يا سيدتي، أشعُر دائمًا بأنها تجلب النحس.»

«النحس؟!» كان صوت الآنسة لوفابل حادًّا. «لماذا؟»

«أعني — إذا غفرتِ لي جرأتي — أنها أصبحت على ما هي عليه بالمقامرة وكسر القانون.»

كان من السمات المألوفة لذلك البيت، أن تشير إلسي إلى الحظ. لكن تبقى حقيقةُ أنه لو لم تحرز الآنسةُ لوفابل منزلَ لندن؛ لكانت في تلك اللحظة آمِنةً، في منطقتها الآمنة.

الفصل الثاني

المكنسة الكهربائية

خلال الساعات المبكِّرة، لم تكُن الآنسة لوفابل تنسى أبدًا أنها مالكةُ ثلاثة منازل. قد تصبح في وقتٍ لاحق من العاملين المساعدين؛ فتنجز أعمالًا أشق بابتهاجٍ وسرور، أعمالًا كانت إلسي أقلَّ قدرةً بطبيعتها على إنجازها؛ لكنَّ الآنسة لوفابل كانت دائمًا تتمهَّل وتستمتع وهي في المرحاض، وتتناول إفطارها في جوٍّ من الأُبَّهة والحظوة.

حين نزلَت على الدَّرَج المُسطَّح، كانت ترتدي رداءً منزليًّا طويلًا، لونه أصفرُ باهت، ومُزخرَف بأزهار برَّاقة. عزَّز شكلها، هذا من صفة الترف الفطرية فيها، وأوحى برخاء العيش مع السخاء. وقد أَضْفَت الشمس الساطعة عَبْر النافذة خلفها ما يُشبه الهالة الذهبية على شَعرها؛ مما جعلها تبدو كَرَبَّةٍ موسميةٍ تحمل أكاليل زَهرية، وتبدو منفتحة كذلك أيضًا على عقد صفقة في سوق الخُضَر.

وكعادتها، توقَّفَت الآنسة لوفابل أثناء نزولها الدَّرَج لتقدير جمال المنزل الأقرب إلى نفسها. فعلى الرغم من أنها أنفقَت مالًا أكثر على أثاث منزل لندن، فإنها وضعَت قدرًا كبيرًا من مالها في منزل البحيرة، بتركيبِ تدفئةٍ مركزية، وإعادة تصميم الحديقة وتأسيسها.

كان المنزل على الطراز الجورجي الجذَّاب، ومُغطًّى بألواح من الخشب الأبيض، وتصميمه ينمُّ عن رحابة مفرطة، وبه سلالم واسعة ودرَجٌ زائد عن الحاجة. وكان مُقسَّمًا إلى غرفتَي استقبال، وثلاث غرف نوم وحسب، لكنها جميعًا كانت كبيرة الحجم ومتناسقة الأبعاد. ولم يكُن أيُّ منزل من المنازل التي تملكها، يحتوي على غرفةٍ للخدَم؛ فيخفِّف من مستوى معيار الكمال لديها. فكانت هي وإلسي تختاران المكانَ الذي ستهجع كلٌّ منهما فيه، وتُغيِّرانه حسب الموسم، وهوى كلٍّ منهما.

في ذلك الصباح المُشرِق، بدا كلٌّ شيء باعثًا على السرور للغاية. فكانت أرضية المنزل الخشبية تعكس ما بذلَت من «عناء» في تنظيفها. كما كانت هناك مرآة على الحائط، تعكس صورةَ مزهرية، بها أزهارٌ حديثة لنبات العائق بلون أزرق باهت. دلفَت الآنسة لوفابل، وهي تُدَندِن بلحن غير واضح، إلى غرفة تناول الطعام التي كانت أيضًا غرفة معيشة، وذلك بفضل مساحتها الكبيرة.

كانت غرفة الصالون تطلُّ على المرج الأمامي الذي تُظلِّله أشجار الزان. لم يكُن على ذلك المرج إلا القليل من الأزهار، منها البنفسج تحت النوافذ، ونباتات بصل مزروعة في العشب. لكنَّ غرفة الصالون كانت تمتدُّ بطول المنزل كله، وكان بها نوافذ في كلا طرفَيها.

ووفقًا لنظام الألوان العام، كان أثاث الغرفة باللون الأبيض يتخلَّله شيءٌ من الأخضر الباهت، كان هذا اختيارًا باهظًا، وجرى انتقاده في الأوساط القريبة منها. وكان لها مُبرِّر في ذلك بأنَّ الأثاث سيظلُّ نظيفًا وسيحتفظ بحالته الجيدة، رغم أنها كانت تُرجِع هذا إلى كدِّها في التنظيف، وليس إلى الحظ.

وبينما اجتازت الغرفة إلى حيث الطاولة، الموضوع عليها إفطارها في طبق إحماء للإبقاء عليه ساخنًا؛ أخذَت تُحدِّق إلى السجادة في إعجاب.

وقالت في نفسها: «لقد استفدتُ بالفعل من المكنسة التي اشتريتُها. ينبغي أن أشتري أيضًا واحدةً أخرى في منزل لندن. إنني إذا ما اقتصدتُ بشدَّةٍ في هذه الإجازة، ربما يكفي مالُ الإيجار لشراء واحدة.»

قطعَت الآنسة لوفابل قطعةً من الخبز وألقَت بفُتاتها إلى الطيور على المرج الأمامي قبل أن تسير عائدةً إلى النافذة الخلفية لتتأمَّل الحديقة. لقد حوَّلَتها من مكانٍ قاحل إلى حالتها السابقة، كمكانٍ ساحر من عالَمٍ قديم. وأمَّا البحيرة التي اشتهر بها المنزل فكانت قد تحوَّلَت إلى بِركة راكدة، يحيط بها سياجٌ قصير، وتُخيِّم عليها شُجيرات الصفصاف. وكما أَوْعَزَ لها البَنَّاء المَحَلِّي، مُلِئَت حفرة البحيرة بالماء، وزُرِعَت أوراق زنابق الماء في الخزانات الضحلة المغمورة، حتى إنها قامت ببعض ذلك بنفسها. كانت هذه الحديقة أيضًا تحتوي على مكان لزراعة الأعشاب، ورقعة لزراعة الورد كما يشتهر عنها، ورقعة تحتوي على نباتات مُعمِّرة، وكذلك الخضراوات التي تفوز بالكثير من الجوائز.

بينما كانت الآنسة لوفابل تنظر من النافذة، استنشقت رائحة اللحم المَقْلي الشهية، الذي كانت إلسي تُعِدُّه لنفسها على الإفطار. لم تكُن الخادمة قادرةً على مشاركة سيدتها

في تناول الكلى المشوية بسبب كراهيتها لـ «الأمعاء»؛ الشيء الذي كانت الآنسة لوفابل تشير إليه بتفاخُرٍ غريب، كدليلٍ على ما تتمتَّع به إلسي من تهذيب ورِقَّة.

وحيث تذكَّرَت شهيتها المفتوحة، جلست الآنسة لوفابل إلى الطاولة وصنعَتْ لنفسها وجبةً كبيرة، فبدأت بحبوب الإفطار وانتهَتْ بالخبز المُحمَّص والعسل. وحين فرغَتْ أشعلَتْ سيجارة.

وجرَّاء صدفةٍ غريبة وعجيبة، كان فعلها هذا يتزامن مع فعلِ شابٍّ يافع ممدَّد في الفراش في شقَّةٍ لندنية كئيبة وقاتمة. شربَ الشاب محتويات كوبه المُتصدِّع، وشرعَ يُدخِّن سيجارة كإجراءٍ تمهيدي للقيام بالعمل.

كان مظهره يوحي بأنه شابٌّ عادي يُدرِك قيمة أن يكون المرءُ حسَنَ المظهر، ويلتزم بقواعد ذلك. وكان لحديثه لهجةٌ متداخلة، هي سِمةُ مَن ارتادوا المدارس العمومية، والتي يُمكِن لأيِّ أحد تستطيع أذنه الْتِقاط الصوائت أن يحاكيها، وحين كان يرتدي زِيَّه، كان يرتدي ربطةَ عنقٍ تُشبِه ربطات العنق المدرسية القديمة، كتلك التي يمكن للمرء الحصول عليها من مصدرها المباشِر، أو أن يشتريها من متجر.

كانت أسنانه بحالةٍ جيدة، وشَعره مصفَّفًا، وابتسامته لطيفة. وحين مدَّ يده نحو دليلِ الهاتف على الطاولة البالية المصنوعة من خشب الخيزران إلى جوارِ فراشه؛ لم يكن وجهه يوحي بالتأكيد بشيءٍ من النوايا الشريرة التي تسكن قلبه.

كان دليل الهاتف ذا غلافٍ أحمر، وقد فتحه على قِسم الـ «ل». تصفَّح الشابُّ الصفحات بأصابعه، ذاتِ الأظافر المُشذَّبة حديثًا، ومرَّ سريعًا على مجموعةٍ من صاحبات الاسم «لونج». كان بين الحين والآخَر يتوقَّف عند أحد الأسماء يتدبَّره ثم يرفضه، لكنَّ اختياراته لم تكُن عرَضيةً أو عفويةً كما يبدو. إذ كان خلفَ عملية الغربلة هذه هدفٌ مُحدَّد.

على الرغم من أنَّ دافعه في هذا لم يكُن شخصيًّا تمامًا، وبعيدًا عن كونه عداوة، فإن السيدة التي سيختارها لا بد أن تكون مُتمتِّعة بمؤهلاتٍ مُعيَّنة قبل أن يتَّجِه لها انتباهُه، ويقع عليها اختياره. لم يكُن ينبغي أن تكون عزباءَ أو أرملة فحسب، بل وألَّا تتمتَّع بحمايةِ أيِّ قريب ذكر. وينبغي أن تتمتَّع بأهميةٍ كافية لأنْ تكون مَطمَعًا للصوص، لكن لا ينبغي أن تكون ثرية جدًّا بأن يكون لديها عددٌ كبير من الخدَم والحشم. كما كان من الضروري أيضًا أن تكون قاطنةَ مكانٍ مُميَّز، لكنه غير عصري، تكون إنارتُه خافتةً، ولا تكثُر جولات رجال الشرطة فيه.

وعلى الأرجح أن الشاب فوَّتَ بعض المُرشَّحات المناسبات تمامًا بسبب نفاد صبره، حين انتهى من المرور على مَن كانت أسماؤهن «لونج» و«لورد»، في طريقه إلى مطالعة مَن كانت أسماؤهن «لوف».

انتبه الشاب فجأةً إلى اسم غير شائع، «لوفابل». كان الاسم يسبقه لقب «الآنسة»، الأمر الذي شجَّعه على الاطلاع على عنوانها.

كان المنزل رقم ١٩ بماديرا كريسنت، يقع في مكانٍ ما في القسم الشمالي الغربي لمدينة لندن. بدا من صورة المنزل أنه سليم، وأنَّ أمواج الموضة قد انحسرت عنه، وكان له درَجٌ فخم، وعلى رصيفه تتساقط الكثير من أوراق الشجر الرطبة.

قرَّر الشاب في تراخٍ وتباطؤ: «لا بأس بهذه. سأتبيَّن الأمر غدًا.»

في تلك اللحظة، شعرَت الآنسة لوفابل، ولسببٍ غير معلوم، بأنها قلِقة ومضطربة البال. وعلى الرغم من أنها لم تكُن تعلم مطلقًا أنها أصبحت مَدعوَّة كضيفةِ شرف إلى جريمة قتل؛ فإنها بدأت تمقُت فكرةَ تأجير منزلها في لندن.

كانت الفكرة الأساسية وراء امتلاكها لثلاثة منازل، هو أن تشعر بالملكية الشخصية. لا بد أن تكون المنازل الثلاثة شاغرةً ونظيفة ومُزيَّنة، وعلى استعدادٍ لأن يستقبلها أيٌّ منها متى شعرَتْ بأنها تريد تغييرَ المنظر من حولها.

كانت الآنسة لوفابل قد خفضت معاييرها بتأجيرها لجناحها على الشاطئ طَوال أشهُر الصيف. من ناحيةٍ، كانت فخورةً بحقيقة أن الطلب عليه كثيرٌ وبشكلٍ دائم. وكان هذا نتيجةَ سياسةٍ محدَّدة من جانبها، تتمثَّل في: تركيب ثلَّاجة، والاستخدام المترف لطلاء المينا الأبيض.

لكن مع أنه كان صحيحًا أنها لم تكُن تُعير الساحل الجنوبي اهتمامًا خلال موسم العطلات؛ فإنها كانت تشعر دائمًا بالذنب بشأن تأجيره. فقد استغلَّت بذلك شيئًا كان شخصيًّا بشدَّة لها؛ منزلها على البحر. كان الأمر تقريبًا كما لو كانت قد استفادت من تجارة الطلاء الأبيض.

وبصرف النظر عن شعورها بالعار، كانت تشعر لسببٍ غامض أنَّ هؤلاء الأشخاص السَّمِحين، الذين يدفعون لها بسعادةٍ غامرة أكثر من اللازم مقابل الإقامة المؤقتة، سيتركون لا محالة شيئًا من شخصيتهم خلفهم. لم يعُد جوُّ الجناح يوحي بشخصيتها وحدها، بل كان ممزوجًا بشخصياتِ «براون، وسميث، وروبنسون».

قطَّبَت الآنسة لوفابل جبينها في حيرة وهي تُعيد قراءة رسالة وكيل العقارات. كان الوكيل قد أشار عليها بأنَّ عميلًا يرغب في تأجير منزلٍ عائلي مفروش في ضاحية من ضواحي لندن لمدة شهر تقريبًا. وأضاف أنها إذا كانت مُستعِدَّة للنظر في العَرض؛ فإنه يعتقد أنَّ الميجور براند هذا سيكون مستأجرًا مُستحسَنًا.

مضَت دقائق حاسمة، بينما كان مستقبلها مُعلَّقًا على المحكِّ. في تلك اللحظة، كانت الآنسة لوفابل آمِنة. كانت الآنسة لوفابل، صاحبة منزل البحيرة بهايفيلد، تعيش في عالَم مختلف عن عالَمِ رجلٍ يعيش في شقَّةٍ قاتمة في شارع تشارينج كروس. وما دامت باقية حيث هي؛ فإن مسافةً هائلة كانت تفصل بينهما.

كان التهديد قاصرًا على الآنسة لوفابل التي تسكن في المنزل رقم ١٩، بماديرا كريسنت بلندن، في القسم الشمالي الغربي من المدينة.

ومع ذلك، كان هناك حدٌّ زمني لمرحلة الخطر، حتى في حالتها. فإذا زار هذا الرجل المنزل في لندن في اليوم التالي وفقًا لجدوله، ووجده مغلقًا وغير مأهول؛ فليس من المُرجَّح أن يضيع الوقت في رحلةِ عودةٍ قد تجذب الانتباه إليه. فبالنسبة لأغراضه، كانت أيُّ امرأة مثل كلِّ الأخريات؛ ودليل الهاتف كان مليئًا بأسماء أخرى.

شعرَت الآنسة لوفابل بأول النزعات نحو التنظيم، وهي ما تزال بعيدةً عنه بملايين العوالم، وآمِنةً في ملاذها ذي الألوان الخضراء والبيضاء، المتمثِّل في غرفة الطعام. كانت تعتقد أنَّ لديها موهبةً إدارية، نظرًا لحقيقة أنها دائمًا ما كانت تتخذ قرارًا سريعًا وتلتزم به، بغضِّ النظر عن العواقب.

في هذه الحالة، تبيَّنَ أنها ينبغي أن تسافر إلى سويسرا مباشرةً من لندن، من أجل توفير ثمَن تذكرة قطار مزدوجة. ولكن بينما كانت هذه الرحلة ضروريةً؛ حيث إنها لن تقبل بأيِّ مستأجر قبل أن تراه وتوافق عليه أولًا، كان من الضروري تقصيرُ مدة زيارتها قدرَ الإمكان. فهناك دائمًا نفقاتٌ إضافية تنطوي على إدارة شئون منزلَين منفصلين، على الرغم من أنه لن يكون من المُجدي لها نقلُ عائلتها إلى المدينة لفترة محدودة جدًّا.

أخرجت الآنسة لوفابل مفكرتها الصغيرة، وشرعت تحسب التواريخ. كان اليوم هو الحادي عشر من شهر أغسطس. لو أنها سافرت إلى لندن في اليوم الثاني عشر من الشهر، ينبغي لثلاثة أيام أن تكون كافيةً للانتهاء من أعمالها. من ثَم ستكون مستعدَّة لأن تبدأ إجازتها من اليوم الخامس عشر من الشهر، الأمر الذي سيسمح لها بقضاء أسبوعَين كاملَين خارج البلاد.

وعلى الرغم من أنها لم تُلزِم نفسها بأيِّ قرار، فقد بدأ عقلها يعمل بتُؤَدةٍ شديدة. أولًا، لا بد أن تهاتف وكيلَ العقارات في لندن وتطلب منه أن يدبِّر موعدًا مع الميجور براند في الصباح التالي. وحين تتسلَّم دفعة المال المدفوعة مُقدَّمًا — والتي تشترطها دائمًا — فسيتعيَّن عليها الانتظار حتى تمرِّر الشيك الذي سيُحرِّره لها إلى الفرع المَحَلِّي لبنك لندن، والذي تملك فيه حسابًا ائتمانيًّا. بعد ذلك سيكون كلُّ شيء على ما يُرام، حيث تستطيع شراء التذاكر من كوك.

بحلول ذلك الوقت، كان كلُّ شيء قد أصبح مُرتَّبًا في ذهنها بصورةٍ تامة، حتى إنها باتت تنظر للأمر وكأنه خطةٌ صارمة. وانتظرت حتى أصبحت الساعة التاسعة والربع، قبل أن تتصل بوكيل العقارات، وحينها انزعجت عندما وجدَتْ أن العاملين وحدهم هم الموجودون في المكان.

وبعد أن أمْلَت عليهم رغباتها بوضوح كما يُمْلِي زعيمٌ طاغية إنذارَه الأخير، خرجت تسير نحو الحديقة، فوجدت إلسي هناك.

ومع أن الوقت كان لا يزال مبكرًا، فإن الندى كان قد جفَّ حتى في الأماكن الظليلة، وكان الهواء الدافئ يبثُّ الرائحة المنبعثة من الخُزامَى ونباتات رقيب الشمس من رقعة النباتات المُعمِّرة. وكانت الأزهار المتفتِّحة تُسقِط بَتلاتها على الأحواض في كومةٍ مختلطةٍ من الألوان: القرمزي والأصفر والزهري. كما كان هناك بُقَع من الماء الصافي بين أوراق الزنبق في الحوض وقد انعكست عليها السماء في بريقٍ له لون أزرق مُتَّقِد.

لم تكُن الخادمة ظاهرةً لعينها، لكن كان بوسع الآنسة لوفابل أن تسمع صيحاتٍ من ضحكٍ أجَش، تختلط بنباح كلبٍ سعيد ومُتحمِّس. ولَمَّا تتبَّعَت الأصوات، قادتها عَبْر ممرٍّ مُقَنطَر من خشب الصنوبر المُقطَّع؛ فوجدت إلسي تتمايل على العشب ومعها الكلب سكوتي والقطُّ ديفيد.

وبينما اقتربَتْ سيدتها، نهضَتْ إلسي على يدَيها وركبتَيها ورفعت نظرها من خلال شَعرها الذي كان يُغطِّي عينَيها وكأنه لبدةُ أسد؛ وفي لحظةٍ نهضَتْ واقفةً وعدَّلت كل خصلة من خصلات شَعرها المتموِّج، وكذلك جوربها المصنوع من الحرير الصناعي.

قالت إلسي باحتشام: «ديفيد يرقص رقصةَ لامبيث.»

فردَّت الآنسة لوفابل بتلقائية: «أوه. إلسي، أنا في انتظار مكالمة خارجية. إنْ سارت الأمور على نحوٍ مُؤاتٍ، فسنكون مشغولتَيْنِ لبعض الوقت. إذ سيتعيَّن عليَّ أن أحزم

أمتعتي اليوم من أجل السفر إلى سويسرا، وسيَتعيَّن عليكِ أن تنسخي لائحة محتويات منزل لندن.»

بدا التجهُّم على وجه الفتاة، رغم أن هذه المهمة كانت مرغوبة لها؛ لأن إلسي كانت تشعر بالفخر بخطِّها المُنمَّق.

فسألَتْها إلسي: «ألن تأخذينا معكِ؟»

أجابتها الآنسة لوفابل: «نعم يا إلسي. سيتعيَّن عليكِ الانتظار في المنزل، لا تَبرحيه.»

«حسنٌ يا سيدتي. هل ستغيبين فترة طويلة؟»

«نحو ثلاثة أسابيع. لكنني سأطلب من الآنسة بِيت أن تُعرِّج عليكِ وترى إنْ كان سكوتي وديفيد بخير. وسيرشدك الكابتن براون بشأن الأزهار، وإنْ كان هناك خضراوات فائضة فسيُسَرُّ الأب بتوزيعها. لن يكون لديكِ ما يدعو للقلق. وأعرف أن بإمكاني وضع ثقتي بكِ لمتابعة الأمور.»

«شكرًا لكِ يا سيدتي.»

كانت إلسي تفهم الوضع تمامًا. وعلى الرغم من أن سيدتها أعربَت عن ثقتها الكاملة فيها، فإن مُحقِّقًا من دائرة تحسين المجتمع في القرية يتمتَّع بغرائز مُدرَّبة؛ كان سيراقبها.

ألقَت الآنسة لوفابل نظرةً على وجه الخادمة المُتجهِّم، ودغدغت ديفيد على بطنه المستديرة الممتلئة.

وعلَّقَت تقول: «يقول ديفيد إن التجهُّم لن يُفضي بكِ إلى شيء.»

انفجرت إلسي قائلةً: «لا أريد شيئًا، ولكنني لا أحب أن تذهبي دون أن أكون موجودة لأعتني بكِ. كل الأمور الفظيعة تحدث في الخارج ... قد تُقتَلين.»

«وقد أُقتَل في إنجلترا أيضًا، إذا كان ذلك ما تُخطِّطين له.»

«لن يحدث ذلك إذا كنتُ موجودة لأفتح الباب للغرباء ثم أصرفهم بعيدًا.»

«ولكن لماذا قد يرغب أحدٌ في قتلي؟ أنا لا أتجوَّل مرتديةً الفرو والألماس. ولا أحد يحمل ضغينةً ضدي.»

«هناك مجرمون مُختَلُّون عقليًّا. هؤلاء لا يُميِّزون.»

«ولكن على المرء أن يثير حفيظتهم أولًا. عادةً ما يتلقون دعوةً إلى المنزل من قِبَل النساء المسكينات اللاتي يسقطن ضحايا لهم.»

«ليس في الأماكن المنعزلة.»

«لن أذهب إلى الغابة بمفردي. ستتمثَّل المشكلة في العثور على مكان في جريندلوالد، لا يكون مليئًا بالسيَّاح ... لا تكوني سخيفة يا إلسي. تخلَّصي من هذا الشعور.»

تحدثَت الآنسة لوفابل بنبرةٍ مُنتعِشة للغاية لتُخفي حقيقةَ أنها تأثَّرَت بولاء إلسي وتفانيها. وحين نظرَت إلى وجهها الشاحب وقوامها النحيل شعرت فجأةً بغصةٍ من فكرة الافتراق عنها.

فكَّرَت في نفسها: «لولا أنني أتدبَّر شئون ثلاثة منازل، لاستطعتُ تحمُّل تكلفة عطلة سعيدة لثلاثتنا.»

وبينما كانت في طور التراجُع عمَّا في ذهنها، سمعَتْ رنين جرس الهاتف داخل المنزل. جاءت مكالمة من لندن تخبرها أن الميجور براند سيقابلها ظُهرَ اليوم التالي في منزلها في لندن.

كانت هذه شهادةً دامغة على قدراتها في التنظيم، حتى إنها أغلقت باب قلبها أمام العواطف. فقرَّرَت مغادرة منزل البحيرة والسفر إلى المنزل رقم ١٩ بماديرا كريسنت، بلندن، في الجزء الشمالي الغربي من المدينة.

الفصل الثالث

اللاعب الخَفِي

كانت السراويل القصيرة هي الزِّي الرسمي للسيدة لوفابل، سواء كانت تعمل في المنزل أو الحديقة. كانت هذه السراويل جاهزةَ الصُّنع ومُحتشِمة، وليست خليعة أو فاضحة. ورغم ذلك، كانت تحترم حساسيات المجتمع المَحَلي وتتقيَّد بها بارتداء تنورة رمادية من الصوف أو القطن فوقها قبل أن تذهب إلى القرية.

كانت قد اعتادت كثيرًا سِحر القرية القديم لدرجة أنها لم تعُد تراه في عيون السياح المتحمسين الذين يَصِلون في سياراتهم وحافلاتهم. كانت ترى الأرصفة المرتفعة المظلَّلة بالأشجار، والسلالم الكثيرة، والبيوت المبنية على الطراز التيودوري وسط الخُضرة، والأعمدة، والكنيسة القديمة — مجرَّدَ أشياء في البيئة من حولها.

في تلك الظهيرة، كان كلُّ شيء يبدو كالمعتاد، بينما كانت تطأ الساحة الصغيرة المرصوفة لتصل إلى ظِلال الجادَّة المليئة بأشجار الليمون. كان الجو حارًّا بشكل غير عادي، وكان معظم الناس في منازلهم، ينامون في غُرَف مُعتِمة أو يجلسون في خصوصيةِ حدائقَ هادئة مُحاطة بالجدران.

ومع ذلك، ورغم الغشاوة الذهبية المغبرة التي كانت تملأ الجو — كما لو أن الحرارة قد أصبحت ظاهرةً للعيان — كانت هناك قوًى نَشِطة وفاعلة ترتجف خلف الجو العام الأزرق المُغبَّش. كان ذلك الشيء غير الملموس — وهو حظ الآنسة لوفابل — مُهدَّدًا بفعل مُطالَعة أحدهم المُبهَمة لدليل الهاتف.

كان حظُّها يحترس من داهيةٍ خبيث أَخَذَه على حين غرة. وهكذا، رغم أنَّ الآنسة لوفابل الْتَقَت بثلاثة أشخاص فقط في تلك الظهيرة، وكانت المحادثات في كلِّ حالة منها طبيعية وعفوية، فإن كل لقاء كان يُمثِّل خطوةً في لعبة تلعبها قُوًى غيرُ مرئية، وكان لكلٍّ تأثيرٌ على المستقبل.

كان سكوتي يصحب الآنسة لوفابل، وكان سعيدًا وكأنه يأخذها في نزهة. كان يسابقها بمسافةٍ معقولة فيجول في تلك المسافة متفاخرًا حتى تقترب منه، لكنه دائمًا ما كان يعود إلى جوارها ليطمئن على سلامتها. على الرغم من هذا الدليل على الولاء والوفاء من جانبه، كان كلما الْتَقى بكلبٍ آخَر تجاهلها تمامًا وتظاهَرَ بأنه خرَجَ وحده يقضي أعمالًا له.

وعلى مضضٍ بارحَت الآنسة لوفابل ظلال النفق المورق. وعَبَرَت النهر المتقلِّص على الجسر المُحدَّب، ووصلت إلى الحديقة المحاطة بسلاسل بيضاء مُعلَّقة بين الأعمدة. وهنا الْتَقَت بالعزباء المُسترجِلة في حفلة عيد القِدِّيسين.

كانت الآنسة أجاثا بِيت تُنزِّه كلابها غيرَ متأثِّرة بالحرارة. ترتدي قبعةً من الصوف تنزل على عينَيها، وبدلةً من الصوف الأخضر مُصمَّمةً لها خصوصًا، فزاد هذا من قُبح شكل تنورة الآنسة لوفابل وكنزتها المصنوعَتين في المنزل. وعندما رفعَت الآنسة بِيت يدها لتُحيِّيها، لم تستطع الآنسة لوفابل أن تحتفظ بأخبارها، رغم أنها قرَّرَت سابقًا أن تتظاهر باللامبالاة.

فصاحَت فَرِحةً: «أرأيتِ ماذا فعَلَ حظِّي مرَّة أخرى. أنا ذاهبةٌ إلى سويسرا.»

لم تُظهِر أجاثا بيت أيَّ علامة على أنها فوجئت.

وقالت: «أنا ذاهبة إلى بلدة بِير. جنوب ديفون.»

«يبدو اسمًا جميلًا.»

«أليس كذلك؟ أنا بحاجة إلى بعض الشراب الآن فعلًا. لكنني على استعداد لأنْ أستبدله بالذهاب إلى المكان الذي ستذهبين إليه ... أينما كان ذلك.»

«جريندلوالد.»

تجعَّد أنف أجاثا بِيت في ارتياب.

وقالت: «كان فيما مضى مكانًا لطيفًا، حتى في أثناء الصيف. خالاتي كُنَّ يذهبن إلى هناك بانتظام. لكنهن يُنظِّمنَ الآن الكثير من الرحلات إلى المناطق الرائجة والمألوفة. ستلتقين بأُناسٍ كثيرين هناك.»

«لا أبالي بالناس، ما دامت الجبال بالشكل نفسه. أنا ذاهبة للقاء الجبال. لكنني لم أذهب إلى هناك منذ كنت طفلة. هل من نصائح تُسْدِينها لي؟»

تهلَّلَت أسارير الآنسة بِيت من قولها.

ونصحَتْها قائلةً: «بدايةً، يجب أن تسافري بمتاعٍ قليل. حقيبة واحدة فقط، وحقيبة صغيرة لِلَّيْلة التي ستقضينها في القطار. هل لديكِ جواز سفر؟»

«نعم، استخرجتُ واحدًا عندما ذهبت إلى بروكسل، قبل أربع سنوات. ماذا عن الملابس؟»

«ارتدي أقْدَمها.» كانت الآنسة بِيت وفيةً لتقليدٍ لا يزال مستمرًّا في دوائر الريف الراقية. «إن كان لديكِ أي ملابس قديمة تريدين إبلاءها، أو ملابس لا تناسب المنزل؛ فتلك هي فرصتكِ لارتدائها.»

فقالت الآنسة لوفابل: «هذا يناسبني تمامًا. منزل البحيرة يُبلي فستاني الجديد. هل لاحظْتِ الستائرَ الحريرية البيضاء فيه؟»

«لقد لاحظتُها. تبدو مناسبة تمامًا للأعراس.»

ازداد احمرار وجه أجاثا بِيت، الذي لفحَتْه الشمس وهي تكافح نفورها الطبيعي من تقديم النصائح. من وجهة نظرها، كان من الجنون أن يتزين المنزل بثيابِ الزفاف بدلًا من صاحبته.

فقالت: «أتمنى أن تلتقي بشخصٍ لطيفٍ في سويسرا، وتعودي مخطوبة.»

أجابتها لوفابل: «لماذا؟ لم يحدث هذا معكِ.»

«دعيني خارج هذا الأمر. لقد فاتني ذلك، ولكنني لا أستمتع كثيرًا برؤية الفتيات عزباواتٍ من دون أزواج. ألَمْ تفكري قَط في الزواج؟»

أجابتها لوفابل: «أحيانًا أفكِّر في الأمر. لكن هذا يعني أن شابًّا متفائلًا سيتوقع مني أن أعيش في بيته وأنفق مالي على سيارة جديدة، وعلى كلِّ معرض يقام من معارض أوليمبيا، وعلى المدارس العامة للأولاد. كلَّا، شكرًا.»

ألحَّت أجاثا بِيت في سؤالها: «ولكن هل الأمر يستحقُّ؟ أعني، تدبير شئون ثلاثة منازل. ما الذي يعود عليكِ من ذلك؟»

اعترفَت الآنسة لوفابل قائلةً: «الكثير. من الصعب شرح الأمر، ولكنه يجعلني أشعر أن معنوياتي في السماء. إنني مختلفة عن الناس الآخرين. غدًا عندما أكون في القطار، يمكنني أن أقول لنفسي: «قد أكون بائسة، ولكنني الشخص الوحيد هنا الذي يملك ثلاثة منازل».»

ألمحت أجاثا بيت، قائلةً: «هل ستُسافرين مُبكِّرًا كالعادة؟»

فأجابت: «نعم، في قطار العُمَّال.» ثم ضحكت الآنسة لوفابل وهي في حالة مزاجية جيدة للغاية. وأردفت: «لا تحاولي أن تكوني ماكرة. اتركي ذلك لجورج أرليس. أعترف

أنه لن يكون هناك الكثير من المنافسة، ولكن لو كنتُ أسافر في قطار بولمان الفخم مع الأثرياء؛ فلن أمانع في الرهان على أني سأظل الشخص الوحيد الذي يملك ثلاثة منازل.»

هنا غيَّرَت الآنسة بِيت الموضوع، حيث شعرَتْ أنها متحيزة جدًّا ولن تستطيع الجدال بأدب.

فقالت: «أتودين أن أنتبه لحيواناتكِ بينما أنتِ مسافرة؟»

وأجابت لوفابل: «أنا ممتنة كثيرًا لعَرضكِ هذا. أنتِ إنسانة غاية في الرِّقَّة ... ولكن من فضلكِ كوني لَبِقة؛ لأن إلسي حساسة جدًّا. هل تعلمين أن ذوقها رقيق جدًّا لدرجة أنها لا تستطيع أن تأكل «أمعاء» الحيوانات، ولا حتى بنكرياس العجل؟»

قالت الآنسة بيت: «سأُدوِّن ملاحظةً لأتذكر هذا في المرة القادمة التي تأتي فيها لتناول العَشاء. «خادمة الآنسة لوفابل لا تأكل بنكرياس العجل» ... بالمناسبة، ستُفوِّتين الحفل في الحديقة.»

فقالت الآنسة لوفابل: «أعلم. أنا في طريقي إلى منزل القس؛ لأخبر السيدة بوسانكيه ... وداعًا.»

«وداعًا. لا تنسي أن تسافري بأمتعةٍ خفيفة وترتدي أقْدَم ملابسكِ.»

«سأرتدي سروالي القصير.»

أخْفَت أجاثا بِيت رعشتها؛ فبالنسبة لها كان «المظهر العام» يتساوى مع النظافة في الأهمية، ويأتيان في المرتبة الثانية بعد التقوى والورع.

وقالت: ««حظًّا طيبًا»، في حال لم نلتقِ ثانية.»

فقالت لها الآنسة لوفابل بثقة: «سأناله.»

ورغم أنها كانت رسول حُسْن الحظ ومُبشِّرته؛ فإن انتصارها ظهَرَ بشكل لذيذ ومؤلِم بعض الشيء. فبينما كانت تتبع سكوتي عبر الحديقة، ظلَّ شيءٌ من الشعور بالشك يتفاقم بداخلها حتى كدَّرَ شعورها بالرضا. إذ تذكَّرَت أنَّ القرية كانت توفر فرصًا للصداقة لم تكن تستطيع الاستفادة منها. وبسبب انتقالها باستمرار، فقدَتْ صِلَتها بالقاطنين الأصليين للقرية.

مثال ذلك، أجاثا بِيت. كانت لدى أجاثا صفاتٌ ممتازة بصرف النظر عن عدم قدرتها على تقدير إلسي حقَّ قَدْرها. لقد أثبتت للتو أنها لم تكُن تكِنُّ أيَّ مشاعر غيرة وحسد، لكن ليس هذا وحسب، بل إنها كانت مستعِدَّة لتقديم خدمات شخصية وبسعادة.

مرَّت سيارة رياضية صغيرة قرمزية اللون، مليئة بمضارب الجولف، والكلاب، وكانت ثمة فتاة تقود السيارة، وبصحبتها شابان ضخما الجثة، وقد انحنوا كلُّهم لها بالتكلُّف المُستحَق لكبار السن، بدلًا من تحيتها بالصيحات أو التلويح.

حدَّثت الآنسة لوفابل نفسها: «لا يمكن أن أكون أكبر سنًّا بكثير من تلك الفتاة، لكنني دائمًا أجِد نفسي مع أجاثا بِيت ورفاقها ... يا للغرابة.»

حينها تسبَّب العشب المحترق المُسمَّى خطأً بالأخضر في جَعْلها تفكر في جبال الثلج؛ فعاد لها شعورها المعتاد بالسعادة.

قالت الآنسة لوفابل: «إلى منزل القس يا سكوتي.»

فقادها الكلب الصغير من فوره نحو السلم الحجري الطويل الذي كان يؤدي إلى الكنيسة.

كان أي شخص يعيش في هايفيلد مُؤهَّلًا للقيام بوظيفةِ ساعي البريد؛ حيث كان معظم القرية مبنيًّا على أرضٍ مرتفعة، ويمكن الوصول إليه فقط عن طريق تسلُّق الدرَج. وبينما كانت الآنسة لوفابل تصعد الدرَج، كانت البيوت الريفية الخلَّابة تصطفُّ عن يمينها وشمالها، مغطاة بالنباتات المعترشة ونباتات الكبوسين.

في منتصف الطريق صعودًا على الدرج، توقفت الآنسة لوفابل عند بسطةٍ فسيحة ومرصوفة ثم استدارت إلى اليمين ومرَّتْ عَبْر بوابات حديدية مزخرفة وعالية. كانت الساحة العشبية الظليلة داخلها وأشجار الطقسوس المُقلَّمة تشبه إلى حدٍّ ما حديقةَ أحد الأديرة؛ لكنَّ هذه الصورة تحطَّمت عندما اقتربت من باب منزل القس بفعل ضجيج من أصوات نسائية حادَّة.

كانت زوجة القس تعقد «اجتماع الأمهات» في غرفة الطعام. قبل زواجها، كانت تعمل مديرةَ مستشفى ريفي؛ لذا كانت مستمتعة عندما وضعت قوانين النظافة. كانت تدير الأبرشية بكفاءة ولطف ودماثة، لكنها لم تعتد على عدم ارتداء قبعتها. وفي تلك الظهيرة، ورغم حرارة الجو وحقيقة أنها كانت في منزلها؛ كانت زوجة القس ترتدي قبعةً لها أربطةٌ مربوطة تحت ذقنها، للدلالة على أن هذه مناسبة رسمية.

كانت الآنسة لوفابل تروق لزوجة القس؛ لأنها رأت فيها المتدربة المثالية، بعد أن تم ترويضها بالعمل الشاق والزجر؛ لكنها رغم ذلك واجهت دخولها غير المُصرَّح به واعترضَتْ عليه.

«منذ متى أصبحتِ أُمًّا؟ أظهِري الطفل، وإلا فلن تحصلي على الشاي.»

فقالت الآنسة لوفابل: «أنتِ تعرفين تمامًا أن لديَّ ابنَين ذوي فرو. إضافةً إلى ذلك، لم آتِ مُتسوِّلةً.»

في تلك اللحظة، ظهرت الطباخة لتُعلن عن استراحة تناوُل الشاي، من ثَم كانت زوجة القس مُتفرِّغة للاستماع إلى توضيح الآنسة لوفابل حول غيابها عن حفل الحديقة.

ولم تُخفِ حقيقة أنها كانت مستاءة جدًّا ممَّا سمعَتْه من أخبار.

فقالت: «هذا الأمر مُحبِط للغاية، بعد كل جهودي لجعل الحفلة ناجحة. لقد وعدَت الليدي بونتيبول بافتتاحها، وبطبيعة الحال أريد أن أُشيدَ بها أمام حشدٍ كامل من كل أبناء الأبرشية.»

أعادت الآنسة لوفابل ترديدَ الاسم في دهشة: «الليدي بونتيبول. ولكنها من الكبار.»

«كلَّا. إنها تَزِن حوالي ثمانية ستونات.»

«أعني ... إنها غَنيَّة، مُهمَّة.»

«هي ليست ذاتَ أهمية لي. كنتُ أعتني بها عندما كانت تعاني من الْتِهاب الجنبة. المستشفى أعارني ... أليس بإمكانكِ تأجيل زيارتكِ إلى سويسرا؟»

«كلَّا، لقد وضعتُ ترتيباتي للذهاب إلى لندن غدًا.»

رأت زوجة القس أنها اتخذت قرارها بالفعل، لذا عادت إلى الأمهات. وتمتمَتْ تلقائيًّا: «سوف أراقب إلسي.»

سارعت الآنسة لوفابل نحو منزلها لتناول الشاي وهي تشعر بالحر والعطش. وفي طريقها كانت محظوظة بما فيه الكفاية للقاء الكابتن براون — منافسها في العديد من معارض الزهور. كان رجلًا هادئًا صغير الجسم، وكان قد تَحمَّل التضحية بنَفْيِه بعيدًا للإصابة بالملاريا، بشكل كافٍ لأنْ يحصل على وسام الشجاعة في الخدمة النَّشِطة.

وقد تلألأت عيناه عندما وعدها بالاعتناء بحديقتها في غيابها.

إذ قال لها: «أُحذِّركِ، سآخذ الكثير من الغنائم، يجب على المرء أن يكون قاسيًا. قبل أن أغادر، أقطع كلَّ زهرةٍ وكلَّ بُرعم في حديقتي. أُخْلِدها إلى النوم كما تعرفين. إذا لم أفعل ذلك سيُزهِرُ كلُّ شيء ويُنتِج بذورًا ... وينتهي أمر الحديقة.»

ورغم أنه كان يدعو فقط إلى تدبيرٍ وقائي مُؤقَّت؛ فقد اعترضت الآنسة لوفابل على تدمير نباتاتها الحبيبة تدميرًا تامًّا.

فقالت: «أظن أنك تُطبِّق التعليمات بحذافيرها بشكلٍ مُبالَغ فيه، قلتَ لي أنْ أحفر بعمقٍ ثلاث مجرفات لوضع بذور البازلاء وأن أغطِّي البذور بالرصاص الأحمر لمنع

الفئران من أَكْلِها ... وفي الواقع، لم أفعل ذلك. وقد هزمَت البازلاءُ التي زرعتُها نباتاتك في المعرض.»

تألَّمَ الكابتن براون من هذا النقد، وهو الأفضل في اختصاص البستنة في المنطقة.

فتذمَّر قائلًا: «تفعلين كلَّ شيء بشكل خاطئ، ومع ذلك تنبت زهورِكِ. لا بد أنكِ خبيرةٌ في البستنة.»

فقالت: «نعم، أنا محظوظة.»

«كنتِ محظوظةً بالتأكيد بشأن منزلكِ. لا أستطيع تخيُّل لماذا قد يرغب أيُّ شخص في البقاء في لندن في شهر أغسطس.»

فأجابته: «كان ذلك لأنني أردتُ الذهاب إلى سويسرا. الأمور دائمًا ما تتحوَّل لصالحي ... ولكن يجب أن أعود إلى المنزل بسرعة. إذ يتعيَّن عليَّ حَزْم أمتعتي. فلم يبقَ لي إلا ليلةٌ واحدة فقط هنا.»

ليلة واحدة إضافية فقط يمكنها فيها النوم بأمان ... في تلك اللحظة، بدا أن حظَّ الآنسة لوفابل كان على وشك النفاد.

الفصل الرابع

المنزل الفارغ

في الصباح الباكر من اليوم التالي، صعدَت الآنسة لوفابل الدرَج الخشبي المؤدي إلى محطة السكة الحديد المرتفعة. كانت تحمل حقيبة ثقيلة ممتلئة بالأغراض، في حين كانت إلسي تحمل الحقيبة الصغيرة التي تحتوي على بقية الأمتعة والتي ستحتاج لها في الليل.

لم تتحدث الخادمة أثناء سيرهما إلا قليلًا، بينما كان وجهها يُعبِّر عن استكانةِ بحَّار مصاب بدوار البحر. ولم تبدأ الخادمة إلسي في التفاعل مع سيدتها إلا حين استقرت الآنسة لوفابل في عربة من عربات الدرجة الثالثة.

فقالت: «من فضلكِ يا سيدتي، هل يمكنكِ أن تَعِديني بألَّا تفتحي الباب لأي شخص؟»

فأشارت عليها الآنسة لوفابل قائلةً: «تمالكي نفسكِ. يجب أن أفتح الباب للرائد براند.»

«هل تعرفين شكله؟»

«كلَّا، فنحن لم نتبادل الصور.»

«إذَن كيف ستعرفين أنه هو؟»

«من الشيك. هذا دليلٌ كافٍ لي.»

أنزل الحارس الراية الخضراء، فبدأ القطار في مغادرة المحطة. وبينما كانت إلسي تركض بجانبه، استمرَّت في الصراخ:

«انتبهي للقفازات. لاحظي إنْ كان يُبقي على ارتدائها. الجُناة دائمًا يرتدون القفازات، حتى لا يتركوا أيَّ بصمات.»

«حسن ... وداعًا يا إلسي. احرصي على المجيء لمقابلتي.»

«القفازات. لا تنسي القفازات.»

«واحرصي على إحضار سكوتي معكِ لمقابلتي في المحطة. سكوتي.»

«القفازات.»

كانت إلسي هي التي قالت الكلمة الأخيرة وهما تصرخان إحداهما في وجه الأخرى. ثم غاصت الآنسة لوفابل في مقعدها، لتجد أن كل شخص في العربة كان يُحدِّق فيها.

للحظة، كادت تصدِّق أنهم ينظرون إليها بتقديرٍ يليق بامتلاكها ثلاثة منازل، قبل أن تدرك السبب الحقيقي لانتباههم إليها.

فكَّرَت في نفسها بإعجابٍ وسرور: «أظنُّ أنني أبدو لهم أوروبية.»

استغلَّت الآنسة لوفابل ما أشارت إليه الآنسة بِيت في نصيحتها لها بشأن ارتداء الملابس القديمة؛ فارتدت فستانًا كان معلَّقًا في خزانة ملابسها لسنوات. كان الفستان من الساتان الأسود، صنعَتْه خيَّاطةُ ملابس نسائية، وقد اشترَتْه الآنسة لوفابل لحضور حفل زفاف، وكان أكثرَ أناقةً من أن ترتديه خارجَ سياق المناسبات. ورغم أن دورة الموضة كادت تلحق به، فقد كان قديمَ الطراز بالتأكيد، فإن التنورة الضيِّقة كانت «فضفاضة» بشكلٍ واضح.

كانت النتيجة المباشرة لحديثٍ نسائي سخيف وغير مهم جرى في الحديقة، هي شعبية للآنسة لوفابل. كانت لافتةً للغاية، حيث لم يكن يمكن تجاهلها أو إغفالها، حتى عندما نزلت من القطار في محطة تشارينج كروس. كانت تتقدَّم على رصيف المحطة وفي كلِّ يدٍ من يدَيها حقيبةٌ، وعلى كتفها معطف قديم مصنوع من وبر الجِمال، وشَعْرها الأشقر مكشوف؛ فكان الناس يلتفتون ليُلقوا عليها نظرةً ثانية.

وحيث كان التباهي والاستعراض أمورًا في غاية السهولة؛ فقد كانت سعيدةً بشكلٍ ساذج بالانتباه الذي كانت تجذبه إليها.

فكَّرَت لوفابل في نفسها: «من الحكمة أن يسافر المرء بملابس أنيقة. وما زلتُ أدَّخر ملابسي الصوفية الفاخرة.»

كان الجو في محطة الأنفاق حارًّا وخانقًا، وكانت عربة القطار تعجُّ بعُمَّال في طريقهم إلى أعمالهم أو متاجرهم؛ لكن رغم هذا الازدحام عَرَضَ عليها أحدُهم مقعدًا بمجرد أن دلفَتْ للعربة؛ تقديرًا لمظهرها وإشادةً به. كانت العيون تُحدِّق بها وتنعكس فيها مشاعر مختلفة؛ الانتقاد والسخرية والإعجاب والحسد.

وحين خرجت من محطة قطار الأنفاق إلى الشارع المزدحم، شعرَتْ بالأسف على حوض الزنابق في حديقة منزل البحيرة. فعلى الرغم من أن الوقت كان لا يزال مبكِّرًا، فقد كانت درجة الحرارة مرتفعة. وكان الهواء الفاسد مُعبَّأً برائحة الغبار والعوادم القذِرة، والأرصفة متَّسخة والمثقاب الذي يعمل بضغط الهواء يُمزِّق قطاعًا من الطريق.

لم تَسِر الآنسة لوفابل مسافةً كبيرة قبل أن تنعطف إلى طريق جانبي يؤدي إلى شارع ماديرا كريسنت. كان المكان يحتلُّ موقعًا منعزلًا وهادئًا، وكان عبارةً عن مجموعة من المنازل على الطراز الفيكتوري والتي تتَّخذ شكلَ نصف دائرة؛ منازل متينة لها أروقةٌ ذات أعمدة ودرَجٌ أمامي طويل، وتحرسها أُسود جصيَّة. وقد تم تحويل عدد قليل من هذه المنازل إلى شقق، كما كان هناك فندقان سكنيان؛ وعلى الرغم من أن المنازل فقدت بهاءها وتألُّقها، فلم تكُن الحالة القياسية لها قد تدهورت.

في الجزء الأمامي من المكان، كانت هناك حديقة خاصة مخصصة للقاطنين. في الوقت الراهن أصبحت هذه الحديقة مكانًا قَفرًا، عشبه كثيف وأشعث، وبه شجيرات دائمة الخضرة مصابة بالسناج، وإن كانت أشجارُ القصاص ونباتات الليلك تُضفي عليه في الربيع مظهرًا جميلًا مؤقتًا.

وبينما كانت الآنسة لوفابل تقترب من المنزل رقم «١٩»، توقفت ورفعت ناظِرَيها إلى زخارف الجصِّ برتقاليةِ اللون على واجهته. كان شيش النوافذ مغلقًا؛ لذا لم يتسنَّ لها أن تُعجَب بالستائر الغالية التي ابتاعتها للمنزل، لكنها شعرت بالشعور المعتاد بالفخر بملكها.

«منزلي الخاص. منزلي اللندني.»

فتحت الآنسة لوفابل الباب، ثم ترددت وهي تحدق في الظلمة داخل المنزل. فبعد سطوع الإضاءة في الشارع، كانت عيناها مبهورتَين؛ لم تستطيعا التركيز بشكلٍ ملائم ولا التعرف حتى على شكل أي شيء مألوف لها بالداخل. بدا داخل المنزل وكأنَّ به حياة يخالطها تشوُّش الظلال المتحركة، كما كان مظلمًا وكأنه أدغال.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تدلف فيها إلى المنزل وحدها. فعادةً ما كان دخولها إلى المنزل يُمثِّل مشهدًا يختلط فيه الصخب والإثارة. إلسي تصيح بسكوتي وهي لاهية عن تحوُّل نبرتها الرسمية، وسكوتي يرغب دائمًا أن يكون «أول» مَن يدخل إلى المنزل، في حين يتقافز ديفيد وهو بداخل صندوقه وكأنه سمكةٌ خرجت من الماء.

أخبرت الآنسة لوفابل نفسها أنها تفتقد الآخرين وهي واقفة مكانها، وقد انتابها شعورٌ غريب بالتردد في الدخول. وعلى الرغم من أنها لم تكُن شخصًا واسع الخيال بطبيعتها، فإن المنزل لم يكُن يوحي بأنه خاوٍ. انتابها شعورٌ غير مريح بأنَّ بالمنزل مستأجرًا متطفلًا لا يدفع إيجارًا.

كان شخصٌ ما — أو شيءٌ ما — ينتظرها في الظلام.

ولكي تتخلَّص من هذا الانطباع، أجبرت نفسها على الدخول إلى الردهة وأغلقت الباب. لم يقفز شيء عليها من العتمة عندما فتحت الشيش الزنبركي؛ ممَّا سمح بدخول شعاعٍ من الشمس.

أظهر الضوء سجادةً مخمليةً بلونِ البرقوق، كانت مصدر فخر خاص لها. فتوقفت وفركتها بإصبعها، فظهرت بقعةٌ لونها أغمق قليلًا.

ففكَّرَت: «إنها تحتفظ بالغبار. سأضطر لمواجهة الأمر وشراء مكنسة ... والآن سأُعِدُّ فنجان شاي.»

نزلت الآنسة لوفابل الدرَج إلى المطبخ الأشبه بالقبو، ففتحت الباب الخلفي الذي تكتنفه شُرفة كبيرة تُطِلُّ على المنطقة. كان هناك سَلَّة مُعلَّقة على مقبض الباب من الخارج تحتوي على رغيف خبز وزجاجة حليب.

على الرغم من أنها كانت مشغولة جدًّا في اليوم السابق، فإنها لم تنسَ إرسال التعليمات لمصنع الألبان المحلي. وفي سرور من إجادتها وانتباهها للتفاصيل الضرورية للتنظيم الفعَّال، ملأتْ غلايةً بالماء ووضعَتْها على موقد الغاز.

لكن على الرغم من أنها كانت عطشى، فإنها لم تشعر بأيٍّ من الإثارة والنشوة التي شعرَتْ بها أثناء التحضير لأول وجبة في النزهة. وبينما كان من المستحيل تتبُّع سبب شعورها بعدم الراحة؛ فإنها كانت مضطربةً وقلِقةً لسببٍ مُبهَم أثناء انتظارها أن يغلي الماء.

وجدَتْ نفسها تُفكِّر فيما كان عليه المنزل حين كان فارغًا، بورق الجدران الباهت، والنوافذ المغطاة بخيوط العنكبوت، وحواجز النوافذ الحديدية الصَّدِئة. في ذلك الوقت، تذكَّرت مسرحية «آل باريت من شارع ويمبول»، وهام فِكرُها وهي تتساءل: هل كانت جدران هذا المنزل قد شهدت مشاهد من القسوة الأبوية أو الرعب الذي يشعر به الأطفال الذين يخافون من المربيات؟ لكنَّ عُمَّال الزخرفة وفنِّيي الكهرباء كانوا قد محوا كلَّ بعبع من الحقبة الفيكتورية.

وفجأة، أدركت لماذا كانت تشعر بالاضطراب. كان السبب هو التفكير في كل تلك الغرف المظلمة في الطوابق العلوية.

ففكَّرَت في نفسها: «سيكون من الأفضل أن أفتح المنزل، وبعد ذلك أستطيع أن أستمتع بالشاي.»

خفضت الآنسة لوفابل شعلة الغاز إلى أدنى درجة ممكنة، ثم صعدت إلى الطوابق العلوية. كان البيت طويلًا وضيقًا، وكان له غرفٌ كبيرة وخزائن عديدة. في الطابق الأرضي،

كانت هناك غرفة الطعام وغرفة الجلوس الصباحية؛ وفي الطابق الأول، غرفة الضيافة وأفضل غرفة نومٍ وحمام بالمنزل. وفي الطابق التالي، كان هناك غرفتا نومٍ أُخريان، إضافةً إلى خزانةٍ للبياضات وغرفة للتخزين، في حين أن الجزء العلوي من البيت قد مُنِح لسكوتي وديفيد.

تنقَّلَت الآنسة لوفابل بين الغرف بفعاليتها وسرعتها المعهودة، تضمُّ الستائر فتُصدر حلقاتها صوتًا عاليًا وتفتح النوافذ. كان فعلها أكثر دقة وشمولًا من روتينها المعتاد؛ ذلك أنها فتحت كلَّ خزانة للأدوات والملابس، ونظرَتْ خلف كلِّ باب. حتى إنها انحنت بما فيه الكفاية وانبطحت؛ لتنظر تحت الأَسِرَّة.

بحلول الوقت الذي كانت قد انتهت فيه من العمل، كانت حالتها المعنوية الطيبة المعتادة قد عادت إليها. لم يكن هناك أي أثرٍ لتلك البقايا الفيكتورية الغابرة والكئيبة في هذا القصر الرغيد، بأثاثه الجديد والمكلِّف. وكانت لوفابل تشعر بالفخر بشكلٍ خاص تجاه سجادها، وبحقيقة أن السلالم المؤدية إلى المطبخ والعلِّيَّة هي وحدها المغطاة بمشمع الأرضيات.

وحين اطمأنَّت تمامًا، نزلت السلالم وأعدَّت الشاي لنفسها. وبينما كانت تشربه، رنَّ جرس الباب الأمامي. كان الوقت مبكرًا جدًّا لأن تتوقع وصول الميجور براند، لكنها لم تجرؤ على المجازفة بإغفاله، لذا صعدت الدرَج وفتحت الباب.

كان رجلٌ يرتدي طوقًا كهنوتيًّا مستديرًا وقبعة من الصوف الناعم يقف خارج المنزل. أظهرَتْ ذقنه المائلة إلى الزرقة أنه يعاني صعوباتٍ في كبح لحيته الكثيفة، في حين أن شفتَيه المتحركتين كانتا توحيان بشكلٍ طفيف بأنه ممثل.

قامت الآنسة لوفابل بتقييمه بحُسْن تمييزها الفطري، والذي يتخلَّى عنها تمامًا حين تكون في أزمة.

«قفَّازات سوداء. جمْعُ الكتب. شيء ما يخبرني بأنك لم تكُن تنتمي من قبل إلى الرُّتَب الكهنوتية، يا صديقي.»

كانت ابتسامة الرجل جذَّابة، وعندما تحدَّث لم يكُن في حديثه نبرةٌ مِهَنِية.

«يوم مجيد آخَر. نحن محظوظون لأننا نستطيع رؤية السماء. بدافع الامتنان، هلَّا أعطيتِني مساهمةً للمكفوفين؟»

نبَّهته الآنسة لوفابل بقول: ««نحن». أنت تستطيع الرؤية بقَدْرِ ما أستطيع أنا. فما شكل ما تتقاضاه لقاءَ امتنانك؟»

ولَمَّا التقتْ عينه بعينها الزرقاء الذكيَّة، قيَّمها وحدَّد خطةَ عمله.

وأجاب بصراحة: «خمسون في المائة ممَّا أجمعه.»

«آه، أستطيع دائمًا تمييز المحصِّل المحترف. بصراحة، أتمنى لو كنتُ أستطيع إعطاءك شيئًا، على الرغم من أنني مكتتِبة بالفعل. لكنَّ قائمتي للأعمال الخيرية ممتلئة وطويلة، ولا أستطيع زيادتها.»

نظر المحصِّل إلى السلسلة الذهبية السميكة حول رقبتها. كان مُعلَّقًا فيها فيلٌ خرطومه مرفوع.

فقال لها: «إذا كنتِ لا تستطيعين إضافةَ المزيد، فلماذا لا تكسبين بعضَ المال الإضافي؟ بالتأكيد سمعتِ عن التوءم؟»

«الدوءم؟ بالطبع.»

«كلَّا، توءم براونينج. تذكُرين قصيدته عن الدير المنكوب بالفقر، والذي كان به ساكنان: إحسان، وجميل. «أَعطِي» و«ستُعطين»، كما تعرفين.»

ثم بدأ يقتبس:

«متى كان إحسانٌ بحالٍ طيبة،
يَنضُر أيضًا وجه جميل؛
وحين يهزُل جميل،
فلا تعجبْ إن سُقِط في يدِ إحسان.
فإن أردتَ استرجاع أحدهما،
فرفِّه الآخَر وأرغِدْ عليه ...»

ثم توقف عن تلاوة النص وفتح كتابه.

وسألها: «هل كان ما قلتُه واضحًا؟ أعطيني عطيةً صغيرة وعدِّيها استثمارًا. ستستعيدينها وعليها فائدة.»

عرفت الآنسة لوفابل أنه كان يلعب على ضعفها أمام الخرافات، ومع ذلك، لم تستطع مقاومةَ طُعمه. فأخبرَتْ نفسها أن تلك بمنزلة بشارةِ خير.

ثم قالت في نفسها، حين كانت تفتح حقيبتها: «سأحصل على أكثر مما أتوقَّع من البيت.»

بعد أن ذهب المحصِّل الماهر الواسع الحيلة، بدا البيت وكذلك الحيُّ أيضًا هادِئَين بشكلٍ غريب. لم يخطر على بالها من قبل كيف كانت منطقةُ كريسنت معزولةً تمامًا

عن الطريق الرئيسي، ومنطويةً كذلك على نفسها. إذ لم تكن الجدران الصلبة لكل منزلٍ تسمح للجيران بأنْ يتدخل بعضهم في شئونِ بعض. ولم تكُن الآنسة لوفابل تسمع أيَّ أصوات أو خطوات من حولها. لم يكن هناك سوى صوتِ طنين بعيد يتدفَّق من النوافذ.

وكان هناك لوحةٌ عند كلِّ مدخلٍ تُحذِّر الجمهور من التجاوز والتجول المرفوض. كما أن لوحةَ «غير مسموحٍ بالجنازات» جعلَتْ منطقة كريسنت مكانًا غيرَ ملائم للموت، إذا ما طُبِّق الأمر حرفيًّا.

حدَّثت الآنسة لوفابل نفْسَها، وهي تشعر بفخرٍ مبرَّر باعتبارِ هذا دليلًا على رُقِيِّ منزلها وانعزاله: «يمكن لأيِّ شخص أن يُقتَل هنا ولن يسمع أحد صوتًا.»

الفصل الخامس

القفازات

بينما كانت ساعة الكنيسة تُقرع معلِنةً الثانية عشرة، دقَّ جرس الباب الأمامي مرةً أخرى.

فكرت الآنسة لوفابل: «شكرًا للربِّ؛ إنهم يعلِّمونهم الدقة في الجيش. لم يَضِع مالي هباءً.»

كان من المعتاد من عقليتها أن تنسى أن أحدًا غيرها يدفع الرسوم وضرائب الدخل.

ركضت صعودًا على درَج المطبخ في حماسٍ لاستقبال الميجور براند؛ ولكنْ عندما فتحت الباب، لم يبدُ من مظهر الرجل الذي كان يقف بالخارج أنه عسكري. كان أصغرَ سنًّا مما كانت تتوقع، وطويلَ القامة، ونحيلًا ومهندمًا؛ بدا رجلًا إنجليزيًّا متعلمًا عاديًّا، باستثناء أمارات الفطنة في عينَيه البُنيتين وتعبيرات الإحباط على وجهه.

وقد اختفى هذا عندما ابتسم، كاشفًا عن أسنانٍ ممتازة.

سأل: «هل الآنسة لوفابل موجودةٌ في المنزل؟»

فأجابته: «أنا الآنسة لوفابل.»

نظر إليها الرجلُ بدهشة.

«لكن، لا يمكن أن تكوني صاحبةَ هذا المنزل؟ أنتِ بعدُ فتاة صغيرة.»

انبهرَت الآنسة لوفابل لجِدَّة الوصف. ولكن، على الرغم من أنها سعدت باكتشاف أنها لم تكُن مسبوقة خارج دائرة معارفها في امتلاك منزل؛ فإن ما حمله التعبيرُ من ألفةٍ، أساء لاعتدادها بنفسها.

قالت بصرامة: «بل أنا بالتأكيد صاحبةُ المنزل. هل أنت الميجور براند؟»

«كلَّا، بل أنا شقيق زوجته. لقد ذهَبَ لصيد الأسماك في ويلز. لكنه يريد مكانًا تنزل فيه أُسرته مؤقتًا؛ لذا عرضتُ أن أعاين منزلًا، وأن أتولى ترتيب الأمور.»

نظرَت الآنسة لوفابل إليه في استياء من النبرة العفوية، ولم تُخفِ حقيقةَ أنه كان يخضع للتحري في أمره. ولاحظَت الآنسة لوفابل أنَّ بدلته كانت أنيقةً وحَسَنة التصميم وإنْ كانت قديمة، وأنَّ حذاءه الباهظ الثمَن بدأ يتشقَّق.

كما لاحظت أيضًا أنه يرتدي قفازاتٍ جلدية قابلة للغسل.

وتدفَّق تحذير إلسي إلى عقلها وهي تهزُّ رأسها وقد ساوَرَها الشك.

فقالت: «لستُ واثقة من أنني يمكن أن أرتِّب أيَّ شيء مع طرَف ثانٍ. فمنزلي حديثُ الفرش والزخرفة. لذا من الطبيعي أن أكون نَيِّقةً بشأن مَن أُؤَجِّره له. أنا آسفة، ولكن يجب أن أقابله شخصيًّا.»

«لماذا؟»

«لأشكِّل انطباعي الخاص.»

مرَّت ابتسامة عابرة على وجه الرجل الغريب.

وسألها: «هل تفعلين ذلك حقًّا؟ بفرض أنني عميلٌ محتمل، بدلًا من شقيق زوجتي. هل يمكنكِ من خلال النظر إليَّ فقط أن تقرِّري إن كنتُ أرمي السجائر المشتعلة على السجاد أو أخرِّب ورق الحائط؟»

فأجابته: «أنا لستُ قَلِقةً بشأن هذا الجزء. سيتعيَّن تعويض جميع الأضرار واستبدال كلِّ ما هو مفقود. لقد جلبتُ نسخةً من قائمةِ جرد الموجودات ليتحقق منها الميجور براند.»

«أنتِ ذات عقلية عملية. بالمناسبة، يمكنني أنا أيضًا أن أقيِّم الناس. هل تسمحي لي أن أخبركِ بشيءٍ آخَر عن نفسكِ؟ أنتِ ذات طبيعةٍ مرتابة. فأنتِ تُبقينني خارجَ المنزل على عتبة الباب.»

احمرَّ وجه الآنسة لوفابل غافلةً عن عزمها على عدم السماح له بالدخول.

وأسرعَتْ تقول: «تفضَّلْ بالدخول.»

وأنَّبَتْ نفسها على هذه الزلَّة عن قواعد الذوق حين كانت تتقدَّمه إلى غرفة الجلوس الصباحية. كان هذا الزائر ذو القفازات، على الأقل، فوقَ مستوى الشك؛ لأنه كان ممثِّل الميجور براند. وحقيقةُ أنه كان يعرف كلَّ شيء عن مقترَح الوكيل تؤكِّد أن زيارته كانت تنفيذًا لمهمةٍ حقيقية.

كانت قد بدأت بدايةً سيئةً، وهذا لم يكن من الحكمة، إن كانت ترغب في الاستفادة من درس «توءم» براونينج. لذا يجب أن تعوِّضه بهدوء قبل أن تتطرَّق معه إلى مناقشة الشروط.

وبصرف النظر عن الاعتبارات المالية، كانت سعيدةً بأن أُتيحَتْ لها فرصةٌ نادرة لعرض روعة منزلها في لندن. لم يكُن فيه طلاء أبيض، ولكنْ كان به أثاث من خشب الماهوجني الأحمر الداكن، وألوان داكنة غنية توحي بأنها من الزجاج المعشَّق، لتتناسب مع الأثاث الضخم وتنسجم معه. ومما أثار سعادتها أنَّ تأثير ذوق المنزل لم يَضِع هدرًا على الشاب الذي أثنى على ذوقها بحماسٍ غيرَ مُكرَه.

قال الشاب: «سأعترف لكِ. كلُّ هذا مختلف اختلافًا شاسعًا عن المنازل العادية المفروشة. هذا هو لوني المُفضَّل.» مدَّ يده يلمس ستارةً من البروكار الدمشقي، لونها أرجواني ضارب إلى الحمرة. «كما أنني أعشق سجادكِ. لا بد وأنَّ هذا هو ذوق الفارسيِّ الذي بداخلي.»

ابتسمَت الآنسة لوفابل بابتهاجٍ وقالت: «أيُعجبك حقًّا؟»

في تلك اللحظة، كانت تشبه في الواقع فتاةَ مدرسةٍ متقدِّمةً في السن، أشادَتْ مُعلِّمتُها بعملها.

«يعجبني فعلًا. بصراحةٍ وبغير تحفُّظ.»

«هذا يسعدني جدًّا. تفضل بالجلوس. أتمنَّى لو كان لديَّ شيءٌ لأقدِّمه لك، ولكن لا يوجد شيءٌ في المنزل. لقد وصلتُ للتوِّ.»

«ألَا تعيشين هنا؟»

«أحيانًا. لقد جئتُ توًّا من الريف.»

بذلَت الآنسة لوفابل جهدًا حقيقيًّا لمنع نفسها من إعطاء تفاصيل عن منزل البحيرة.

قالت الآنسة لوفابل في نفسها: «لا أريد أن أتباهى. خاصة أنه لا يبدو محظوظًا جدًّا ... أتساءل إن كان من السابق لأوانه ذِكْر الشروط.»

وبينما كانت تجلس في صمت، وعيونها الزرقاء الداكنة ذاهلة، أخذ الرجل يتأملها ويلاحظ البنيةَ العظميَّة الممتازة لوجهها والبريق الأصفر في شَعرها. كما لاحظ أيضًا قِصَر أصابع قدمها في الحذاء، والتصميمَ القديم لملابسها.

ثم نظر حوله إلى ما بالغرفة من رفاهيات فاخرة وسجاد سميك وكراسي عميقة مُبطَّنة ببطانات ناعمة. كان الجو دافئًا جدًّا والنوافذ قاتمةً بفعل ستائر شبه شفافة، لونها أرجواني ضارب إلى الحمرة، تحجب منظر «الجهات الخلفية» المقابلة. وفي هذا الضوء الخافت، حين ساد الصمتُ بينهما، بدا أنهما عالقان في واحةٍ بعيدة عن صخب الحركة في لندن.

قال الرجل: «المكان هنا هادئ جدًّا.»

وافقَتْه بحماس، قائلةً: «صحيح. هذه ميزةٌ عظيمة جدًّا.»

«يتوقف هذا على ذوق المرء ... هل أنتِ وحيدةٌ هنا؟»

«نعم.»

«ألَا تشعرين بالخوف؟»

فانفجرَتْ ضاحكة.

«ممَّ سأخاف؟ أنا لا أحتفظ بأيِّ شيءٍ ذي قيمة هنا. لا صحون، ولا مجوهرات، ولا نقود. اللصوص دائمًا يعرفون ... هلَّا تحدثنا عن الأعمال؟»

«هذا ما جئتُ من أجله ... ما اسمكِ؟»

«لقد أخبرتُك. الآنسة لوفابل.»

«أعني ... اسمكِ الأول.»

وبينما ظلَّت الآنسة لوفابل صامتةً بشكلٍ لافت، واصل هو الحديث.

«هل اسمكِ «فلورا»؟ ينبغي أن يكون كذلك. بالمناسبة، اسمي «بكنجهام». أنا شقيق السيدة براند. اربطي اسمي باسم القصر إذا نسيتِه.»

«إذَن، ماذا عن الشروط، يا سيد بكنجهام؟»

«سأترك هذه للوكيل العقاري. ولمصلحة زوج أختي، يجب أن أخبره أن يخفضها قدْرَ الإمكان. ولكن إذا كنتُ سأناقشها معكِ مباشرةً، فسيكون الأمر على العكس تمامًا.»

عضَّت الآنسة لوفابل شفتها في خيبةِ أمل. وبدأت تتساءل إذا كانت قد أفسدت المقابلة. إذ كان ينبغي عليها أن تستحثَّ الشاب بدلًا من ازدرائه.

سألَتْه: «هل تعرف اليوم الذي يريد الميجور براند أن يسكُن فيه؟»

أجابها: «نعم. يريد أن تنتقل عائلته في الرابع عشر من سبتمبر. هذا هو يوم عودته إلى الهند، لكنه لن يغادر حتى المساء.»

فقالت: «لكن يجب أن أقابله قبل أن أذهب إلى سويسرا. أنا ذاهبة إلى جريندلوالد لمدة أسبوعَين.»

«إذَن لديكِ ما يكفي من الوقت لترتيب الأمور على نحوٍ طيِّب.»

فهزَّت رأسها في تعاسة. كانت جميع مخططاتها مبنيةً على طريقة حِرَفيٍّ شرقي ينحت مجموعة من الصناديق، كلٌّ واحد منها محصور بداخل الآخَر. كان تأجيل الموعد يفسد خطتها الأصلية للقاء الميجور، ومن ثَم تلقِّي الشيك منه. كان هذا أمرًا ضروريًّا

لعُطلتها؛ لكن، وكما تبدو الأمور الآن، لم تكُن الآنسة لوفابل متأكِّدة من أنه سيفكِّر في الدفع مقدمًا مع هذه المدة الطويلة.

قالت في استحياء: «من المعتاد أن يُدفَع الإيجار مقدمًا. فهل يمكنك ترتيب ذلك مع زوج أختك؟»

فقال: «دعي هذا لي.» وكانت نبرته واثقة. «والآن بما أننا حسمنا جانب العمل من الأمر، هل يمكنني تدخين سيجارة؟»

فتح الرجل علبته، وعرضها عليها. وعندما رفضت، أخذ سيجارةً وأشعلها، دون أن يخلع قفازه.

وعلى الرغم من الاختلاج الخفيف الذي شعرَتْ به، أبَتْ أن تشعر بالتوتر.

وسألته: «هل أُصبتَ في يدك؟»

فأجابها: «بطريقةٍ ما. أصابعي تبدو قبيحةً في الوقت الحالي. كنت أقوم ببعض الأعمال التجريبية. أحاول اختراع بعض الأدوات الصغيرة اللطيفة لقتل الناس.»

تقبَّلَت الآنسة لوفابل تفسيرَه بهدوء ظاهري. وإن هي فكرت للحظة في إلسي بشيءٍ من الحنين، كانت تُطمئن نفْسَها وتؤكِّد لها أنها ليست بحاجةٍ للدعم الأخلاقي أو الحماية، ولكنها تفكِّر فيها؛ لأنها قد تدقُّ الجرس لتطلب من الخادمة أن تصحب السيد بكنجهام إلى الباب.

في تلك اللحظة، كانت واعيةً بوجود رغبتَين متعارضتَين. كانت الأولى مزعجة؛ لأنها كانت خيانة لمعيارها الخاص بالاستقلالية. اعترفت لنفسها أنها كانت واعيةً تمامًا بوجود هذا الشاب ومتجاوِبة مع شخصيته. كانت ترغب في البقاء معه في هذا الدفء الخافت، والسماح للانجذاب المتبادَل بينهما أن يتطور إلى حميمية.

كانت الرغبةُ الأخرى لا واعية جزئيًّا، لكنها أثَّرَت على إرادتها بقوة تيارِ بحرٍ عميق. يجب أن تتخلَّصَ من هذا الشاب على الفور.

سألَتْه الآنسة لوفابل بنبرةٍ مستقرة ورزينة: «متى يمكنني أن أتوقَّع استلام الشيك؟»

فأجابها بكنجهام: «لا أستطيع أن أخبركِ بذلك الآن. سأضطر إلى الانتظار حتى أحصل على عنوانٍ من براند، قبل أن أتمكَّن من مراسلته بشأن ذلك. وبالطبع، يجب أن يكون موجَّهًا للوكيل.»

احمرَّ وجه الآنسة لوفابل.

وقالت: «هل تحاول التلميحَ إلى أنني لن أدفع له عمولته؟»

أجاب: «بالطبع لا. لكن، وكما كنتِ تذكِّرينني، هذه هي الأعمال.»

نهضت الآنسة لوفابل بصعوبةٍ من أعماق كرسيها المتشبِّث بها.

وقالت: «في هذه الحالة، يبدو أن بقائي في لندن مَضْيَعةٌ لوقتي. سأسافر إلى سويسرا في الحادي والثلاثين من أغسطس وأعود إلى لندن في الثالث عشر من سبتمبر، حتى أتمكَّن من مقابلة الميجور براند يوم الرابع عشر. يمكن إرسال الشيك إلى منزلي الريفي.»

سألها الرجل: «هل لديكِ منزلان؟»

هذه المرة، لم تستطع لوفابل مقاومةَ هذه الفرصة. فبما أنه يصرُّ على معاملتها كفتاةٍ صغيرة — تتمتَّع بجاذبيةٍ كبيرة — فإن الوقت قد حان ليعرف أنها امرأةٌ مهمة تمتلك عقارات.

فقالت تصحِّح له: «بل ثلاثة. لديَّ بيتٌ من طابق واحد يطلُّ على البحر.»

«هل هذا كلُّ شيء؟ أليس لديكِ فِيلَّا في جنوب فرنسا وناطحةُ سحابٍ في نيويورك؟»

رفعت الآنسة لوفابل ذقنها بكبرياء.

«إذا كنت تقصد ممازحتي بهذا، فأنا لستُ مُستمتِعة.»

كانت نبرتها باردةً بكبرياء واستهجان شديدَين، لدرجة أنها قد تكون صدًى لتعليق الملكة فيكتوريا التاريخي، الذي يتردد على مرِّ السنين.

تبعها الرجل إلى الباب الأمامي.

وسألها: «أين منزلكِ الريفي؟»

«في كِنت.»

«أنتِ كتومةٌ أكثر من اللازم. ألَا تثقين بي؟»

«هذه ليست مسألة ثقة. الأمر فقط أنني لا أستطيع رؤيةَ الصلة بين التفاصيل الشخصية ومقابلة العمل ... طاب صباحك.»

وبينما كانت تغلق الباب الأمامي خلفه، أصابَتْها رجفةٌ من فكرةٍ مفاجئة خطرَتْ لها.

السيد الذي غادَرَ للتوِّ لم يترك وراءه أيَّ بصمات.

الفصل السادس

الموعد

عادت الآنسة لوفابل إلى غرفة الجلوس الصباحية؛ لأنها شعرَتْ أنها بحاجة إلى سيجارة، ولكن بدلًا من العثور على الراحة المعتادة في التبغ، صارت غاضبة عندما استعرضت المقابلة في ذهنها.

كان من السمات المميزة لها أن يكون غضبها موجَّهًا أساسًا تجاه نفسها. فتَحْتَ ما تتمتَّع به سطحيًّا من شأن، كانت لديها مساحة شاسعة من التواضع المتأصِّل الذي جعلها على استعداد لتحمُّل اللوم على أيِّ حادث مؤسف أو حظ عاثر.

قالت لنفسها في يأس: «أفسدتُ كل شيء. والخطأ كله خطئي. البحث عن المال والتفاخر. أنا أكره نفسي.»

ومع ذلك، بحلول الوقت الذي أصبحت فيه السيجارة عقبًا صغيرًا، وجدَتْ نفسها تتفاعل مع القليل من التقلُّب المعتاد في حالتها المزاجية.

«صدقًا، لماذا لا يسَعُني التحدُّث عن منازلي؟ عندما يكون للناس ثلاثة أطفال توائم، فإنهم لا يُخفون الأمر ويتحدثون عنهم بصيغةِ المفرد فيقولون «طفلنا» كما لو كانوا واحدًا ... منازلي الثلاثة تعني إنجازًا حققتُه. أردتُ أن أحقِّق شيئًا رغم الصِّعاب؛ وقد حققتُه. لقد فعلتُ كل شيء بنفسي. ولم أضرَّ أحدًا. بل على العكس.»

وتذكرَتْ شراءها لبيتها في لندن، وامتنان الرجل الأشيب النحيل الذي لم يعُد يقدر على العيش هناك. ولتوفير النفقات، ظلَّ المنزل فارغًا لسنوات، ممَّا يفسر حالة الإهمال التي كان قد وصل إليها. كانت المنازل العائلية الكبيرة من هذا النوع عبئًا على السوق، خاصةً وأن الأرض لم تكُن متاحةً لمقترح إعادة البناء.

والمقاوِل الذي باع لها الجناح على البحر، أراد أيضًا تدوير أمواله؛ ولذلك كان بحاجة إلى بيعٍ سريع. لقد ساعدَتْ في تدوير الأموال، ومن ثَم كانت بالفعل فاعلةَ خيرٍ للأُمَّة.

ومع ذلك، تبقى حقيقة أنَّ خططها قد تعطلت؛ وكانت تكره أن يتغيَّر أيٌّ من ترتيباتها. لكن، وفي ظِل هذا الوضع من عدم اليقين، بدا أن إبقاء منزلِ لندن مفتوحًا أمرٌ لا يستحقُّ العناء. وكان من الأجدر أن تعترف بهزيمتها وتعود على الفور إلى هايفيلد، رغم أن الأمر كان ضدَّ ميلها الطبيعي تمامًا.

وبينما هي في تردُّدها، اتخذت تفاصيل يوم أمس مكانها في تفكيرها. إذا هي بقيت في لندن، فسيكون لدى الكابتن براون وقتًا إضافيًّا لتدمير حديقتها المحبوبة. فهو لن يتمكن من إحداث كثيرٍ من الأضرار وهو مُقيَّد بحدٍّ أقصى من الزمن يبلغ أسبوعَين.

كما كان هناك دافع آخَر. عندما قطعت وعدًا بالمساعدة في كشك المرطبات في حفل الحديقة، كانت تتوقَّع أن يكون الأمر كالمعتاد. أمَّا الآن فإن حضور الليدي بونتيبول — وهي الجميلة التي انتشرَت صورُها وكتاباتٌ عن جمالها — سيجذب الغرباء، ويُحوَّل الأمر إلى حفلٍ رسمي. في النصاب الحالي للأمور، كانت الآنسة لوفابل ملتزِمةً بإرسال مساهمات إلى الكشك التي لن تحصل منه على قيمة ترفيهية.

كانت جبال الثلج، التي هي شغوفةٌ بها سرًّا، لا تزال تدعوها بقوةِ جذبٍ كبيرة، لكنها ذكَّرت نفسها أنَّ وجود هذه الجبال أبدي.

فقالت في نفسها: «لقد انتظرَتْني هذه الجبال طويلًا، يمكنها الانتظار أكثر قليلًا.»

أغلقت الآنسة لوفابل نافذةَ غرفة الجلوس الصباحية، وعدَّلت وسادةً كانت مُجوَّفة بفعلِ ضغط رأس بكنجهام، والْتَقطَت منفضة السجائر التي تحتوي على رماد سيجارته وسيجارتها.

وبينما كانت تنزل الدرَج إلى المطبخ، كانت تعي أن روحها المعنوية قد ارتفعَتْ إزاء إمكانية العودة إلى منزل البحيرة. وإذ كانت تشعر بالجوع، اقتطعت كسرةً كبيرة من الخبز وأكلَتْها دون زبدة فيما كانت تشرب الحليب. ثم صعدت الدرَج وبدأت في إغلاق النوافذ والستائر.

دقَّ جرس الهاتف مرةً أخرى. هذه المرة كان مُقسِّم الهاتف يحاول الوصولَ إلى رقمها. وعندما رفعَت السماعة، تعرَّفَت على صوت السيد ليمون المتمهِّل وكيل العقارات.

قال السيد ليمون: «أخشى أنَّ لديَّ بعض الأخبار المحبطة. تم استدعاء الميجور براند إلى ويلز في مهمةِ عمل.»

فقالت له الآنسة لوفابل: «أعرف كلَّ شيء عن ذلك. اصطادَتْه الأسماك على سبيل التغيير. كان زوجُ أخته هنا قبل قليل وأفصَحَ لي عن الأمر.»

قال السيد ليمون وقد ضاعت نبرةُ التشدق من صوته: «لم أكُن أعرف أنَّ لديه أخًا لزوجته. آمل أنكِ لم تُبرمي شيئًا معه؟»

«كلَّا، لم أفعل. ولكن أريد الحصول على الشيك من الميجور بأسرعِ ما يمكنك.»

«سأفعل، ولكن سيستغرق الأمر بعضَ الوقت. سأضطر إلى الانتظار حتى أتلقَّى عنوانه ... وفي الوقت نفسه، ظهر شيء قد يهمُّكِ. أُعجبَت السيدة براند بالمنزل، فهو هادئ وبه حديقةٌ للأطفال ... لذا إن كنتِ ترغبين في البيع، فأنا واثق أنني يمكن أن أحصل على عرضٍ جيد من الميجور براند قبل عودته إلى الهند.»

توقف الحديث بينهما توقفًا ملحوظًا قبل أن تردَّ الآنسة لوفابل.

قالت: «ليس لديَّ نيةٌ لبيع المنزل.»

فردَّ الوكيل: «ليس في الوقت الراهن، ولكن فكِّري في الأمر، فهناك بعض النقاط التي يجب مراعاتها. في كلِّ الأحوال، أودُّ أن أناقش الأمر معكِ، فأنا أظنُّ أنه قد يكون لصالحكِ في نهاية المطاف.»

وافقَتْه الآنسة لوفابل قائلةً: «حسنًا، لا ضيرَ من مناقشة الأمر. ولكن يجب أن آتي على الفور؛ فأنا لن أُقيم في لندن.»

وطبعًا فزع الوكيل لهذا التهديد، الذي قد يطول لعبه للجولف.

فقال: «لقد نسيتِ أننا الآن بعد ظُهر السبت وجميع المكاتب مغلقة. أنا أُسرِع الآن للَّحاق بالقطار. هل يمكنكِ الحضور يومَ الإثنين؟»

قطَّبت الآنسة لوفابل جبينها وتردَّدَت، وأخيرًا استسلمت.

فقالت: «حسنًا، بما أنني هنا، أظن أنه يمكنني أن أمكثَ حتى نهاية الأسبوع. المقابلة الشخصية تُوفِّر الكثير من الرسائل. لن يتأخر اتصالي عن الساعة العاشرة والنصف. إلى اللقاء.»

وبعد أن أنهَت المكالمة، ندمَتْ على قرارها. ستُضطَر إلى تجهيز السرير لبضع ليالٍ فقط، إضافةً إلى استخدام المناشف والمفارش. ولكن، بينما كان لهذا الاعتراض أساسٌ محدد من الجانب الاقتصادي؛ كان هناك سبب خفي ومحجوب لترددها في البقاء.

فقد أدركَتْ بشكلٍ غامض أنها بدأت تشعر بالانزعاج والاستياء من المنزل.

لم يمكنها نسيان الخراب الذي كان مخفيًّا، مع أنه قد تم تأثيث المنزل وتزيينه على نحوٍ فاخر. كان الأمر كما لو أنَّ النظام الطبيعي قد انقلب، ورأت الهيكل العظميَّ قبل أن يكتسي باللحم.

وباستعراض ما حدث، توصَّلَت الآنسة لوفابل إلى استنتاجٍ مفادُه أنها لم تشعر بالراحة حقًّا في المنزل رقم «١٩» بمنطقةماديرا كريسنت، رغم أنها تشعر بالفخر تجاهه بشكلٍ خاص، وذلك حتى عندما كانت في رفقةٍ بهيجة مع إلسي والحيوانات الأليفة.

فقالت لنفسها: «هذا أمرٌ غير معقول، يجب أن أتخطَّى هذا.»

كانت حقيبتُها لا تزال في الردهة، لذا حملَتْها إلى غرفة النوم الكبيرة في الطابق الأول. كانت الغرفة رائعةً ولكنها كئيبة، مع نَسَق ألوانٍ يُذكِّر بأوراق الخريف — البُني والبرونزي والبُني المُصفر. كان الأثاث بلونِ الجوز — والستائر باللون البرتقالي المحترق. وخارج النوافذ كانت الشرفات من الحديد المطاوع.

ورغم التجهيزات الفاخرة والإضاءة المخفيَّة، كانت الآنسة لوفابل تعلم أنها لا تتطلَّع إلى قضاء الليل في المنزل. لم تكُن تشعر بالقلق من قبلُ أبدًا، سواءٌ في منزل البحيرة أو الجناح على الشاطئ، عندما كانت إلسي تقضي عُطلتها بعيدًا. في تلك المناسبات، كانت محاطةً بالريف الباعث على الوحدة والشاطئ الفارغ؛ ومع ذلك، لم تشعر بأيِّ ألَمٍ من الوحدة. أمَّا هنا في لندن، ورغم أنها تقطن بين مبنيين آخَرين يسكنهما الناس، فقد شعرت بالقلق والتوتر.

وفجأةً، ابتسمَتْ عندما أدركَتْ عاملًا مألوفًا.

وقالت لنفسها: «عجبًا، إنه حظي مرةً أخرى. خسارتي في الوقت الحالي هي ربحٌ لي في المستقبل. لقد اكتشفتُ أنني لا أهتمُّ لأمرِ هذا المنزل، حين أُتيحت لي فيه فرصةٌ لبيعه. ولولا أني تراجعتُ، فلربما كنتُ أهدرتُ الفرصة ... كلَّا، سأبقى هنا لنهاية الأسبوع، وأُخبر السيد ليمون الحاذق أنني غيَّرت رأيي. أعتقد أنه يعرفني أكثر ممَّا أعرف نفسي ... ها هو الجرس يدقُّ ثانية.»

هرعَت الآنسة لوفابل إلى الطابق السفلي مسرورةً لأنها ستتحدث مع شخصٍ ما، فنزلت السلالم إلى الردهة وفتحَت الباب الأمامي.

وللمرة الثالثة في ذلك اليوم، كان هناك رجلٌ ينتظر بالخارج. يمكن لوصفٍ عام للرجل أن يشمله هو وبكنجهام معًا، من حيث إنهما ارتادا المدرسة العمومية نفسها، لكنهما لم يكونا متشابهَين. كان وجه الرجل بيضاويًّا وهزيلًا، وعيونه ألطف، وابتسامته أشدَّ توترًا وحزمًا.

قالت الآنسة لوفابل في نفسها: «لديه شيءٌ ليبيعه، يا لَه من لعينٍ مسكين!»

قال الرجل مفعمًا بالأمل: «طاب يومكِ.»

فضحكَت الآنسة لوفابل بالطريقة الودية التي تميز تعاملها مع أولئك الذين لا ترغب في إبهارهم.

وقالت: «لن أوافق، ففي المرة الأخيرة التي فعلتُ فيها، كلفني ذلك عشرةَ شلنات.»

وبينما كانت تتحدث، لاحظَتْ أن آخِر زرٍّ من سُترته غير مُحكَم، وأنه يرتدي قفازات جلدية رمادية تتناسب مع بدلته الجديدة. وبدوره، كان الرجل يتأمَّلُها.

وقال: «الشلنات العشرةُ لا تنفعني، أنا بائع، لكني أرى أنني لن أستطيع أن أثير اهتمامكِ. في مجالنا، نتعلم كيف نقرأ الوجوه كالكتب.»

فقالت: «لم أكُن أعلم أنني واضحةٌ لهذه الدرجة.» أرادت الآنسة لوفابل، لِمَا تشعر به من وحدة، أن تُطيل المقابلة، ما دامت لن تلتزم خلالها بشيء. وأضافت: «فضلًا عن ذلك، يجب ألَّا تفترض أن ليس لديك فرصة. هذه سياسة انهزامية. يجب أن تبدو واثقًا ... ماذا تبيع؟»

«مكانِس كهربائية.»

فانتبهَت الآنسة لوفابل فجأةً وتأهَّبَت.

وقالت: «لكنني أفكِّر بالفعل في الحصول على واحدة.»

فقال الشاب بحماس: «أصحيحٌ هذا؟ إذا كان الأمر كذلك، أحاول أن أقدِّم خطًّا جديدًا هو الأفضل في السوق. يمكنني أن أعطيكِ الكُتيبات الآن، إذا كنتِ مهتمة، ويمكنني أن أقدِّم لكِ عرضًا.»

وفتح حقيبته الصغيرة وأخرج كُتيبًا.

وأضاف: «يؤسفني أن الوحيد المتبقي متسخ. هذه البصمة الكبيرة على الغلاف تسبَّب بها عميل مُحتمَل. هي ليست لي. كما ترين، أنا أرتدي القفازات دائمًا.»

فقالت الآنسة لوفابل: «لا يهمٌّ. سأقرؤه وأخبرك إذا قررت شيئًا.»

فردَّ يقول: «شكرًا جزيلًا. هذه بطاقتي.»

قرأت الآنسة لوفابل الاسم المطبوع عليها.

««هنري واتكينز». اسمك لا يناسبك كثيرًا.»

«بالعكس، كان أصدقائي يؤكِّدون لي دائمًا أنني ممَّن ينطبق عليهم الاسم «هوجو».»

«أتقصد أنَّ هذا ليس اسمك الحقيقي؟»

«كلَّا. مجرَّد اسم مستعار لأغراض العمل. لا أملك الكثير، لكن على الأقل يمكنني الاحتفاظ باسمي.»

قالت الآنسة لوفابل بتعاطُف واضح: «هل تدهورَتْ أحوالُك المادية؟»

«كلَّا، بل أنا في طريقي للعُلا. كان الناس يبيعون لي الأشياء وكنت ساذجًا بما يكفي دائمًا لأبتاع. وكنتُ دائمًا أتعرَّض للخداع. أمَّا الآن فالأمور على عكس ذلك. أحصل على متعةٍ حقيقية في مقارعة العميل ذهنيًّا؛ العميل الذي هو دائمًا على حق.»

بدَت المرارة على ابتسامته وهو يُكمل حديثه، حين ثبَّت عينَيه ذواتَي اللون البني الفاتح على وجهها.

«عادةً ما يكون العميل مقاومًا بطبيعته؛ لذا يتعيَّن عليَّ أن أُجبره على قبول اقتراحي بأنه «يريد» الشراء. وبالطبع، لا يقبل دائمًا. إنه صراعٌ واضح بين الشخصيات؛ وهذا يَروقُني.»

قالت الآنسة لوفابل: «أتُفشي لي سرَّ صنعتك؟»

فانخرط الشاب معها في الضحك.

وقال: «كلَّا، لقد فهمتكِ تمامًا. بإمكانكِ اختراقُ ثرثرتي المعتادة كبائع وفَهْم مغزاها. أنتِ قويةُ الإرادة وراشدة، ولن تفعلي شيئًا ضدَّ رغبتكِ. لا أطلب منكِ سوى أن تحكمي على المكنسة الكهربائية بناءً على جدارتها. متى يمكنني أن أقدِّم لكِ عرضًا؟»

«ليس الآن تحديدًا. سأغادر لندن يوم الإثنين، وسأغيب لبضعة أسابيع.»

«ولكن، أليس بإمكاني أن أبيِّن لخدَمكِ كيف يعمل الجهاز؟»

فتحَت الآنسة لوفابل فمَها لتشرح له ثم امتنعت، بناءً على حذرها الفطري.

قالت في نفسها: «تحاول استخراجَ معلوماتٍ مني. تريد أن تعرف إن كان البيت سيكون فارغًا.»

فأخبرَتْه: «لا يمكنني قبولُ رأي أيِّ شخصٍ آخَر.»

فألحَّ في عرضه قائلًا: «إذن ... هل يمكنني أن أزوركِ هذا المساء؟»

فكرت بسرعة. بما أن البيت سيُغلَق مرةً أخرى حتى الثالث عشر من سبتمبر، فإن عدم تنظيف أيِّ سجادة من سجاده مجانًا سيعدُّ هدرًا صريحًا للفرصة. ولكن إذا كان الشاب سيأتي في صباح يوم الرابع عشر، قبل أن تأتي عائلة براند للإقامة، فإنها ستحصل على ميزة تنظيف السجادة بعرض مجاني. في كل الأحوال، ستضطر إلى كتابة رسالة إلى الوكالة التي تتعامل معها، تطلب منها إرسال امرأة موثوقة لتنظيف البيت لغرض الاستعداد.

فأجابته: «أنا مشغولة هذا المساء. ولكني سأعود من سويسرا في الثالث عشر من سبتمبر وسأبيت ليلتي هنا. يمكنك تجربة المكنسة الكهربائية إذا كنت ترغب في القدوم في

وقتٍ مبكر من الصباح التالي. ولكن يجب أن يكون ذلك على مسئوليتك، لأنني لا أستطيع أن أعطي لك وعدًا قاطعًا بشراء الجهاز.»

صرَّح السيد واتكينز قائلًا: «هذا مفهوم دائمًا. سأدوِّن التاريخ.»

وبينما كان يكتب في دفتره، قدَّم لها اقتراحًا.

«أتساءل إن كان بإمكاني رؤية السجادة التي تريدينني أن أعمل عليها. أريد أن أرى الحجم. كما تعرفين، إذا بدأتُ ولم أتمكن من الانتهاء، فسيكون الأثر غير متجانس.»

أظهر وجه الآنسة لوفابل، الذي كان يتَّسم بالشفافية، حالةَ الارتباك التي كانت تشعر بها.

وقالت: «إنها كبيرة بعض الشيء. يُفضَّل أن تدخل وتراها.»

دخل الشابُّ المنزل وأغلقَت الباب الأمامي.

الفصل السابع

المستمع

بعد سطوع شمس شهر أغسطس، بدا أن داخل الردهة مظلِم تقريبًا، حيث كانت نافذة جانبية ضيقة واحدة فقط تسمح بدخول شعاع من الضوء المغبَّر. ومع ذلك، لم تشعر الآنسة لوفابل بأيِّ هاجس أو قلق حول كونها في البيت وهو مُغلَق مع غريب يرتدي قفازات. وعندما الْتَفتَت إليه، كان عقلها مشغولًا فقط باعتبارات الأعمال.

قالت الآنسة لوفابل: «أودُّ أن تنظِّف سجادةَ غرفة الاستقبال إذا كان ذلك ممكنًا.»

سأل السيد واتكينز، متجهًا نحو غرفة الطعام: «أين هي؟ أهي هذه الغرفة؟»

«كلَّا. أعلى الدرَج. في الطابق الأول.»

تراجع الرجل ليترك لها فرصةً لصعود الدرَج أولًا، لكنها رفضت أن تتقدَّمه.

وقالت: «تفضَّلْ أنت. إنها الباب الأول. لا أحبُّ أن يمشي أيُّ أحد خلفي.»

وعندما بدأ الرجل يُظهِر اهتمامًا احترافيًّا بنظام البيت وترتيبه، نبَّهها حذرها الفطري نفْسُه إلى عدم الانجرار إلى إعطاء أي تعهُّد.

علَّق الرجل دون تكلُّف: «أتصور أن المنزل يتبع نفس نمط باقي المنازل في منطقة كريسنت. غرفتان أو ثلاث في كل طابق، وحوالي ثلاثة طوابق من الدرَج التي ستحتاج إلى سجاد. سيكون من المفيد لكِ بالتأكيد شراء مكنسة كهربائية ... أظن أن الخدَم ينامون في الطابق العُلوي، أليس كذلك؟»

فأوضحَت الآنسة لوفابل، لتمنعه من تجاوُز حدود عمله، ودون أن تكذب: «لا يوجد سجاد في العلِّيَّة ولا في القبو.»

وعندما وصلا إلى غرفة الاستقبال، الْتَفَت إليها مبتسمًا.

وقال بصوت خافت: «أنتِ تفهمين ما تفعلين. هذه الغرفة لها جوٌّ خاص. لا يوجد فيها أيُّ تناقض. كانت عملية إعادة تأهيل، لا تجديد. أنا أيضًا أحبُّ المنازل القديمة.»

ذكَّرته قائلةً: «السجادة.»

«رائعة. لقد زرتُ بعض بيوت العائلات الثريَّة، سواءً بشكل مهني أو ... قبل ذلك. لكنني لم أرَ سجادةً أجمل من هذه.»

على الرغم من مديحه، كان من الواضح أن شيئًا آخَر قد أثار اهتمامه. فاقترب يتأمَّل لوحةً زيتيةً صغيرة لمنظر طبيعي بلون بُني داكن مُعلَّقة عاليًا على الجدار.

وسأل: «هل هي أصلية؟ تبدو وكأنها لوحة لأحد الفنانين العِظام القُدامى.»

أجابته الآنسة لوفابل بصراحةٍ هذه المرة.

«أعتقد ذلك. لقد اشتريتُها من متجر للتحف. لكنني أتمتَّع بنظرةٍ موفَّقة.»

«هل جعلتِ أحدًا يُقَيِّمها؟ هل هي آمنةٌ في مكانها هذا؟»

«بالطبع. لديَّ بوليصة تأمين ... حسنًا، ما رأيك؟ هل السجادة كبيرةٌ أكثر من اللازم؟»

هزَّ الشاب كتفه وهو يهزُّ رأسه نافيًا.

«سأنظِّفها، ولكن فقط لأنني متأكِّد أنني سأتمكَّن من أن أبيع لكِ المكنسة، عندما ترين كيف ستبدو بعد التنظيف ... من فضلكِ، هل يمكنني معرفة اسمكِ؟»

«لوفابل.»

«السيدة؟»

«بل الآنسة.»

دَوَّن ملاحظةً في دفتره ثم تحدَّث بتردُّد.

«ذكرتِ شيئًا عن الذهاب إلى سويسرا. أتساءل إنْ كنتُ أستطيع أن أقترح عليكِ أن تتركي النوافذ العلوية مفتوحةً وتطلبي من الشرطي أن يراقب المكان وأنتِ غائبة. كما تعلمين، عندما يُوصِد المرءُ البيتَ كلَّه، فإنه يُعلِن بذلك أن المكان فارغ. وهذه دعوةٌ مفتوحة لِلُصوصِ المنازل.»

لم ترحِّب الآنسة لوفابل بنصيحته لسببَين. أولًا، كانت انعكاسًا غير مباشِر لحُكمٍ على امرأة غير متزوجة، وبيانًا لحاجتها للنصائح الذكورية. كما أنها أثارت نقطةً كانت قد ناقشتها مع إلسي في نقاشٍ حادٍّ بينهما.

أشارت ذقنها المرفوعة إلى أنه قد تجاوَزَ حدوده.

وقالت ببرود: «شكرًا لك. لكنني قادرة على ترتيب أموري بنفسي. أنا ... أوه!»

ثم ابتعدت عن النافذة وهي تصيح.

وقالت: «لقد عاد ذلك الرجل مرةً أخرى.»

وبينما كانت تتحدَّث، دقَّ جرس الباب الأمامي بصوت عالٍ.

فاعترفت باندفاع: «لا أريد أن أراه.»

فأشار عليها واتكينز: «إذَن، اتركيه يدقُّ الجرس.»

«كلَّا؛ فقد رآني. من الأفضل أن أذهب. هلَّا انتظرتَني هنا؟ لن أطيلَ عليك.»

فجأةً، بدا أنَّه عملٌ من أعمال العناية الإلهية أن يأتي بكنجهام في حين وجود واتكينز في المنزل. واستنادًا إلى المبدأ التاريخي المتمثِّل في إرسال لص للقبض على لص، ينبغي لوجود رجل غريب ذي قفازات في المنزل أن يكون حمايةً من الغريب الآخَر.

ولمَّا كانت لوفابل لا تجرؤ على ترك أخي زوجة الميجور براند على الباب لفترةٍ طويلة؛ خوفًا من أن يكون لديه أخبار مُشجِّعة لها، ركضَتْ إلى الأسفل وفتحت الباب.

وعلى النقيض من الغريب الآخَر المراعي، الذي كان عليه أن يمحو شخصيته لتلبية متطلبات كونه رجل مبيعات وتجارة، بدا بكنجهام واثقًا وحاسمًا.

قال بكنجهام: «آسف على مجيئي مرةً أخرى، لكني أظن أنني تركت علبة سجائري هنا. هل تسمحين لي أن أبحث عنها؟»

اعتبر الرجل أنَّ إذنها أمرٌ مُسلَّم به؛ فدخل غرفة الجلوس الصباحية ودسَّ أصابعه تحت مقعد الكرسي الناعم المُبطَّن.

وقال وهو يرفعها لتنظر إليها: «وجدتُها. هذه الكراسي الفخمة فِخاخ.» ثم رفع رأسه بسرعة عندما سمع صوتَ صدمة خافتة.

وسأل: «ما هذا؟»

فأجابت: «لم أسمع شيئًا.»

«كأنه صوتُ شخصٍ يغلق الباب الأمامي.»

«أوه، كم هذا مزعج! لا بد أنه الرجل الذي يريد بيع مكنسة كهربائية لي. لقد وعدني أنه سينتظر ... يا له من أحمق!»

تحدثت الآنسة لوفابل بغضب؛ لأنها شعرت بانزعاجٍ غامض، كما لو كانت بعض الأفكار المُربِكة قد بدأت تراوِد ذهنها.

تبعها بكنجهام إلى الردهة، حيث الْتَقطَتْ واحدة من بطاقات واتكينز التجارية من على طاولة الردهة.

كان مكتوبًا على البطاقة بقلمٍ رصاص: «آسف. الرابع عشر من سبتمبر.»

سأل بكنجهام، وقد سدَّد إليها نظرات حادَّة ونافذة: «ما الذي سيحدث في الرابع عشر من سبتمبر؟»

وعندما لم تُجِبه، طرح سؤالًا آخَر.

«هل ستغلقين هذا المنزل عندما تكونين في سويسرا؟»

«لماذا؟ هل ستعطيني نصائحَ حول كيفية خداع لصوص المنازل؟»

«كلَّا. على كلٍّ، الأمر لا يهمُّ. فبإمكان أي شخص يريد أن يقتحم المنزل أن يفعل ذلك ويده مربوطة خلف ظهره؛ بسبب كل هذه الشرفات.»

«فكرة مشجعة للغاية. هل أنت وكيل تأمين؟»

«كلَّا، ليس في الوقت الحالي، لست مُصنَّفًا … الحقيقة هي أنني كنتُ طفلًا مشاغبًا، ومشكلتي لم تُحَلَّ بعد.»

فقالت الآنسة لوفابل، وهي تفتح الباب الأمامي: «حسنًا، على أي حال لقد وجدتَ علبة السجائر.»

«نعم، شكرًا.»

وقبل أن يصل إلى عتبة الباب، عاد بكنجهام إلى الردهة.

وسألها: «ألَا تريدين أن تريني المنزل؟ وعدتُ أختي أن أعطيها معلوماتٍ بشأنه، لكنني لم أرَه بعد.»

فهزَّت لوفابل رأسها استجابةً لدافع الحذر، حيث لم يعُد الغريب الآخَر ذو القفازات يرافقها.

وأخبرته: «ليس ضروريًّا. فالمنزل يَروقُ أختك؛ حتى إنها تفكر في شرائه. اتصل بي الوكيل بشأن هذا. يبدو أن هذا أمرٌ لا تعرفه. والآن، إذا لم يكُن لديك مانع، لديَّ أشياء أقوم بها. هل تركتَ شيئًا آخر؟ أحذِّرك، لن أفتح الباب مرةً أخرى لأيِّ أحد.»

«لا يهمُّ. ربما سنلتقي مرةً أخرى.»

«أين؟»

«ربما في سويسرا.»

«عطلة سعيدة، ولكنني لا أظن أننا سنلتقي.»

أغلقت الآنسة لوفابل الباب وهي تشعر بالرضا عن نفسها. كانت معنوياتها في حالةٍ ممتازة مرةً أخرى؛ لأن حاسة الأعمال لديها اشتمَّت صفقةً مربحة. ففي حين أنها اشترت المنزل رقم «١٩» بماديرا كريسنت بثمنٍ رخيص، كان ما تحرزه من تقدُّم يبرِّر رفعَ سعره بحيث يؤمِّن ربحًا كبيرًا.

سببٌ آخَر من أسباب رضاها، كان الطريقة التي تعاملَتْ بها مع بكنجهام.

قالت في نفسها: «حاوَلَ أن يتلاعب بي كما لو كنتُ غبية. هو بالتأكيد يعرف شيئًا عن أمر عائلة براند هذه، ولكنه لا يعرف الكثير. حسنًا، أظنُّ أنني يجب أن أُفرغ حقيبتي.»

وعندما وصلت إلى الغرفة الكبيرة التي وقفت حقيبتها المُغلَقة على أرضيتها، غيَّرَت رأيها. كانت الحقيبة معبَّأة استعدادًا للسفر إلى سويسرا، وكان كل شيء مرصوصًا بإحكام في الحد الأدنى من المساحة ويتداخل مع غيره من الأشياء، فكانت في تنظيمها أشبَه بأحجية صور مقطوعة. وبما أن الجزء الأكبر منها كان يتألف من غياراتٍ داخلية وأحذية إضافية لن تحتاج إليها في هايفيلد؛ قرَّرَت ألَّا تبعثرها، وأن تتركها سليمةً من أجل عطلتها.

كان كل ما تحتاجه لقضاء ليلتَيها في لندن في حقيبتها الصغيرة، بما في ذلك المنامة. كانت قد ألقَتْها بداخل الحقيبة الصغيرة في اللحظة الأخيرة، لكيلا تتسبَّب في تجعيد تنورتها الحريرية أثناء الليل في القطار إذا كانت محظوظةً بما يكفي لتستلقي على المقعد.

قالت في نفسها: «على أي حال، يجب أن أجهِّز السرير.»

صعدَت الدرَج إلى الطابق التالي حتى وصلت إلى خزانة البياضات، وبدأت في إخراج الأغطية والمناشف من الرفوف. عادةً ما تستسلم لإغراء التفاخر والابتهاج بمخزونها — وحصر الأكوام المختلفة للتحقق منها مع قائمة الجرد — وإعادة توزيع أكياس الخزامى؛ ولكن، بعد ظُهر اليوم، كانت تدرك فقط رغبتها في الانتهاء في أقرب وقتٍ ممكن.

لم تستطع تفسيرَ مشاعرها غير العادية. فبينما كانت لا تخاف من شيء، شعرَتْ بالقلق والتوتر كما لو أن كلَّ قدراتها كانت مشدودة لتبقيها في حالة تأهُّب. وجدت الآنسة لوفابل نفسها تتسمَّع الأصوات وتجتهد في ذلك، وتجفل لأدنى صوت؛ مثل صرير لوح، أو خشخشة ستائر النوافذ.

وسرعان ما أدركَتْ أن أعصابها متوترة، في حين اقشعرَّ جسدها كما لو كان شيئًا معاديًا سيقتحم عليها المكان.

قالت في نفسها: «أولئك الأشخاص الأغبياء الذين يخافون من القطط يدَّعون أنهم يعرفون إنْ كان هناك قِط في الغرفة. ربما كان هناك قَدْر من الصحة في ذلك في نهاية المطاف. ولكن ما الذي يمكن أن يكون في المنزل ليؤثِّر فيَّ بهذه الطريقة؟»

انطلقت الآنسة لوفابل أسفل الدرَج وهي ممسِكة بحزمة البياضات إلى غرفة نومها، حيث جهزت السرير بسرعة قياسية. كانت مدفوعةً بنفس شعور الاستعجال — الحاجة المُلِحَّة لأنْ تُسرع — في الابتعاد. وعندما جفلَتْ خائفة حين سمعت صوتَ طَرْق بعيد

— كما لو كان شخصٌ ما يطرق على مسامير في الطابق السفلي — استرشدَتْ بمنطقها السليم، ورفضت النزول للتحقق.

ولَمَّا شعرت بالحاجة إلى تغيير المشهد من حولها، قرَّرت الخروج والتسوق. كانت تعدُّ قائمة بما ستحتاجه خلال نهاية الأسبوع، وذلك عندما تذكرت فجأةً جامعَ الأموال للمكفوفين. فبالرغم من حاجتها إلى الاقتصاد في إنفاقها، كانت كريمة فطريًّا، وكان ردُّها على استجدائه مميزًا.

قالت في نفسها، وهي تفتح سحَّاب حقيبتها: «اللعنة، أعطيتُه المال»، وبدأت في عدِّ النقود الفكَّة.

كان المبلغ أربعة شلنات وتسعة بنساتٍ ونصف بنس.

ففكَّرت: «يجب أن أصرف شيكًا.»

وفي اللحظة التالية، تذكَّرَتْ حقيقة أن اليوم هو السبت. سيكون البنك مغلقًا، وكذلك مكتب وكيل العقارات. مرةً أخرى، بدا أن خططها محكومٌ عليها بالتفكك والاضطراب عندما استعرضَت الوضع. فإذا أنفقت كلَّ مالها على الطعام، ستكون بلا مالٍ على مدار نهاية الأسبوع، وكانت تكره فكرةَ عدم وجود أموال خشيةَ وقوع طارئ. في كل الأحوال، لم يكُن بإمكانها تناول الطعام وفقًا لمعيارها المعتاد؛ لأنها تحبُّ تناوُل ثلاث وجبات كاملات في اليوم.

قررت في نفسها: «من الأفضل أن أعود إلى البيت، في حين أنه لا يزال بإمكاني العودة.»

كانت تكلفة تذكرة القطار إلى هايفيلد أربعة شلنات وبنسين اثنين، وكانت أجرة قطار الأنفاق ستة بنسات؛ لذا كان لديها فارقٌ قدْرُه بنسٌ ونصف، إذا قرَّرت أن تركن إلى الجانب الآمِن.

فتمتمَتْ بغضب: «اللعنة على قصة التوءم.»

لكن، على الرغم من أنها كانت منزعجة من إهدار الوقت والمال وعدم جدوى رحلتها عمومًا، فقد شعرَتْ بخفَّة في نفسها مُشابِهة للراحة التي تلَتْ قرارها السابق. كانت تتوقُ لأنْ تكون في طريقها إلى البيت، للجلوس في عربة القطار ومشاهدة الحقول المحصودة تمرُّ بسرعة، حتى تتمكَّن من رؤية أول مَعلَمٍ يخبرها أنها قريبة من نهاية رحلتها.

لم يكن لديها صبر لأنْ تُزيل الأغطية عن السرير؛ فتركتها جاهزةً من أجل يوم الثالث عشر من سبتمبر، عندما ستقضي ليلتها في لندن. ولكن عندما أمسكت بحقيبتها، توقفتْ ثم أعادتْ وضعها على الأرض.

كانت فكرةٌ غير سارة قد تسرَّبت للتو إلى عقلها. قالت لنفسها إنها ليس لديها أيُّ دليلٍ على أن بائع المكنسة قد غادر المنزل. كل ما سمعته هو صوتُ الباب وهو يُغلَق، في حين أنَّ بإمكانه فتحَه وإغلاقه بنفسه قبل أن ينسلَّ عائدًا إلى الطابق العلوي.

كانت تلك حيلةٌ قديمة رأَتْها في الأفلام، حين كان الرجل يتمتَّع بنظرةٍ دمثة ورقيقة، مثل شرير السينما من النوع المعسول.

قالت في نفسها: «كان يعرف أنني سأكون وحدي الليلة. حسنًا، إذا كان يظنُّ أنه سيكون روميو، فهو مخطئ تمامًا … إذا كان لا يزال هنا، سأجعله يرتدُّ على عقبَيه فرارًا.»

لم يخطر ببالها أنَّ هناك أيَّ شكلٍ من أشكال الخطر في بحثها عن الرجل، على الرغم من أنها كانت دائمًا ما تشعر بالغضب من بطلات الأفلام عندما يندفعنَ إلى الخطر بينما يَحللنَ عنوةً محلَّ العملاء الخاصين ويقُمن بعملهم. هرعَت الآنسة لوفابل في أرجاء المنزل، تفتح كلَّ باب يمكن للرجل أن يكون قد اختبأ خلفه، لكنها لم تكُن دقيقة في بحثها مثل السابق.

كان هناك قطار عليها أن تلحق به؛ لأن القطارات لم تكُن تتَّجه إلى هايفيلد بوتيرةٍ متكرِّرة. وحيث كانت تعي أنها في سِباق مع الزمن، سارعتْ إلى المطبخ لتجِدَ أنَّ صوتَ النقر يأتي من صنبورٍ يقطر. وبعد أن أحكمت إغلاقه، شطفَت زجاجةَ الحليب ووضعَتْها خارج الباب الخلفي، بينما حلَّت مشكلةَ كيفية التخلص من الخبز.

إذا ألقته في الفِناء للطيور فستُحمِّصه الشمسُ فيصبح كقوام الرمل؛ ومن ناحية أخرى، لا يمكنها تركه كي لا يجذب الفئران. في نهاية المطاف، حزمتْه لتأخذه معها.

وبعد أن دسَّته تحت ذراعها، سارعتْ إلى الطابق الأول حيث تركتْ حقيبتها. فأمسكت بها ثم توقفت تتسمَّع.

كادت تجزم بأنها سمعتْ خُطًى خفيَّة تتحرك في مكانٍ ما بالأعلى.

ففكَّرت في نفسها: «لم أبحث في العلِّيَّة.»

وعلى الرغم من واقعة الصنبور الذي كان يتقطر منه الماء، كانت الآن تصعد الدرج إلى الطابق الأعلى، وحينها نظرت إلى ساعتها … في الثانية التالية، الْتفتت وسارعتْ إلى الغرفة الرئيسية، متجاوزةً الدرجات الأخيرة كلَّها في قفزةٍ واحدة؛ وهي تخشى من أن تُفوِّت القطار. أغلقَت الآنسة لوفابل البابَ الأمامي خلفها بقوة، وركضتْ طوال الطريق حتى وصلت إلى محطة الأنفاق.

وحتى وقفتْ على السلم الكهربائي، لم تكُن قد أدركت أنَّ انطباعًا قد تسلَّل إلى عقلها لا شعوريًّا؛ كان ضبابيًّا لدرجة أنه بدا وهمًا من أوهامها. وهو أنها، بينما كانت تنزل على الدرَج المغطى بالسجاد الكثيف، بدا لها أن أصواتَ وقْعِ أقدامها كانت تتكرَّر بشكلٍ خافت في الأعلى.

في ذلك الوقت، كانت مهووسة بالحاجة إلى الوصول إلى وجهتها، لذا لم تتوقَّف ولم تُدِر رأسها؛ وحتى الآن كانت غيرَ واثقة تمامًا بشأن ما حدث بالفعل.

فقالت لنفسها: «كنتُ أصنع من الحبَّة قُبة. على أي حال، حتى لو تركتُ روميو في المنزل وهو مغلقٌ عليه، يمكنه أن يخرج بنفسه ... مَن يهتم؟»

وبرغم الحرارة والعربات المزدحمة، استمتعَت الآنسة لوفابل بكلِّ ياردة في رحلة العودة، منذ اللحظة التي دخلت فيها قطار الأنفاق حتى وصل القطار المحلي إلى محطة هايفيلد. كان سيرها على الممرِّ المؤدي للمنزل وهي تثير سحابة من الغبار، وتسلُّلها عَبْر الحديقة المظللة بالزان في منزل البحيرة، يمثِّلان مغامرةً لها.

دقَّت الجرسَ لتفاجِئ إلسي. وعندما ظهرت الخادمة، حاولت أن تُهَدِّئ من انفعالات وجهها.

وسألت: «هل الآنسة لوفابل في المنزل؟»

قبل أن تنتهي من الكلام، كانت تضحك بشكلٍ هستيري، بينما انضمَّت إليها إلسي في ضحكها وطربها الهستيري. وفي خِضم الإثارة، اندفع سكوتي نحوها ينبح. وتلاه ديفيد، يركض منخفضًا على الأرض ككتلة فراء متحركة، فاكتمل الترحيب.

سألت إلسي فيما بعد، وهي تأخذ الطرد من الآنسة لوفابل: «ماذا تحملين يا سيدتي؟»

أجابت: «خبز، لم أتركه في المنزل. وهذه علامةٌ طيبة لي.»

قالت إلسي: «نعم، يا سيدتي. وأين حقيبتكِ؟»

ضربت الآنسة لوفابل جبينها.

وقالت: «نسيتُها، جَلْبُ الخبز جعلني أنساها. كنت أظنُّ أن كلتا يدي مشغولتان ... حقًّا يا إلسي، لم أعرف مثلَ هذه الفوضى من قبل. بدلًا من إجراء مقابلة شخصية مع السيد ليمون، سأضطر للاتصال به، وهذا ليس جيدًا. وكل ذلك بسبب أنني أعطيتُ عشرة شلنات لجامع التبرعات للمكفوفين، الذي قصَّ عليَّ قصةً رائعة ... لا أستطيع أن أعرف ما حدث لحظي اليوم. لقد نضب تمامًا.»

حينها، ولسخرية القدر، لم يكُن بمقدور الآنسة لوفابل أن تدرك مدى حسن حظها. فالجامع الذي تقاسَمَ مساهمتها تلقَّى خمسة شلنات وهي مبلغ ضئيل لقاء تدخله اللاواعي.

في تلك الليلة، زار رجلٌ متأنق المنزل رقم «١٩» بماديرا كريسنت بشمال غربي المدينة، ووجده فارغًا.

الفصل الثامن

ينعدم الضياء فتتساوى النساء

كان اليوم التالي واحدًا من أسعد الأيام التي تذكرها الآنسة لوفابل. بدأ شعورها المستمر بالامتنان عندما استيقظت على السَّكينة الذي يتميَّز به الريف، بدلًا من الأبهة الكئيبة لغرفة نومها في لندن. كانت إلسي دائمًا ما «تنام في ساعة متأخِّرة» في صباح يوم الأحد، ويحذو ديفيد حذوها؛ فقد كان ملتفًّا حول نفسه في سلته، ويقبض على أنفه بإحكام ببراثنه الضخمة.

عادةً، كانت الآنسة لوفابل تستلقي في السرير حتى وصول شاي الصباح؛ لكنها في هذا الصباح شعرَتْ بنشاطٍ زائد، ولم تستطع الانتظار. ارتدت ثوب كيمونو، ألوانه باهتة؛ ونزلَتْ إلى الطابق السفلي، وفتحت الباب الأمامي، فدخلت أشعة الشمس.

كانت صحف الأحد على الدَّرَج. فأخذت صحيفة «تايمز» وأعقبتْها بصحيفة «أوبزرفر»، من أجل الحفاظ على منظور ذهني متوازِن، على الرغم من أنها لم تعرف أيَّ الصحيفتَين كانت تقرأ. أمَّا إلسي، فكانت مخلِصة لصحيفة «نيوز أوف ذا وورلد» التي كانت تغذيتَها الأدبية الرديئة للأسبوع بأكمله.

كانت الآنسة لوفابل عادةً ما تمزح بشأن حُبها للقصص المثيرة، لكنها كانت تعرف أن حياة الخادمة ستفقد بعضَ تشويقها إذا نفد المورد من الضحايا. في ذلك الصباح وللمرة الأولى، ارتعدتْ عند إدراكها أنَّ الأهوال الحقيقية في العالم يتمُّ تمثيلها لتوفير ترفيهٍ لأمثال إلسي.

«الأشخاص الذين كانوا على قيد الحياة يوم الأحد الماضي، أصبحوا اليوم موتى. بعضُهم قُتِل. هذا رهيب. في حين أن تسير بصورة جميلة ولا تلتفت لأحد.»

بعد أن أعدَّت الشاي، صبَّت كوبًا لنفسها، ثم حملت الصينية إلى غرفة الخادمة. أمَّا إلسي — بشَعرها المصفَّف تحت شبكة التثبيت والمنامة الخضراء الفاتحة من الساتان

الصناعي التي ترتديها — فبدتْ كسيدة البيت؛ لأنها كانت في موقعٍ أكثر تفضيلًا، وكان بإمكانها إنفاق أجرتها على ملابسها ومظهرها.

استيقظت إلسي فجأةً في حالةٍ من القلق الشديد.

وصاحتْ بنبرة تأنيب: «أوه، سيدتي، لم يكن ينبغي أن تنتظريني. لماذا لم تطرُقي على الجدار عندما استيقظتِ؟»

«لا تتلعثمي يا إلسي. هناك زكيبةٌ رائعة من جرائم القتل بانتظاركِ هذا الصباح. صحيفتكِ «نيوز أوف ذا وورلد» لن تكلفكِ الكثير. لكن، كم تبدين أنيقة، وأنتِ بهذا الزي الأخضر!»

احمرَّ وجه إلسي الشاحب لهذا الثناء.

واعترفت: «خطر لي أنكِ ستحبين أن تتناسق ملابسي مع الغرفة.»

«يا لكِ من ساذجة سخيفة.»

كان تعليق الآنسة لوفابل مميزًا ومحسوبًا لجعل الخادمة على راحتها، حيث كانت هذه هي اللغة التي تفهمها. ولكن عندما نزلتْ إلى الطابق السفلي، أرادتْ أن تتباهى أمام العالَم أجمع بهذا الدليل الجديد على ولاء إلسي. شربتْ لوفابل شايها ثم أخذت تتجوَّل حافيةَ القدمَين في الحديقة الخلفية على العشب، بينما كان شَعرها الأشقر الطويل ينساب مع النسيم.

كان الجوُّ بالخارج أبردَ بكثير، وقد أخذت أوراقُ الأشجار الخضراء تلتمع باستمرار أمام السماء الملبَّدة بالغيوم البيضاء. وأخذَت الآنسة لوفابل تتجوَّل حول منزلها وهي تبدو أقربَ شبهًا إلى السيدة التي ذكرها الشاعر شيلي في قصيدته «النبات الرقيق». على الرغم من أنها دائمًا ما كانت غيرَ بليغةٍ عندما يتحرك حسُّها للجمال؛ فإنها كانت واعية جدًّا لنقاء الضوء، وألوان الزهور وظلال الشروق غير المألوفة.

ثم سرعان ما حطَّمت الصورة الشعرية المتوهِّمة من أجل القيام بحركاتٍ بدنية. إذ شعرَت الآنسة لوفابل بأنها مشحونةٌ بالطاقة التي لا يمكن تفريغها إلا من خلال ممارساتٍ جسدية عنيفة. كانت كلُّ قفزة وركلة رمزًا لانتصار الانبعاث على الاندثار؛ حتى وإن لم تُعِر اهتمامًا لفكرةٍ شريرة تلاشت مع أشباح الليل الأخرى؛ الصورة الباهتة لجسدٍ منتَهَك، عديم الشكل كأحد دُمى إلسي، مُتكومًا على الأرض في ظلام منزل لندن.

ولكن على الرغم من أنها كانت قد أفلتت من الخطر الوشيك والداهم، لم يفُتها تمامًا؛ إذ عاود استهدافها. فحينها، وفي شقة لندنية قاتمة، كان شاب مليح الوجه يمدُّ ذراعه نحو سماعة الهاتف. طلب الشاب الرقم على وجه السرعة ثم تحدَّث بحذر في الهاتف.

فقال: «أهذا أنت؟ اسمع. لقد وقع مني شيءٌ ليلةَ أمس ... كلَّا، كلَّا، إنه في الحقيبة المعدَّة ليوم الثالث عشر من سبتمبر.»

حتى في المواقف القاتمة، مثل تنفيذ حُكم الإعدام في سجين مُدان، ثمةَ بوادر إنسانية لطيفة، مثل تقديم وجبة أخيرة جيدة، تجعل الواقع القاسي أكثر احتمالًا قليلًا. وقد استمتعَت الآنسة لوفابل بالتأكيد بإفطارها في ذلك الصباح، ذلك أنه كان الطعام المعتاد ليومِ الأحد — اللحم المقدَّد والنقانق. وبعد ذلك، وبينما كانت تنتظر أن تدقَّ أجراس الكنيسة، سارت على العشب إلى حيث كانت إلسي تقشِّر البازلاء.

بدَت الآنسة لوفابل مختلفةً وتكاد تكون غيرَ فاتنة في أفضل فستان وقبعة ترتديهما، وكانت تواصل شدَّ قفَّازها. كانت تتوق إلى سيجارة، لكنها لن تدخِّنها حتى تفرغ من «القداس»، وفقًا لأحد القواعد التي وضعتْها لنفسها.

سألتْها إلسي: «هل معكِ مال؟ أنتِ لا ترغبين في أن تعاني من عجزٍ مالي ولا يبقى معكِ سوى ورقةٍ مالية واحدة، مثل يوم أمس، صحيح يا سيدتي؟»

كانت هذه التذكرة إشارةً إلى أنها تريد من سيدتها أن تخبرها بشيء عن رحلتها إلى لندن من دون أن تذكُر شيئًا عن تفاصيل العمل. فعلى الرغم من أن الآنسة لوفابل كانت تتحدث إليها من دون قيود، فإنها لم تكُن تُفضي بأمر مسائلها المالية إلا لمحاميها ومدير حسابها البنكي وحسب. ونتيجةً لذلك، كانت إلسي تكِنُّ لسيدتها أكبر احترام وإجلال؛ فكانت تراها تملك أموالًا كثيرة، وتعدُّها في مستوى أيِّ قطبٍ يرافقه عددٌ كبير من السكرتيرات والمساعدين.

فعادت الآنسة لوفابل تقول: «لم أخبركِ بما حدث أمس. زارني في المنزل ثلاثة رجال. كانوا «جميعًا» يرتدون القفازات.»

غمغمتْ إلسي: «هذا يُثبت رأيي.»

«صحيح. لا يمكن أن يكون ثلاثتهم مجرمين.»

«لا يسعنا أن نعرف يقينًا ... أوه سيدتي، انظري إلى هذا الملاك.»

نظرَت الآنسة لوفابل إلى ديفيد الذي تمدَّد على الأرض على ظهره ومطَّ قوائمه، وكان يركل بنشاطٍ وهو يهاجم قرن بازلاء بشراسة. وفجأةً شرعتْ تضحك على شيء تذكَّرته من إعلانٍ لصابون — كان الإعلان عن طفلٍ يتمدَّد ويسترخي على منشفة بعد أن تحمَّم.

فقالت: «إلسي، أليس وضعنا غريبًا؟ ها نحن ذا، امرأتان ناضجتان تجيش عاطفتنا تجاهَ قِط، في حين أنه يجب أن يكون لكلٍّ منا أطفالها.»

عبَّرت إلسي عن اعتراضها بحماس: «هو ليس بقِط. إنه ديفيد.»

«أعرف. أعرف. لكن ألَا ترغبين في طفلٍ يا إلسي؟»

«أرغب في طفل منكِ لأعتني به. لا أريد شيئًا إلا أن يكون ملكًا لكِ.»

«وهذا سيتطلَّب زوجًا. إنْ كان هذا رأيك، فشكرًا لكِ يا إلسي، كلَّا لا أريد ذلك. ها هو الجرس. أراكِ لاحقًا.»

استمرَّ الشعور بالتقدير الشديد لَما تتمتع به الآنسة لوفابل من أنعمٍ في أثناء القداس في الكنيسة الحجرية باردة الجوِّ، والتي تقع عند أعلى الجبل. وحين انتهى القدَّاس، اجتازتْ باحةَ الكنيسة وانتظرتْ إلى جوار الحاجز الذي يحيط بالقمَّة. كانت تحدِّق في الفراغ، فوق الأشجار وأسطُح المنازل نحو خطِّ التِّلال البعيد، وذلك حين أتتْ زوجة القسِّ في الممرِّ الذي برزتْ منه شواهد القبور.

صاحَت الآنسة لوفابل: «سأمكث لحضور حفل الحديقة.»

أقرَّت زوجة القس: «فتاة صالحة. هل يمكنكِ تولِّي المسئولية الكاملة عن المشروبات المرطبة؟ أريدكِ أن تتولي أمرَ التنظيم وتجعلي الآخرين يعملون.»

ابتسمت الآنسة لوفابل بسبب الثناء على قدراتها الإدارية.

وعاهدتْها قائلةً: «بشرطٍ واحد. يجب أن تساعد إلسي في كشك المنتجات.»

«ألن تكون أكثر نفعًا وهي تقدِّم الشاي؟»

«نعم … ولكن هذا لن يمثِّل أيَّ تغيير لها. أوه، أعرف أنكم جميعًا تحسبون أنها كسولة ومتغطرسة، ولكنها تعطيني شيئًا لا يمكن شراؤه بالمال. إنها مخلصة لي. أعرف أنها ستتبعني «إلى المشنقة — بل وبعدها».»

وضحكت الآنسة لوفابل لتُثبت أنها ليست مثارةً عاطفيًّا، حيث أضافت: «سأضيف هلامَ النعناع وجبنةَ البرقوق كأساسٍ للتفاوض.»

وعندما أومأتْ زوجة القسِّ بتجهُّم تعبيرًا عن موافقتها، نزلت الآنسة لوفابل الدَّرَج الطويل المكوَّن من طابقَين محدِثة صوتَ قعقعة وهي تشعر بالظَّفر. وفي الأسفل، كانت الآنسة أجاثا بِيت تنتظرها مع قطيعٍ من الكلاب.

فسألتْها: «كيف هو الوضع في لندن؟»

أجابَت الآنسة لوفابل: «كئيب. ولهذا السبب عُدتُ.»

«إذن لم تكن عودتكِ بسبب عنصر الجذب الجديد. ظننتُ أنكِ سمعتِ عن الأمر. لقد وعدت السيدة رام بقراءة الطالع في الحفلة. لا يمكن أن تكوني قد نسيتِها.»

«السيدة رام.» وبينما كانت تستمع، عادت أفكار الآنسة لوفابل بذاكرتها إلى ليلة عيد القديسين الجامحة — صوت خرفشة الأوراق الجافة — وألسنة اللهب تتقافز في فقاعات كهرمانية، واللهب المزدوج ينعكس في العيون السوداء الجذابة.

فسألتْ بحماس: «هل ستأتي بجهازها معها؟»

«لوحها الروحي؟ كلَّا، ليس في حفلةٍ بالكنيسة. فهذا يوحي كثيرًا بالسحر ويُذكِّر به. سيكون عليها أن تقتصر على قراءة الكفِّ والبطاقات. بالطبع، سيتم تسمية الأمر «قراءة الشخصية». ولكن الجميع سيتوافدون عليها، بعد الطريقة التي تنبَّأت بها لكِ.»

«كان ما حدث معي مجردَ ضربة حظ. لقد تخبَّطَتْ مع بقيتكُنَّ.»

«لكننا كنَّا نلهو فقط. نطرح أسئلةً غبية لتحفيزها فحسب.»

«أعرف أنكنَّ كنتنَّ تفعلن ذلك. في الواقع، يجب أن أُلقي معها نظرةً أخرى على المستقبل؛ لأنني أتوقع أن أتصدَّر عناوين الأخبار مرَّة أخرى.»

«آمل أن يكون الداعي شابًّا هذه المرة.»

تجهَّمت الآنسة لوفابل وهي تهزُّ رأسها نفيًا؛ ولكن في طريقها إلى منزل البحيرة، استنكرت ذكرى جملتَين غير مترابطتين — «فتاة مثلكِ» و«سنلتقي مرةً أخرى». في ذلك الوقت، كانت غاضبة من جُرأة بكنجهام؛ ولكن وهي تتأمَّل الآن، كانت هاتان الجملتان تشيدان بخُيلائها عن طريق تمييزها عن العوانس الراشدات في الأبرشية.

ظلَّت الآنسة لوفابل تهنِّئ نفسها طوال اليوم على تفادي قضاء يوم الأحد في عزلة في لندن. فأكلتْ أكثر من اللازم ودخَّنت أكثر من اللازم وقتلتْ حشرات الحديقة دون مراعاةٍ لأساليب «سيدة النبات الرقيق» الإنسانية. ومن ثَم استيقظت يوم الإثنين على شعورٍ بندم غير مُجدٍ وعلى فرصة ضائعة.

وافقها السيد ليمون الرأيَ عندما اتصلتْ بمكتب العقارات. كان متحدثًا فصيحًا وكان يعتقد أن الأعمال لا يمكن أن تكون شرعيةً دون الحد الأقصى للكلمات أثناء القيام بها.

قال: «يؤسفني أنكِ لم تتمكني من البقاء خلال عطلة نهاية الأسبوع. هناك جوانب حول هذا العرض أودُّ أن أتوسع في الحديث عنها. كما هو الحال، يمكنني فقط أن أعطيكِ الأساسيات. أخبرتكِ أن هناك احتماليةً لبيع المنزل رقم «١٩» بمنطقة ماديرا كريسنت إلى الميجور براند. والآن، أظنُّ أنه يمكن أن أفعل ما هو أفضل من ذلك لكِ. لقد قابلتُ السيد

والسيدة براند وأُعجِبتُ بهما. إنهما شخصان ممتازان وموثوقان جدًّا، وما إلى ذلك. ولكنَّ الميجور هو الشخص المسيطِر بالتأكيد فيهما.»

قاطعتْه الآنسة لوفابل، من دون تدقيقٍ حول المعنى: «لقد وُلدَ بتلك الصفات.»

«إلى حدٍّ ما. ما أودُّ قوله هو الآتي. زوجته تحت سيطرته بعض الشيء، وأظنُّ أنه لا يقدِّر ذوقها كثيرًا. فهي تتَّسم بالرقة في حين أنه يتَّسم بالصلابة والجدية. يحبُّ الأشياء القوية. الأشياء الصُّلبة. لا أظنُّ أنه سيثق بها لتأثيث المنزل، بافتراض أنه سيشتريه. والآن، لقد خطر لي ...»

فأكملَت الآنسة لوفابل جملته: «قد يرغب في شراء أثاثي.»

«بالضبط. أظنُّ أنكِ لا تعرفين كم دفعتِ مقابله؟ هل لديكِ فكرةٌ عامة؟ هل احتفظتِ بإيصالات الشراء؟»

«أعرف سعرَ كلِّ قطعة والقيمة الإجمالية.»

«حقًّا؟ مدهِش. إذَن إنْ أرسلتِ لي جميع التفاصيل، فسأقرِّر السعر الذي سنحاول عرضه عليه. وهنا يأتي دوركِ أنتِ. من الصعب أن نعرض عليه الأمر بفظاظة، لذا آمل ألا تستائي عندما أقول إنني متأكد أنكِ ستحصلين على سعر أفضل إذا أجريتِ معه مقابلةً شخصية.»

«ولماذا أنا بالتحديد؟»

«لأنني، كرجل عركَتْه الحياة، يتعيَّن عليَّ أن أستخلص طبائع الناس. لا أقصد الإيحاء بأن الميجور ليس زوجًا وأبًا من طرازٍ رفيع، ولكني أظنُّ أنه قابلٌ للتأثر. وأنا متأكِد من أنكِ ستخلفين لديه انطباعًا جيدًا بشكلٍ خاص. لقد شكا لي بمرارة من مستوى الفتيات العصرية في الكورال. إنه يقارنهن بشكلٍ سلبي بفتيات جيبسون لجورج إدواردز ... هل تفهمين ما أقصد؟»

احمرَّ وجه الآنسة لوفابل من السرور.

وقالت: «نعم. أنا من نوعه المفضَّل. متى سألتقي به؟»

«سأرتب الاجتماع ليكون في الرابع عشر من سبتمبر، في مكتبي، في الساعة العاشرة والنصف تمامًا. سيلحق بقطار السفينة في الظهيرة. لن يعودوا إلى لندن قبل ذلك. سيذهبون إلى اسكتلندا وأيرلندا بعد ويلز. تلقيتُ رسالةً منه بالبريد السريع، هذا الصباح ... أترين كم هو مهم لكِ أن تراعي هذا الموعد؟»

وعدَتْه الآنسة لوفابل: «يمكنك الاعتماد عليَّ. أستطيع أن أوفِّقه مع عطلتي.»

عندما شرحَتْ له ترتيباتها، فزع السيد ليمون.

وقال: «إنها مجازفةٌ أن ترتِّبي الأمر من دون أن تتركي مساحةً من الوقت في حين أنكِ ستكونين في طريق العودة من خارج البلاد. قد تكون القناة مضطربة وهائجة للغاية فلا تستطيعين العبور. ألا يمكنكِ تغيير تاريخ زيارتك لسويسرا؟»

«مستحيل. لقد كرَّستُ نفسي للتو لمهرجان محلي. لا أستطيع تركهم في مأزق كهذا. لا تقلق، سأحضُر ... ولكن، حتى لو تأخرتُ، فأنا واثقةٌ أنك تستطيع التحدث نيابةً عني.»

«شكرًا لكِ يا آنسة لوفابل. ولكن تذكَّري، أنا أعتمد على لمستكِ الشخصية.»

كانت معنويات الآنسة لوفابل مرتفعةً عندما أنهَت المكالمة. ورغم أن من عادتها أنها لا تشير إلى عمل أو تذكُره حتى يكتمل، فإنها أخبرتْ إلسي بنِيَّتها في بيع المنزل رقم «١٩» بمنطقة ماديرا كريسنت، مع محتوياته.

فقالت لها: «المكان يعجُّ بأفكار الآخرين. آمل ألا أُضطَر لقضاء ليلةٍ واحدة حتى هناك. لكن الآن عاد حظِّي مرة أخرى، بعد ما حدث يوم السبت. وكذلك حظك يا إلسي. لديَّ بعض الأخبار الجيدة لكِ.»

وعندما أخبرت الخادمة أنها ستترقى إلى رتبةِ بائعة في الحفل، بدلًا من التجول في الأرجاء مع الخادمات الأخريات، حاولَت الفتاة التحدث عدَّة مرَّات دون جدوى.

فاندفعت تقول: «أنتِ تعرفينني. أنا أنأى بنفسي. وأتمتَّع بقدرٍ من الاعتزاز ... لكن عندما أمضي في عملٍ من أجل أي أحد، فإني أمضي فيه إلى أقصى الحدود.»

فهمت الآنسة لوفابل مغزاها. كانت إلسي تحاول أن تخبرها أنها لن ترافقها فقط إلى حبل المشنقة، بل ستحلُّ محلَّها.

لم يكُن احتمال التضحية بعيدًا كما يبدو. فخلال يوم الأحد، كان ثمَّة فكرةٌ تتشكَّل في عقل إلسي. كانت تقدِّس الهزل مثل معظم الناس الكئيبين. وكانت عودة سيدتها المفاجئة قد أثارت اهتمامها وأثارت خيالها باعتبارها كوميديا هزلية رائعة.

وبدورها، بدأت تتساءل إذا كانت تستطيع أن تفاجئ الآنسة لوفابل. يمكنها تركُ الحيوانات الأليفة برعاية السيدة بِيت في ليلة الثالث عشر من سبتمبر والبقاء مع الآنسة لوفابل في لندن خلال الليل.

تخيلت الإثارةَ التي ستشعر بها عندما تتسلل إلى الظلام في البيت الفارغ وتنتظر أن تُدخِل سيدتها المفتاحَ في القفل. وبمجرد أن تسمعه، ستشغل الضوء، وتفتح الباب وتقول: «الآنسة لوفابل ليست موجودة في المنزل»، هذا إذا استطاعت أن تمنع نفسها من الضحك قبل أن تقول جملتها.

لم تستطع رؤية أيِّ علَّة في خطتها. كان موظَّفو المكتب العقاري يعرفونها جيدًا ولن يعترضوا على منحها مفتاحًا، خاصةً أنهم يعرفون أن من المتوقَّع عودة الآنسة لوفابل من خارج البلاد في ذلك المساء.

كانت الأحداث تسير على خيرٍ ما يرام بالنسبة للشاب في الشقة اللندنية المظلِمة نوعًا ما. إذا انعدم الضياء تساوت النساء، وامرأة تعدل أخرى فيما يتعلَّق بغرضه الخاص.

كانت المسألة: مَن سيدخل أولًا إلى المنزل رقم «١٩» بمنطقة ماديرا كريسنت، بلندن، في ليلة الثالث عشر من سبتمبر؟

الفصل التاسع

البطاقات تتحدث

خلال الأيام القليلة التالية، كانت الآنسة لوفابل تعاني من قلقٍ بالغ. كانت ترغب في الذهاب إلى سويسرا دون تأخير. في الليل، كانت تحلم بجبال الثلج ذات القمم المتجمِّدة، والتي تنتصب في ارتفاعاتٍ شاهقة. وخلال النهار، كانت ترى باستمرار سلسلةَ الجبال الثلاثية المكوَّنة من جبال إيجير، ومونك، ويونجفراو.

وعندما كانت رغباتها في ذروتها، أصبحت وسائل تلبية تلك الرغبات تستحوذ على فكرها. إذ أرسل السيد ليمون لها شيك الميجور براند للإيجار المقدَّم للمنزل رقم «١٩» بماديرا كريسنت. كانت قيمة الشيك أعلى من أعلى توقعاتها، وخاصةً بعد أن تعيَّن عليها أن تعترف بأن المنزل يقع في حيٍّ غير عصري.

وعلى الفور حلَّقَت أفكارها نحو بكنجهام.

«أتساءل إن كانت له علاقة بذلك. كانت تلك مجرد ذريعة ليعود. لقد أراد أن يراني مرةً أخرى.»

ثم تهلَّل وجهها فجأةً بفكرة واتَتْها. أدركتْ أنه لا يوجد الآن شيء يعوقها عن البدء في رحلتها إلى جريندلوالد. بإمكانها الاستمتاع بكلِّ دقيقة في أسبوعَي الإجازة دون أيِّ قلق من أن تفقد اتصالها بالميجور براند وتفوِّت مقابلته. والأكثر من ذلك، أنها كانت تستطيع أن تتجنَّب تمامًا أن تبيت آخِر ليلة في لندن. فإذا ما غيَّرتْ جدولها الزمني لرحلة العودة، فستستطيع العودة مباشرةً إلى منزل البحيرة وتستقلُّ قطار العمَّال من هايفيلد في صباح يوم الرابع عشر من سبتمبر.

قالت في نفسها: «أرغب حقًّا في أن أَلقى ترحيبًا بعودتي. أريد أن أعرف أن شخصًا ما يتوقَّع عودتي. شخصًا ينتظرني.»

في تلك اللحظة، كادت أحسن حظوظ الآنسة لوفابل أن تؤمِّن لها الفوز. إذ كانت على وشك الاستسلام لرغبتها الشديدة عندما تذكَّرت أنها قد سدَّت الطريق على نفسها بحركةٍ مبتسرةٍ وخاطئةٍ خطأً فادحًا.

كانت ملتزمة بالبقاء لأجل المهرجان بسبب إلسي. كانت تعرف أنها إن أخلفتْ وعدها لزوجة القسِّ، فلا يمكن أن تتوقع أن تتلقى خادمتها معاملةً تفضيلية ومميزة. ولمَّا كانت غيرَ قادرة على تخييب أمل الفتاة، قرَّرت الالتزام بخطتها الأصلية والسفر إلى سويسرا في اليوم التالي للمهرجان.

أكملَت الآنسة لوفابل جميع ترتيباتها للرحلة. فاشترتْ تذاكر القطار، وأتمَّت حجزها، وسجلت حجزًا في غرفة هادئة في فندق متواضع ولكنه جيد الطراز. كان يفصلها عن عطلتها أقلُّ من أسبوع حين تغيَّر شعورها بشكلٍ كامل.

وجدت نفسها تخشى أن تفارق إلسي وحيواناتها الأليفة. كانت تصيبها غصَّة في حلقها كلما جرى سكوتي جريته الشهيرة حول الحديقة أو استرخى ديفيد مادًّا قوائمه الأربعة كنجمِ البحر.

كما تغيَّر الطقس أيضًا فكان مثاليًّا، مع هبوب نسيمٍ قوي يثير الغيوم ويبقيها متحركةً تحت سماء صافية الزُّرقة.

لم يبدُ بيتها أكثرَ جاذبية أو حديقتها أكثر جمالًا بهذا الشكل من قبل. كما تفتَّحت زهور الخريف مبكرًا، حين ظلَّت زهور الصيف تتراقص، فالتقت زهور الأقحوان وزهور النجميات والداليا مع زهور الدلبوت والمخملية والخشخاش التي كان من المقرَّر أن تحلَّ محلَّها.

«إنها جريمة أرتكبها إن تركتُ كلَّ هذا»، هكذا قالت وهي تحدِّق في الأحواض المنسَّقة على طريقة «كيلواي» الخاصة بها، حيث امتزجَت الألوان الأرجواني والوردي والأزرق والبرتقالي والقرمزي والأصفر في غشاوةٍ زاهية تشبه قوسَ قزح.

فذكَّرتها إلسي: «لكنكِ ستقطفين الكثير من زهور الذنيان الجبلي.»

متجاهلةً قراءة «نيوز أوف ذا وورلد»، أمضَت الخادمة وقتَ فراغها في الاطلاع على الأزياء في أعمدة الإعلانات في جرائد الآنسة لوفابل بغيةَ العثور على شيءٍ ملهِم لفستان جديد.

إذ أفضَت إلى سيدتها قائلةً: «أرغب في أن أبدو كسيدة، لا كنجمة سينما.»

واصلَت الآنسة لوفابل بعنادٍ تحضير المعلبات والمخللات لكشك المنتجات؛ ولكن قبل ثلاثة أيام من المهرجان، أوقفت العمل وركبت الحافلة التي مرَّت عبر هايفيلد في طريقها إلى أماكن أكثر أهمية.

وبعد رحلة مسافتها ثلاثة أميال، نزلتْ أمام نُزُل في قرية كبيرة تكاد تكون بلدة صغيرة. في شارع القرية، كانت هناك محلات تبيع السمك واللحم؛ وهي تجارةٌ مرفوضة في هايفيلد وفقًا للمعايير الخاصة بالمكان. وكان هناك أيضًا بنكٌ وسينما صغيرة وعيادتان لطبيبٍ بشري وطبيب أسنان ومكتب محامٍ.

كانت الآنسة لوفابل تكره المهمة التي كانت ملتزمةً بها. وقد شدَّت على أسنانها بحزمٍ وإصرار وهي تخفض رأسها لتدخل باب مبنًى قديم من الخشب والجص. كان داخلَ المكتب مظلمًا كالكهف، وتنبعث منه رائحة الورق العفِن التقليدية، لكن المحامي نفسه كان ذا رُوحٍ مرِحة وبهيجة.

قالت له الآنسة لوفابل: «أريد أن أكتب وصيتي.»

فقال لها وهو يبتسم: «إجراءٌ مناسب، لقد فاجأني أنكِ لم تفعلي ذلك من قبل. أنتِ دائمًا تتَّسمين بالعملية.»

فقالت: «في الواقع، سنجعلها قصيرةً وبسيطة. يجب أن أوقِّع عليها قبل أن أذهب إلى جريندلوالد.»

كان المحامي يعرف كلَّ شيء عن زيارتها؛ حيث كان يعيش في هايفيلد وكان يتنافس معها على مسابقات الزهور.

وقال لها: «ثروتكِ جيدة جدًّا.»

ردَّت الآنسة لوفابل، وهي تبتسم لَمَّا أثنى على ممتلكاتها: «أوه، أتظنُّ هذا حقًّا؟ والآن، أريد تَضْمين كلِّ شيء وأن تذهب نصف الحصيلة إلى خادمتي — إلسي وردزورث — والنصف الآخَر إلى الجمعيات الخيرية. ها هي القائمة. ستأخذ إلسي قطتي وكلبي، لكني أريد وثيقةَ وصاية لهما.»

فسألها: «هل تشكِّين في الخادمة؟»

وأجابته: «كلَّا بالطبع. لكنها ليست قوية، وهي مُخلِصة لي لدرجة أنني أخشى أنها قد تنهار إذا حدث لي شيء. ها هي قائمةٌ بالأشخاص الذين أثق فيهم لرعاية حيوانَي الأليفَين حتى يموتا. كما ترى، تأتي الآنسة بِيت في المقام الأول.»

دوَّن المحامي تعليماتها. وكان معتادًا على كتابة الوصايا والعهود الأخيرة لدرجة أنه لم يجد أيَّ شيء يتناقض مع الموت فيما يخصُّ عميلة مثلها مفعمة بالحيوية والنشاط. وحين صافحها عند انصرافها، ألقى بدعابةٍ على مسامعها.

فقال: «لا تُخبري الخادمة عن الوصية وإلا قد تجدي في الشاي سمَّ فئران.»

ارتاحت الآنسة لوفابل عندما تمَّت تسوية الأمور أخيرًا. وقد زارتْ مكتب المحامي مرةً أخرى، عند توقيع الوصية والشهادة عليها في الليلة التي سبقتْ حفلة الحديقة. وهذه المرة، هنَّأها المحامي على مظهرها المتألِّق.

وقال: «أتنبأ بأنه سيمضي وقت طويل جدًّا قبل أن تتحقق استفادة لأحدهم من خلالِكِ.»

ومع شروق اليوم التالي، كانت الآنسة لوفابل سعيدةً لأنها بقيتْ من أجل الحفلة. كانت الحفلة دائمًا حدثًا محليًّا مهمًّا، لكنَّ الإثارة زادت هذا العام بفضل رعاية الليدي بونتيبول.

وعندما وصلت الآنسة لوفابل وإلسي إلى ساحة هايفيلد بارك — حيث كانت تقام الحفلة — شكَّلتا تباينًا واضحًا. إذ أظهرت إلسي ذوقها السليم المعتاد في فستانها الجديد وبدتْ كأيِّ فتاة تنتمي إلى الطبقات الراقية. من ناحيةٍ أخرى، لم تحاول الآنسة لوفابل التنافس مع خادمتها، ولكنَّها ارتدتْ فستانًا تقليديًّا أبيضَ من الكتان، قصير الأكمام ويظهر ذراعَيها المسفوعتَين بالشمس.

وأول ما دخلتا السرادق، سحبَت الآنسة بيت الآنسة لوفابل جانبًا.

وهمست قائلةً: «من المفترض أن تكون السيدة رام عرَّافة غامضة. تطلق على نفسها اسم «زورا». لا تُظهري أنكِ تعرفينها وإلا خابتْ توقعاتها.»

وكما وعدت الآنسة لوفابل، أنبأ تصفيق مفاجئ بدخول الليدي بونتيبول. كانت الليدي بونتيبول امرأةً جميلة، بغضِّ النظر عن حقيقة أنها كانت تستعين بكلِّ حيل الموضة وصناعة الأزياء. كان فستانها مصدرَ إلهامٍ لجنسها، في حين أن كلمتها كانت نموذجًا مثاليًّا عن نوعيتها وطبيعتها. إذ تمكنت ببضع كلمات من أن تقنع جمهورها بأنها لم تحضر من قبل مثلَ هذا الحدث الساحر، ولم تلقَ ترحيبًا أحرَّ من ترحيب هؤلاء القوم المبهجين.

والأهمُّ من ذلك، أنها ضربتْ مثالًا للجمهور بالتجول بين الأكشاك. وبمجرَّد أن وصلت إلى كشك المنتجات، استدعتْ رئيسةَ لجنة الشاي، زوجة القسِّ، التي كانت ترافقها.

ومن ثَم، وفي غياب التقديمات المعتادة، ألقَت الليدي بونتيبول نظرةً على متعهِّدي الأكشاك واختارتْ إلسي بائعةً، الأمر الذي سبَّب إزعاجًا مستترًا للآنسة لوفابل.

كانت خائبةَ الأمل؛ لأنها كانت تتطلع إلى أن يتمَّ تقديمها لهذه الشخصية المجتمعية الساحرة، لكنها أخفتْ مشاعرها عندما أخذَت المساعدة الأخرى جانبًا. لاحظتْ أن إلسي كانت توصي بوعاءٍ من عسل الخلنج بأقصى درجات الاحترام، قبل أن تنشغل بزبون آخَر. بل فُوجئت أكثر بعد مرور وقت قليل، حين وجدت أن الليدي بونتيبول لا تزال في الكشك وتتجاذب أطراف الحديث مع خادمتها.

ففكَّرت في نفسها: «آمل أن إلسي لا تتظاهر بأنها من عِلية القوم.»

ثم سرعان ما شعرتْ بالخجل من شكوكها التافهة الجائرة؛ لأن وجه الفتاة احمَرَّ من السرور عندما وقعت عينُها عليها.

وقالت بفخرٍ لليدي بونتيبول: «هذه هي سيدتي.»

رحَّبت بها الليدي بونتيبول في سرورٍ تمكنتْ من جعله يبدو صادقًا.

وقالت: «خادمتكِ كانت تقيم رابطةً بيننا. عرفتُ أن أختها خادمة عند قريبتي. وأنا أعرفها جيدًا.» (لكنها لم تُضِف «عيانًا».) «كانت تخبرني أيضًا عن المباهج التي أعدَدتِها لها. كم أنتِ متفهِّمة وعطوفة ... والآن يجب أن أشتري شيئًا منكِ. شيئًا صنعتِه بنفسكِ.»

لم تكُن الآنسة لوفابل مبهورةً جدًّا بشخصية الليدي بونتيبول لتعطيها سعرًا استغلاليًّا لجبن الدامسون الذي صنعَتْه. وبينما كانت تبيعها، تمكَّنت أن تدسَّ وسط الكلام معلومةَ أنها ستسافر خارج البلاد في اليوم التالي.

صاحت الليدي بونتيبول: «وأنا أيضًا. يا لها من صدفة! أين ستذهبين؟»

«جريندلوالد.»

«آه، مكان رائع. أغبطكِ على ذلك. أنا سأقود السيارة. سأذهب إلى دلماسية. وقد أعود عبر سويسرا. لذا قد نلتقي مرةً أخرى.»

«ألن يكون غريبًا لو التقينا في باريس؟ يتعيَّن أن أشتري قبعة. لا أرتدي القبعات في العادة، لكن قبعتكِ تجعلني أشعر أن ارتداء قبعةٍ قد يكون فكرةً جيدة.»

«إذَن يجب أن أخبركِ باسم صانع القبعات. لكن يجب أن تُبقيه سرًّا.»

أخرجَت إلسي قلم رصاص وورقة، وائتُمنت الآنسة لوفابل بسرٍّ حُرِم منه المقرَّبون من الليدي بونتيبول. ثم أنهت الليدي جولتها حول الأكشاك، وتناولت الشاي مع زوجة القسِّ — التي عاتبتْها على التدخين كثيرًا — وغادرتْ.

وبعد أن غادرتْ، تلاشى السِّحر من الحفلة. لم تشعر الآنسة لوفابل بأيٍّ من حماسها المعتاد لأنْ تجمع أكبرَ مبلغ. وبينما كانت تنظر حولها إلى الملامح المألوفة لأيِّ حدث ترفيهي ريفي صغير؛ أصبحت ضجِرةً وكثيرةَ الانتقاد. كان هناك قلَّةٌ من الشباب، ونقصٌ كبير في عدد الرجال. كان الحدث يحتاج إلى شخصٍ بجرأةِ بكنجهام لإثارة الاهتمام. من المؤكَّد أن محاولة بيعه جرَّةً لا يريدها من المخللات ستكون بمنزلة شهادة على قدراتها على الإقناع.

وفجأةً تذكَّرَت العرَّافة.

فقرَّرَت: «الأمر كلُّه هراء ... ولكني سأجعلها تقرأ طالعي.»

وفي طريقها إلى خيمة زورا، أوقفتْها الآنسة بِيت.

وقالت: «جلبتْ لنا الليدي بونتيبول بعضَ المصوغات المصرية. ابتاعي لنفسكِ جُعرانًا من قبرِ مومياء؛ ليجلب لكِ حُسن الحظ. فأنتِ تؤمنين بالأساطير.»

«كلَّا ... لا أومن بالأساطير»، هكذا صرَّحَت الآنسة لوفابل وهي تختار جُعرانًا بلونَين أزرق وأخضر.

ولمَّا وصلتْ إلى وِجارِ العرَّافة، استقبلتْها سيدةٌ محلية تعمل موظفةَ استقبال وضابطة استخبارات. أخذت شلنًا من الآنسة لوفابل واختفتْ خلف الستائر في الحجرة الداخلية. وبعد تهامُس على عجل، أُدخِلَت الآنسة لوفابل إلى كهفِ الغموض الحارِّ والمليء بالدُّخان والمُضاء بمصباح أرجواني خافت. وأخفقت البخور الشرقية في إخفاء رائحة نوع السجائر التي تستخدمها السيدة رام، لكنَّ العرَّافة نفسها كانت قد تبدَّلت تمامًا.

كانت ترتدي مجموعةً من الثياب السوداء، وكان رأسها ووجهها يغطِّيهما حجابٌ لونُه بحُمرة النبيذ، تحتهما لَمَع قناعٌ بلون الذهب المعدني، مشقوقٌ عند العينَين والشفتَين. بدا مظهرها وحشيًّا وغير بشري لدرجة أنَّ الآنسة لوفابل شعرتْ براحةٍ كبيرة عندما بدأ التمثال في الكلام بصوتٍ مصطنَع.

«البطاقات أم اليد؟»

«البطاقات، من فضلكِ.»

بدأت العرَّافة تنشر جزءًا من حزمة البطاقات على طاولةٍ صغيرة، وبدأت في العدِّ بالأصابع المغطَّاة بقفازٍ ذهبي.

وقالت: «ستتلقين رسالةً تحتوي على دعوة. أظنُّ أنها لحفل زفاف. نعم، ها هو الخاتم، جنبًا إلى جنب مع القلوب. خلال شهر، قد تصلكِ هديةٌ من رجل مُسِن. وقريبًا جدًّا ستحصل لكِ مفاجأة. أرى أيضًا رحلة. ستسافرين إلى خارج البلاد.»

علَّقت الآنسة لوفابل: «نعم، أنا ذاهبة إلى جريندلوالد. ليس خبرًا حصريًّا. الجميع يعرف ذلك.»

«أرى ذلك في البطاقات. في هذه الرحلة ستلتقين بأصدقاءَ جُدد. ويوجد في طالعكِ رجال. يفكِّر أحدهم فيكِ الآن.»

«لا بد أنه الرجل الذي أعطيتُه بعضَ الفكَّة.»

ثم بدأت الآنسة لوفابل في محاولةِ تفسير البطاقات بنفسها حين ملَّت العناصر التقليدية.

فسألت: «أليست هذه بطاقةَ الموت؟»

أجاب الوثن: «ليس بالضرورة. فقط حين تقترن مع بطاقات أخرى.»

«لكن هناك بطاقة آس بستوني مقلوبة، مع بطاقتَي عشرة وتسعة من بطاقات البستوني. هذا سيئ، أليس كذلك؟»

«ينبغي أن تكوني حذِرة بالتأكيد.»

«ممَّ؟»

«من رجل.»

«أهو عدوي؟»

«كلَّا، أنتِ محاطة بالأصدقاء. هذا الرجل يُعادي رجلًا آخَر بالتأكيد.»

فجأةً نسِيَت العرَّافة صوتها الرنَّان، وصارت نبرة صوتها عميقة.

وقالت في تبرُّم: «كل شيء مربِك للغاية. لا أحد يتمنَّى لكِ الشرَّ؛ ومع ذلك هناك تهديدٌ لسلامتكِ. من واجبي تحذيركِ بأن هناك خطرًا.»

«أمرٌ جيد أنني كتبت وصيتي. هل الرجل الخطير شخصٌ أعرفه؟»

«كلَّا، إنه غريب.»

«إذَن، لماذا اختارني أنا؟ هذا لا يُعقَل.» وحين أدركت الآنسة لوفابل أنها بدأت تأخذ طالعها على محمل الجِد، بدأت تضحك. وأردفت: «لا بد أنه سائق قطار. سأكون ضحيةَ حادث قطار.»

فأجابتْها العرَّافة: «كلَّا، يكمن الخطر في المنزل ... هل يمكنني النظر إلى يدكِ لِلحظة؟»

وعندما مدَّت السيدة رام المتنكِّرة يدها؛ شعرت الآنسة لوفابل بأنَّ أصابعها ترتجف قليلًا.

فقالت قارئةُ الطالع: «أوه، هذه يدٌ محظوظة جدًّا. لديكِ كلُّ شيء: زوج، سعادة، أطفال، رخاء، حياة مديدة. فقط ... هناك الإشارة نفسها إلى وجودِ خطر.»

«شكرًا.» ثم ألقَت الآنسة لوفابل نظرةً على ساعتها وصاحت فجأةً: «يا إلهي، لم تتناول إلسي الشاي. يجب أن أعود سريعًا للتخفيف عنها.»

وممَّا أثار اندهاشها أن السيدة رام رافقتْها إلى المدخل.

وشدَّدت تقول لها بصوتها الطبيعي: «أرجوكِ كوني في غاية الحذر. هذا ليس أمرًا يُستهان به. تذكَّري أنني أخبرتكِ بطالعكِ من قبل ... وقد تحقَّق.»

وما إنْ عادت إلى خيمتها حتى برزتْ رأس السيدة بِيت من الباب في الخلف.

وسألتْها: «هل أنتِ متاحةٌ لتُخبريني عن طالعي؟»

أجابت السيدة رام بصوتٍ مضطرب: «ليس الآن. انصرفي أرجوكِ. يجب أن أُدخِّن قليلًا لأهدِّئ أعصابي قبل أن أستقبل الزبون التالي. سأشرح لكِ لاحقًا.»

استمرَّ الحفل برتابة حتى وصَلَ إلى نهايته، وقد مضى الوقت مملًّا على الآنسة لوفابل ومثيرًا على إلسي. وبعد فترة، ألقى القسُّ خطابَ شكر عام، وأعلن فيه مجموع الإيرادات. ثم صفَّق الجميع وعزفتْ فرقة القرية الموسيقية «حفظ الله الملك.»

وعندما أُطفِئَت آخِر الأضواء الملونة وأصبحت الحديقة شبهَ مهجورة، توقفت الآنسة لوفابل عن حزم الأمتعة وتحدَّثت إلى إلسي.

«لقد تذكرتُ للتوِّ أنني تركتُ حقيبتي الصغيرة في لندن. سأرى إذا كان بإمكاني استعارة واحدة من السيدة بوسانكيه.»

ولَمَّا كانت الآنسة لوفابل تفتخر بأنها لا تستعير شيئًا من أحد، كانت زوجة القسِّ هي الشخص الوحيد الذي يمكنها التوجُّه إليه. كانت تعرف أن المديرة السابقة للمستشفى يمكن الاعتماد عليها دائمًا للتعامل مع الحالات الطارئة.

وفي هذه المناسبة، لم تخذل السيدة بوسانكيه الآنسةَ لوفابل.

إذ قالت: «كلَّا يا عزيزتي، لا يمكنني التخلِّي عن واحدةٍ من حقائبي. فأنا دائمًا ما أستخدمها. ولكن يوجد شيءٌ هنا قد يفي بالغرض. وضعتْ خادمة الليدي بونتيبول تلك الخردوات المصرية القديمة في علبة مجوهراتٍ قديمة. وتركتْها كنفاية غير مرغوبٍ فيها ... هاكِ هي.»

وبعد أن بحثتْ خلف بعض الطاولات المكدَّسة، أخرجت علبةً غالية الثمن ولكنها مهترئة قليلًا.

قَبِلَت الآنسة لوفابل العلبةَ بحماس.

وقالت: «إنها مصنوعةٌ من جلدٍ رائع. أجمل بكثير من حقيبةٍ رخيصة جديدة. أودُّ استعارتها لعطلتي.»

«هي لكِ. ولكن أَبقِي التُّوَيج بعيدًا عن الأنظار.»

مَثَّل حصول الآنسة لوفابل على علبة المجوهرات مرحلةً حاسمةً في مباراة بين قوتَين كبيرتَين متعاديتَين. كان الحفل قد رتَّب الأمور لصالح مصير الآنسة لوفابل الخبيث والمبهَم؛ وذلك من خلال تشكيل جدول أعمالها الزمني، لكن حين كانت على وشك الانهزام، دفَعَ الحظ بالليدي بونتيبول إلى المباراة.

كانت لا تزال هناك فرصةٌ ضئيلة.

ومع ذلك، كان هناك شخصٌ لم ينخدع بأي أوهام بالأمان. فبينما كانت الآنسة لوفابل وإلسي تسيران في طريق عودتهما إلى منزل البحيرة — وهما مثقلتان بالكثير من الأشياء المكدَّسة — دخلت الآنسة بِيت خيمة العرَّافة. كانت السيدة رام قد خلعتْ قناعها الذهبي وكانت تدخِّن عندما تحصي مكاسبها التي لم تتسلَّمها بعدُ.

سألت الآنسة بِيت: «ماذا كان خطبكِ عندما دخلتُ عليكِ من قبل؟»

كان سؤالها مثل إشارة للسيدة رام لتتحوَّل إلى أداءٍ درامي.

فقالت: «أوه يا عزيزتي. لقد تعرَّضتُ لصدمة فظيعة للغاية. كنت أقرأ البطاقات لشخصٍ ما — لا أستطيع أن أخبركِ مَن هي — ورأيتُ ميتةً شنيعة. كانت يدها أيضًا تُظهر ذلك — انقطاع في خطِّ الحياة ... ستُقتَل.»

الفصل العاشر

الخلنج الأبيض

شعرت الآنسة لوفابل بأول نشوةِ ترقُّب عندما وصلتْ إلى محطة فيكتوريا ظهيرة اليوم التالي. حتى ذلك الحين، كان الفراق ثقيلًا عليها، منذ اللحظة التي استيقظتْ فيها في عتمة الفجر. ولمَّا كان ما بها من توتُّر أكبرَ من أن يدعها تستلقي في السرير؛ نهضتْ ونزلتْ إلى حديقةٍ غير مألوفة.

كان كلُّ شيء يبدو جامدًا وعديم اللون كما لو كان في صورةٍ فوتوغرافية. كان الفِطر الشاحب ينمو في مجموعاتٍ بين العشب. وفي الهواء طفتْ خيوط العنكبوت الطويلة الواهنة النديَّة. كانت هناك برودة في الجو جعلتها أكثر اكتئابًا وهي واقفة ترتعش في ثوب كيمونو من القطن.

فكرت الآنسة لوفابل، في لحظةٍ نادرة تحرَّر فيها خيالها: «قد يرجع تاريخُ هذا المكان إلى ما قبل أقدم الحقب التي سجَّلها ويلز في «موجز تاريخ العالم». بلا ضوء، ومنعزل بشكلٍ فظيع. أشعر أنني لم أولد بعد.»

ولاحقًا عندما مارَسَ شروقُ الشمس سحرَه التحويلي، وأعادها تناوُلُ الإفطار إلى حالتها الطبيعية، ملأها جمالُ أحواض زهورها بندمٍ عقيم.

اعترفت قائلةً لسكوتي: «ما يحبطني هو معرفة أنني «دفعتُ أموالًا» لتركِ كلِّ شيء. كلما أسرعتُ في الذهاب وأنهيتُ الأمر كان أفضل.»

ولحُسن الحظ، عندما لحقتُ بالقطار المبكِّر، لم تكن هناك مشاهد مؤلمة للوداع. إذ استجمعتْ إلسي شجاعتها لتودعها بتحمُّل ولا مبالاة، بينما اعتبرَت الحيوانات الأليفة مشاعرها ضعفًا وحاولت قيادتها إلى خزانة اللحوم. ولكن ظلَّت طوال الطريق إلى لندن تشاهد كلَّ مَعلم بعينَين مولعتَين كمَن يُساق إلى المنفى.

فقالت تذكِّر نفسها وتعزِّيها: «بعد خمسة عشر يومًا سأرى كلَّ هذا مرةً أخرى.»

وعلى الرغم من أن الجوَّ في لندن كان أكثر برودةً ممَّا كان عليه في زيارتها الأخيرة، فلم تسقط أيُّ أمطار لتغسل الشوارع. وبدَت المباني متسخةً، وكان متجر الشاي الرخيص الذي تناولت فيه وجبةَ غداء خفيفة مكتظًّا بالزبائن ويعاني من نقصٍ في العمالة.

وبعد محاولةِ إضاعة الوقت في المعرض الوطني، قرَّرت الانتظارَ في محطة فيكتوريا. وعلى الفور تقريبًا، تغيَّرت حالتها المزاجية استجابةً لَما يحيط بها. المسافرون المتعجِّلون، والروايات الجديدة في أكشاك الكتب، وعربات الشاي، وعربات النقل المكدَّسة بالأمتعة؛ كلُّ هذه الأشياء أثَّرت فيها مثل النغمات الأُولى لاستهلالٍ موسيقي. ولَمَّا أثار الضجيج والازدحام حفيظتها، بدأت تتطلع إلى عطلتها بتلذُّذٍ شديد.

كانت على وشك أن تحظى بأشدِّ محفِّزات التغيير: وجوه، وطعام، ولغة، ومناظر؛ كلُّها مختلفة. كانت سترى مرةً أخرى تلك الجبال المغطاة بالثلوج، والتي كانت تطاردها في أحلامها. وعلى الرغم من أن وقتًا طويلًا كان قد مرَّ، فإنها ما زالت محتفظة بذكرى غامضة؛ منظر بانورامي لسلسلة من القمم البيضاء والتي تُرى من قمة جبلِ شنيج بلات.

استطاعت الآنسة لوفابل أن تشعر بالتقدير مرةً أخرى تجاه حظِّها الخاص؛ ولكن، رغم أنها كانت تجلُّه باعتباره قوةً حميدة، فإنها كانت واقعيةً وتؤمن بضرورة مساعدته من أجل أن يؤدي وظيفته.

وقد فكرت في نفسها: «أتساءل إن كان بإمكاني شراء بعض الخلنج الأبيض من أجل الرحلة.»

وممَّا بعث في نفسها السرور أنها وجدتْ عدَّة أغصان في متجرٍ للزهور داخل المحطة. وبعد أن سألت عن سعرها، حثَّتها النزعة المقتصدة في عقلها على تأجيل الشراء، في حالِ أنْ تمكنت من الشراء بسعرٍ أقل من بائعٍ متجول في الشوارع. وكانت في طريقها إلى أقرب مَخرج عندما بدأت تشعر بالعطش.

ولَمَّا كان أمامها الكثير من وقت الفراغ، قرَّرت أن تشرب الشاي، بدلًا من انتظار أن يُقدَّم لها في القطار. ولدى دخولها أقرب مقصف، وجدتْ أن أكثر مَن فيه من الركَّاب الذين يستعدُّون للسفر على متن القطار «كونتيننتال إكسبريس». جلست إلى طاولةٍ مفروشة، وبينما كانت تدخِّن سيجارة، لفَتَت انتباهها مجموعة كانت تجلس بعيدًا عنها نسبيًّا.

ومع ذلك، كانت تستطيع سماعَ كل كلمة ينطقونها، حيث كانوا يتحدثون عن شئونهم الخاصة بأعلى أصواتهم ويعاملون بقية الموجودين كأنهم غير موجودين. ومن مظهرهم، بدا أنهم أثرياء ويتمتعون بمكانةٍ اجتماعية. وكان من الطبيعي أن تنتبه الآنسة

لوفابل أكثرَ إلى الاثنتَين اللتين كانتا متأنقتَين لأجل السفر خارج البلاد، كما بدا من تعليقاتهما.

بدا من ملامح المرأة الأكبر سنًّا بينهما أنها كانت جميلةً فيما مضى، وأنها لا تزال تمتلك جاذبية هشَّة ولكنها عقيمة؛ كانت تعلو وجهها تعبيراتٌ تنمُّ عن الحزن، وعيناها الواسعتان الداكنتان توحيان بالمعاناة. وكانت ابنتها أقلَّ جمالًا؛ إذ كانت ذات شعرٍ أسود — صفَّفته بطريقةٍ تعود إلى العهد الإدواردي — ووجهٍ ذي حمرةٍ شديدة، وأسنان بيضاء بارزة.

دخل سائق بزيٍّ أنيق إلى المقصف، وتقدَّم نحو طاولتهم. كان يحمل حقائبهم الخفيفة وجاء ليتبيَّن التعليمات بشأن الأمتعة الثقيلة. وبعد أن أشار بصوتٍ عالٍ إلى سيارة جديدة — من طراز رولز رويس — حاولت الآنسة لوفابل التوقف عن الاستماع إلى أصواتهم، عن طريق الاستماع إلى محادثة مَن كانوا على طاولتها؛ لكنَّ انتباهها اتجه إليهم مرةً أخرى رغمًا عنها.

احتجَّ صوتٌ ذكوري قائلًا: «تعني أنك لم تحجز في عربةٍ للنوم؟»

فقالت السيدة الضعيفة العجوز: «الأمر لا يستحقُّ هذه التكلفة. إضافةً إلى ذلك، يجب نسافر على متن الدرجة الأُولى، ونحن نسافر على متن الدرجة الثانية. لكن لا يهم. سيكون الحظ حليفي. إنه دائمًا كذلك.»

فصرَّحت الابنة: «أجل، يكفي أن تبدو أمُّنا مثيرةً للشفقة؛ فيأتي أحدهم دائمًا ليقدِّم المساعدة.»

هنَّأت الآنسة لوفابل نفسها على حجزها مقعدًا في الزاوية على متن قطار كاليه–إنترلاكن. لم يَرُق لها الناس؛ فأسرعت في الانتهاء من شرب الشاي حتى تعود إلى المحطة.

كانت حيوية المشهد قد زادت في غيابها؛ لأن قطار كونتيننتال إكسبريس كان قد وصل الآن. وكان من السابق لأوانه أن تركبه، لكنَّ الآنسة لوفابل عبَرَت الحاجز لتبحث عن عربتها. وبينما كانت تسير على الرصيف، جذبت الانتباه إليها، في حين أن أصوات ركاب الدرجة المميزة كانت تتعالى في المقصف، كأنهم يعتدون صوتيًّا على المحيط من حولهم.

كانت الآنسة لوفابل ترتدي الفستان الحريري الأسود غير الملائم، حيث كانت مقتنعةً أن ما مرَّت به في لندن يبرِّر نصيحة الآنسة بيت المؤسِفة. وكان قضاؤها الصيف من دون أن ترتدي قبعةً، قد حوَّل بشرتها إلى درجةٍ داكنة أكثر — إذ لم يكُن شَعرها الذهبي

مغطًّى — وكانت عيناها شديدتَي الزُّرقة تشعان تألقًا وبهاءً. تقدَّمت الآنسة لوفابل برأسٍ منتصب وحقيبة ثقيلة تتمايل أثناء سيرها، وكأنها تجابه عراقيلَ تمنعها عن تحقيق غايتها المنشودة.

سرعان ما وجدت مقعدها في عربة بولمان. وقد راق لها المقعد كثيرًا؛ حيث كان إلى جوار النافذة وكان مزودًا بطاولة، مما يوفِّر راحةً أكبر. وبعد أن رفعت معطفها وحقيبتها على رفِّ الأمتعة، قفزتْ إلى خارج العربة وبدأتْ تذرع الرصيف جيئةً وذهابًا. وبدورها أخذتْ تراقب الركَّاب الآخرين، متسائلةً في نفسها: أيُّهم يتَّجه إلى سويسرا؟ وكانت تنتقي الناس المميزين من بينهم.

وكانت قد اطمأنت لَمَّا رأت أن السيدتَين الأرفع مقامًا، اللتين كانتا تجلسان في المقصف، قد ذهبتا إلى قسمٍ بعيد من القطار، ولن تكون هناك فرصةٌ أو مجال للحديث معهما على الإطلاق، وذلك حين تحول انتباهها إلى زوجين.

كان الرجل نحيفًا، وذا بشرةٍ داكنة، وشاربٍ خفيف، وشَعرٍ داكنِ اللون مصفَّفٍ بالشمع. كان مظهر الرجل يوحي بأنه ينتمي لمجموعة متنوعة من صنوف الناس؛ إذ رأت أنه قد يكون أحد النبلاء الأجانب، أو مصفِّفَ شَعر، أو قائدَ فرقة أوركسترا. أمَّا رفيقته على الجانب الآخر فكانت مميَّزة.

كان وجهها جميلًا حين تطالع أجزاءه على حدة. فعيناها الرقيقتان الداكنتان المائلتان وشَعرها اللامع كانا رائعَين، كشفتَيها السليمتَين من أيِّ عيب والحمراوَين بلونِ زهرة إبرة الراعي وكذقنها البيضاوي الأبيض بلون زهرة الماجنوليا. لكن للأسف، كان نصفا هذا الوجه يجتمعان — أو بالأحرى ينفصلان — عند أنفٍ طويل للغاية ومعقوف قليلًا.

فكَّرت الأنسة لوفابل في نفسها: «وكأنني أنظر إلى وجه أحدهما في مرآة مكسورة. هذه سمات الباريسيين. لا شك أنهما محتالان.»

لم تكُن تدري أن أحد أقدم الأحداث الدرامية تجري حولها؛ أن يكون المراقِب تحت المراقبة. فبينما كانت تتفرَّس في ملامح الزوجين، كانت هي أيضًا تحت ملاحظة أحدهم. كان شخص ما يراقب تحركاتها باهتمامٍ بالغ وهو يتوارى بين الحشد.

كان الرجل شابًّا حسَنَ الهِندام من النوع الذي ارتاد المدارس العمومية، له أسنان مثالية وابتسامة لطيفة. وكان ينسلُّ خلف الأعمدة والركَّاب وعربات النقل المكدَّسة بالأمتعة، مستترًا باستمرار في حين أنه يتبعها بعينَيه. وفي حالتها، كان أسلوبه ناجحًا، لكنه سرعان ما جذَبَ انتباه المرأة ذات الأنف المعقوف.

همست المرأة إلى رفيقها بحماسٍ بالغ: «انظر. أترى ما أرى؟»

شهق الرجل وقال: «عجبًا، إنه هو. لم أعرف أنه خرج. الآن ستزداد الأمور إثارة … أهو في إثر أحدهم؟»

«يبدو أنها تلك المرأة الشقراء الطويلة.»

«إذَن لا شك أنه في إثر أمرٍ ما. ما ظنُّكِ في ذلك؟»

«أظنُّ أنه إن كانت هذه إحدى عملياته؛ فمن الأفضل لنا أن ننأى عنه.»

«بالتأكيد. ولكن إن كانت الشقراء تستقلُّ قطار باريس، فلا ضرر لو ظللنا على مقربة.»

تحدث الرجل بحزن؛ لأن الزوجَين كانا مجرمين وَضيعين — إذ كانا دائمًا ما يتراجعان ويستتران، في حين أن الآخَرين يتحملون المخاطر والمجازفات، ويصطادون الطريدة — وكانا يكتفيان بالفُتات. كانا كزوجٍ من الضباع، لا يتقدَّمان إلا في ظلِّ نمر.

ثم رمقت المرأة ساعتها بنظرة.

وقالت: «حان الوقت للعودة إلى عربتنا.»

كانت الآنسة لوفابل بالفعل في مقعدها. كانت تتوق للانطلاق؛ كانت تريد تسريع الوداعات الطويلة. وبينما كان المحرك ينفث دخانه والجو من حولها مفعمًا بالأمنيات الطيبة والنصائح؛ كانت هي ملجومة، كمَن يقف على شفا جرف.

سرعان ما أشار الحارس بالعلَم الأخضر، وأخيرًا ستبدأ عطلتها … فجأةً ظهَرَ على وجهها الهلع عندما تذكَّرت الخلنج الأبيض الذي لم تتمكن من شرائه.

قالت لنفسها: «فات الأوان الآن. لا تكوني حمقاء. إنها مجرد خرافة.»

ومع ذلك، وفي أعماق عقلها، كانت تعلم أن أغصان الخلنج ستُحدث فرقًا كبيرًا في سعادتها. ولو أنها شرعت في ذلك، فلن يمكنها السفر بثقة حقيقية.

ألقت نظرةً خاطفة على الساعة، ثم قفزت من القطار. هرعت الآنسة لوفابل على طول الرصيف ممسِكةً بعلبة الليدي بونتيبول، والتي تحتوي على تذاكرها وأموالها وجواز سفرها، إضافةً إلى بعض مستلزمات التزيين، ثم اجتازت الحاجز وعادت إلى متجر الزهور. كانت غير قادرة على التحدث لأنها كانت تلهث؛ فاقتنصت باقةً من الخلنج الأبيض، وألقَت بنصفِ كراون وركضتْ بعيدًا، دون أن تنتظر أخذ باقي مالها.

كانت انطلاقتها وهي عائدة إلى القطار تمثِّل أداءً باهرًا للمشاهدين المذهولين، لكنها لم تكُن تخلو من الخطر. فبعد أن اصطدمت بالموظف عند الحاجز، سمعت صوت انقطاع

تنُّورتها وشعرت بحُريةٍ جديدة في الحركة. وبينما كانت تركض بسرعة أكبر، اندفعت مارَّةً بنهاية الخط في نفس اللحظة التي كان فيها القطار قد بدأ في مغادرة المحطة.

كانت عربتها أبعدَ بكثير عن محاولتها للوصول إليها، لكنها تمكنت من الإمساك بمقبض باب العربة الأخيرة. وقد انفتح الباب وأمسك بها شخصٌ ما وجرَّها إلى الداخل.

فقالت وهي تلهث: «يا لحسن حظِّي.»

الفصل الحادي عشر

قطار كاليه-إنترلاكن السريع

في البداية، كانت الآنسة لوفابل مرتبكةً ولا تستطيع التنفُّس، لدرجة أنها لم تكُن واعيةً بمحيطها. وعندما شعرتْ بأنَّها تُجَرُّ إلى مقعدٍ شاغر، شملت بشكرها جميع مَن في العربة.

فقالت: «أشكركم جزيلًا. إنه لُطف جدًّا منكم. كنت أخشى أن يفوتني القطار.»

فأتى صوت سمعتْه من قبلُ يقول موافقًا: «أنا ظننتُ ذلك أيضًا. رأيتكِ تقفزين من القطار وتركضين. لذلك أبقيت الباب مفتوحًا على أمل أن تلحقي بالقطار في اللحظة الأخيرة.»

نظرَت الآنسة لوفابل بدهشة إلى الشاب الذي أنقذ الوضع.

وشهقت وهي تقول: «أنت!»

أجاب بكنجهام: «بالطبع. قلت لكِ إننا سنلتقي مرةً أخرى. أنا ذاهب إلى سويسرا.»

نظرتْ إليه بمشاعرَ مختلطة، فكانت ممتنَّةً لمساعدته ومعجبةً بإصراره، حتى وإن كان ذلك يزعجها. ولأنها كانت من أصل ريفي، أعجبها وهو يرتدي بنطالًا مزمومًا وكنزة أكثر مما كان وهو يرتدي بزَّة المدينة. وعندما نظرتْ بفضول إلى يدَيه غير المقفَّزتَين، لاحظتْ أنهما الآن خاليتان من البقع الكيميائية أو الندوب.

فسألتْه بسخرية: «جريندلوالد أيضًا؟»

«كيف خمَّنتِ ذلك؟»

«في الفندق نفسه؟»

«حتى ذلك لن يفاجئني ... يا إلهي. أعتقد أن الأمور باتت واضحةً الآن.»

كانت الآنسة لوفابل تبذل قصارى جهدها للحفاظ على كرامتها والسيطرة على شفتَيها، لكنَّ طبيعتها الطيبة فازت وشاركتْه الضحك.

سأل، وهو يخفض صوته: «هل حصلتِ على الشيك من براند؟»

«نعم. هل يجب أن أشكرك على ذلك؟»

«لقد استخدمتُ بالفعل بعضَ الضغط. وكان ضروريًّا مع هذا الشحَّاذ المتلكِّئ. إنه ينسى دائمًا تقديمَ ساعته عندما يبدأ التوقيت الصيفي، لذا لا يستطيع المجاراة أبدًا ... أمَّا الآن، فها نحن ذا. كيف تشعرين؟»

وعندما تذكَّرَت الآنسة لوفابل مأزقها الشخصي، تذمَّرتْ.

وقالت: «أنا في حالةٍ من الفوضى.»

من النظرة الباردة والمجرَّدة التي سدَّدتها لها الفتاة التي كانت تجلس في الزاوية المقابِلة لها، أدركَت الآنسة لوفابل فجأةً أنَّ تنورتها كانت ممزَّقة وشَعرها مضطرب. كانت الفتاة تمثِّل نموذجًا تستاء منه الآنسة لوفابل وتغار منه سرًّا؛ نسخة مصغرة من الجمال الكامل. كانت ملامحها الصغيرة خاليةً من العيوب، وعيونها كبيرة، ورموشها كثيفة ومغبرة. كانت خمريةَ اللون، وقد أوحتْ درجةُ بشرتها بشحوبٍ طبيعي وصحي، وكان شحوبها هذا يتناقض مع شفتَيها اللتين كانتا بلونِ الكرز الناضج. كانت ترتدي زِي سفر لا تشوبه شائبةٌ من صوفِ التويد البُني، والذي يقلِّل من قيمة البدلة الحريرية السوداء التي ترتديها لوفابل إلى أن تكون مجرَّد قطعة قماش قديمة.

كوَّنت الآنسة لوفابل انطباعًا عن الفتاة.

«إنها رقيقةٌ كالجنيات. «امرأةٌ صغيرة القوام». الأزياء والموضة تُصنع من أجلها.»

كانت غاضبةً من نفسها لأنها شعرتْ بالغيرة، خاصةً أنها كانت حقًّا غير قادرة على الإعجاب بالمقاسات الضئيلة. وبعد أن أدانت نفسها في مخيلتها بالوزن الزائد والبذاءة، قامت من مقعدها.

وقالت: «يجب أن أعود إلى عربتي الخاصة.»

همَسَ بكنجهام: «لا يمكنكِ ذلك. هذا قطارٌ طويل، مكوَّن من قِطع وأجزاء.»

تجهَّم وجه لوفابل عندما لاحظتْ لأول مرة أنه لا يوجد ممرٌّ إلى العربة.

فقالت: «لقد تركتُ معطفي وحقيبتي على مقعدي.»

«يمكنكِ استعادتهما في دوفر. كلُّ شيء على ما يُرام.»

«لا، كلُّ شيء ليس على ما يُرام. لقد فقدتُ مقعدي في الزاوية.»

فجأةً، تحدثت «السيدة الصغيرة» بصوتٍ خافت ومبحوح.

فقالت: «هل ترغبين في تبديل الأماكن معي؟»

كان العرض غيرَ متوقَّع لدرجة أن الآنسة لوفابل شعرتْ وكأنها عمَّةٌ عذراء ثرية.

فردَّت مسرعةً: «كلَّا، شكرًا لكِ.»

«أنا آسفة. ظننتُ أنكِ تريدين مقعدًا في الزاوية. ما أجمل هذا الخلنج الأبيض.»

ضحكَت الآنسة لوفابل بخجلٍ عندما وضعتْ أغصان الخلنج داخل العلبة للحفاظ عليها.

واعترفتْ تقول: «هذا هو ما عُدتُ لأجله. آمل أن يستحقَّ الأمر.»

«أوه، هل تؤمنين بالحظ؟»

«أنا أومن بحظي. أنا دائمًا محظوظة.»

«يسرُّني إذن أنكِ تأتين على متن القطار السويسري كتميمةٍ للحظ. أنا دائمًا أخاف من الحوادث.»

«لا تقلقي. ستكونين آمنةً معي.»

شعرت الآنسة لوفابل أنها سعيدة مجدَّدًا عندما أدلتْ بنبوءتها. فبعد أن تعرَّضتْ للإذلال بسبب الشعور بالدونية، إضافةً إلى فقدان مقعدها في الزاوية، استعادتْ مستواها الأعلى من الامتيازات الخاصة. وفي هذه الظروف، سرَّها أن تسمح للآخرين بالاستفادة من الفيض.

استطردت الفتاة تقول: «هل يمكنكِ ضمان عبورٍ سلِس؟»

«بالطبع. أنا أيضًا سأعبر.»

تحوَّل بكنجهام إلى الفتاة وقال: «هذا يحسم الأمر. سنلازمها.»

كانت هذه هي المرة الأولى التي يُشركها فيها في المحادثة، لكن بدا وكأنها تنتظر تمهيدًا. وكانت إيماءتها وابتسامتها السريعة هي متمِّم التحالف، وذَكَّرَت الآنسة لوفابل بحماس الكلب بعد تناوله السكر.

وقالت: «حريٌّ بي أن أبتعد عن نادي الحظ. فأنا غريبة، في حين أن أحدكما يعرف الآخَر بالفعل. ولكن عندما يسافر المرء وحده، فإن لقاء أشخاصٍ لطفاء يشكِّل فارقًا كبيرًا.»

وعلى الرغم من المديح الذي تلقَّته الآنسة لوفابل، فإنها لم تكن تعيش في أوهام. كانت الفتاة من النوع الأنثوي المتوتر الذي يسعى للاستحواذ على أي رجلٍ غير مرتبط. وبينما كانت ملامح وجهها ناعمةً كطالبة مدرسة؛ أثبَتَ هدوءها أنها شخصيةٌ ناضجة ومتمكنة.

وفي غضون الدقيقة التالية، بيَّنت طبيعتها.

سألت الفتاة: «هل يمكنني أن أُصلح تنورتكِ؟ لديَّ عدَّة خياطة في حقيبتي. لا يمكنكِ فعل ذلك بنفسكِ. لكن يبدو أن القطع عنيف جدًّا.»

ألقت الآنسة لوفابل نظرة على الرفِّ ولاحظتْ أن أمتعة الفتاة تتطابق مع اختيارات ألوانها، في دليلٍ آخَر على اهتمامها بالتفاصيل. وعندما قبلت العرض وانحنَت الفتاة فوق الشقِّ الحريري الأسود، اضطرَّت الآنسة لوفابل للاعتراف بكمال طِلاء أظافرها، والبراعة الفنية في تموُّج شَعرها وانسياب رموشها الطويلة.

أوضحت الفتاة تقول: «سأسحب الحواف معًا، فقط حتى تنتهي الرحلة. وعندما تعودين، يمكنكِ أخْذ الفستان إلى مكانٍ لإصلاحه بشكلٍ خفي.»

فأومأت الآنسة لوفابل بحركةٍ نبيلة غامضة استعادت بها احترامها لنفسها.

وقالت: «سأتخلص منه عندما أعود مباشرةً.»

وعلى الرغم من أنهم كانوا مجموعةً مفعمةً بالحيوية وهم في طريقهم إلى الساحل، كانت تشعر سرًّا بخيبةِ أمل. إذ لم تبدأ العطلة وفقًا للخطة. فقد كانت تتطلع إلى السفر وهي حرَّة من الالتزام بمحادثة، حرَّة في أن تستلقي في زاويتها وتشاهد الحقول والمنازل تمرُّ بسرعة من جانبها.

وسرعان ما وصلوا إلى دوفر، فقفزت من العربة، وركضت على الرصيف. ووصلت إلى عربتها الأُولى في الوقت المناسب لأنْ ترى حامل الأمتعة يلقي بحقيبتها ومعطفها على عربةٍ لحمل الأمتعة. تجاهلَت الآنسة لوفابل عروضَ بكنجهام للمساعدة، وأمسكتْ بأمتعتها وهي مغتبطة، وصعدت على متن باخرةِ القنال الإنجليزي، وعادت حرَّة.

أثبت الخلنج الأبيض تأثيره ومزيَّته؛ لأن البحر في وقتِ الشفق كان هادئًا جدًّا، لدرجة أنه لا يمكن أن يسبِّب أيَّ إزعاج حتى لأسوأ بحَّار. واستمتعَت الآنسة لوفابل بفترة العبور القصيرة، على الرغم من أنها اضطرت لممارسة التخطيط الاستراتيجي لتجنُّب زملائها من الركاب. وعندما صعدت على متن قطار كاليه-إنترلاكن إكسبريس، رافقها حظُّها؛ لأنها وجدت فقط زوجَين فرنسيَّين هادئَين يشاركانها عربتها.

وقبل أن تضع أغراضها على الرف، سمعت صوت الفتاة المبحوح.

«هل تمانعين أن آخذ الزاوية الأخيرة؟ إنْ لم أفعل ذلك، فقد يأخذها رجلٌ سمين يشخر.»

أقرَّت الآنسة لوفابل بهذا مجازِفةً وقبلتْ بالتسوية، على الرغم من أنها في سريرتها اعتبرت أن الخلنج الأبيض لم يُجهد نفسه نيابةً عنها. ثم رافقت الفتاة إلى عربة المطعم

واستمتعت بعشائها كثيرًا، حين كان القطار يهدر عَبْر الشفق الأخضر لفرنسا. ولَمَّا وقفت بعد ذلك في الممرِّ وشاهدت أضواء المحطات الصغيرة تمرُّ بسرعة؛ كان كل شيء يبدو غريبًا ومثيرًا على هذا الجانب من القناة.

بعد بُرهة، عادت إلى عربتها الخاصة، لتجد الآخرين قد استقرُّوا بالفعل في زواياهم. وكانوا قد خففوا الأضواء على أملِ الحصول على قسطٍ من الراحة، حتى لو لم يتمكنوا من النوم. كانت الآنسة لوفابل قد بدأت في الاستمتاع بالشعور بالتمايُل خلال الظَّلام، عندما سمعتْ أصواتًا في الممر.

كان بعض الركَّاب يبحثون عن مقصوراتٍ جديدة. وأخذ الجميع يُنصتون بقلق، خشيةَ وقوع الأسوأ، وذلك حين أصابتْهم الطامَّة.

قال صوتٌ حادٌّ: «هناك أربعةٌ فقط هنا.»

وعندما فتحتْ عينَيها، تعرَّفت الآنسة لوفابل على السيدتَين الراقيتَين من مقهى فيكتوريا. بدَت المرأة الأكبر سنًّا في قمة الإرهاق عندما انهارت على مقعدٍ وابتسمتْ بعذوبة باهتة.

قالت بنبرةِ اعتذار: «أعلم أننا لا يمكن أن نكون موضعَ ترحيب. أنا آسفة جدًّا. لكننا مشينا كثيرًا في محاولةٍ للعثور على عربةٍ أكثر راحة.»

ثم تحدَّثت بسرعة إلى الموظف الذي كان يحمل حقائبهما.

وقالت: «ضعها هناك أيها الحمَّال.»

قاطعتْها الفتاة قائلةً: «لكن يا أمي، أنتِ تعلمين أنكِ يجب أن تجلسي في مقعدٍ بالزاوية، بسبب حالة قلبكِ.»

«حبيبتي، ستكون زاويةً في مقبرة إذا مشيت خطوةً أخرى. هل تمانعين في إخراج شراب البراندي؟»

تقبَّلت الآنسة لوفابل خفَّة دمها باستمتاعٍ وعبوس وهي تتذكَّر تفاخُر السيدة الرقيقة أمام أصدقائها. وأعطت الفتاة الخمرية دليلًا آخَر على طبيعتها غير الأنانية وهي تبتسم.

إذ حثَّت الفتاة العجوز، قائلةً: «رجاءً خُذي مقعدي.»

فردَّت العجوز: «أنتِ حقًّا لطيفة جدًّا. الناس في غاية الأنانية اليوم. وهذا يفسر حالة العداء في المجتمع.»

وعلى الرغم من امتنانهم؛ تشكَّل لدى الآنسة لوفابل انطباعٌ بأنَّ القادمتَين الجديدتَين اعتبرتا أن الفتاة تحدثتْ في وقتٍ غير مناسب. وتأكَّدت شكوكها عندما نظرت الابنة بتطلُّع إلى مكانها الخاص.

وأوضحت للفتاة قائلةً: «مقعد تلك السيدة سيكون أفضلَ لأمي؛ لأنه يواجِه النافذة. ربما لن تمانع أن تبدِّل مكانها إلى زاويتكِ في الممر؟»

فقالت الآنسة لوفابل بهدوء: «آسفة، لكني أخشى أنها ستمانع.»

ومنذ تلك اللحظة، وهما لا تُشعِرانِها بالخزي وحسب، بل أيضًا بأنها متطفلة. وبالطريقة نفسها، التي اجتاحتا بها محطةَ فيكتوريا، حوَّلَت السيدتان العربة على الفور إلى منطقةٍ خاصة تابعة لهما. وقد حسَمَتا مسألة الإضاءة والتهوية مع أخذهما تفضيلاتِ الفتاة وحدها في اعتبارهما، وذلك بعد أن أثبتتْ أنها مرِنةٌ ومراعية.

وقالت السيدة الرقيقة، التي يبدو أنها نسيتْ خطر الإغماء: «لا أستطيع النوم في القطار. لهذا أسافر في الدرجة الثانية. فالوقت يمرُّ أسرع عندما يقضيه المرء في الحديث.»

وافقتْها الفتاة الخمرية بحماس. إذ بدا أنها أكَّدت لنفسها الأهمية الاجتماعية التي تتمتع بها تلك المرأة الغريبة، بنفس الطريقة التي شكلت بها رأيها عن الآنسة لوفابل ووجدتْها أقلَّ أهمية، حين كان الأمر معنيًّا بالقَطْع في تنُّورتها. وبدَتْ أنها مستمتعة عندما بدأت في مناقشة الشخصيتَين البارزتَين في المجتمع اللندني.

وبينما كانت الآنسة لوفابل تستمع، شعرتْ وكأن قنبلة قد انفجرت في العربة باعثةً سيلًا من القصاصات من السجل الاجتماعي. وبدأت تشعر بالدوار مع تتابُع الألقاب. فقالت لنفسها لا بدَّ أن هؤلاء الناس المتعالين قد بدءوا حياتهم في القمة، وأن الأساقفة لم يكونوا أبدًا بمرتبةٍ أدنى مثل القساوسة، أو أن الجنرالات لم يبدءوا مسيراتهم كمرءوسين.

وسرعان ما اكتُشِفَت معرفةٌ مشتركة، كانت بمنزلةِ إشارة لتبادل الأسماء. فقدَّمت الأم والابنة نفسَيهما باسم السيدة فورس والآنسة أوليفيا فورس، في حين أن الفتاة أعطت لهما بطاقتها.

وقالت وهي تضحك: ««الآنسة أوكترلوني». لكن دعا عنكما هذا الاسم وناديانى باسم «فيفا» كما يفعل الجميع.»

ومنذ تلك اللحظة، أصبحت تُعرَف باسم «فيفا» عند معارفها الجدد، بينما كانت الآنسة لوفابل تفكِّر بمرارة:

«الأمر بهذه السهولة. ولكن إذا وقع حادثُ تصادم؛ عندما يسألني القديس بطرس عن ذريعتي لدخول الملكوت، سينادينى باسم «الآنسة لوفابل».»

ولأنها كانت متعبةً جدًّا، بدأت تشعر بالأسف على نفسها. وتذكَّرت أنه مرَّت سنوات منذ أن دعاها أحد باسمها الأول. كانت هي نفسها على وشك أن تنسى اسمها بعد مرور

وقت قصير ... وفي الوقت نفسه، كانت تشتاق للنوم، ولكن بدا من أصواتهنَّ أنهنَّ لا ينوين التوقف عن الحديث في جلستهن. كانت تفتقر إلى فلسفة الزوجين الفرنسيين اللذين تجاهلا الأمر وعادا للنوم. وفي الوقت الذي كانت تشتاق فيه للصمت، كانت غاضبةً من أنهنَّ يتعاملْنَ معها وكأنها نكرة.

بعد قليلٍ تمكنتْ من استحضار منطقها السليم لمساعدتها، عندما تذكرتْ أن هذه البليَّة ما هي إلا تجربةٌ عابرة. وفي غضون بضع ساعات، سيكون كلُّ هؤلاء الناس قد غادروا حياتها.

قالت لوفابل لنفسها: «أنا في طريقي إلى سويسرا.»

تذكرت الآنسة أوليفيا فورس وجودَها مرةً واحدة فقط، وأومأتْ لها بإيماءةٍ طفيفة تنمُّ عن عرضٍ للصداقة، عندما عرضتْ عليها مجلةً متجعدة.

«هل تودِّين قراءة هذه؟»

رفضت الآنسة لوفابل هذا المعروف الذي جاء بعد فوات الأوان.

فقالت: «كلَّا، شكرًا لكِ. لا أستطيع القراءة.»

ومع مرور الليل وتثاقُل جفونها، بدا وكأن هناك بندولًا ثقيلًا من الرصاص داخل رأسها يتحرك موازيًا للأصوات. تمايُل العربة، والصرخات العابرة للمحركات، ولطخات السخام التي تناثرت عليها؛ كل هذه كانت أجزاءً من كابوسٍ لا نهايةَ له. ثم فجأةً انتبهتْ لإدراكٍ أليم عندما طرحتْ فيفا سؤالًا:

«إلى أين أنتما ذاهبتان في سويسرا؟ هل ستنتقلان منها إلى مكان آخَر؟»

أجابت السيدة فورس: «كلَّا. فأنا بحاجة للراحة. نحن ذاهبتان إلى جريندلوالد.»

«وأنا أيضًا. أين ستقيمان هناك؟»

نطقَت السيدة فورس اسم فندق الآنسة لوفابل، ونصحت فيفا بمحاولة الحصول على غرفةٍ فيه، وذلك بسبب شهرته الواسعة.

شعرت الآنسة لوفابل بأنها تكاد تُصعَق من الصدمة، كما لو كانت صديقةُ عمرها قد خانتْ ثقتها.

سألت بدهشة: «ما الذي حدث لحظِّي؟»

ومع مرور الوقت، وعلى الرغم من أنها لم تكُن واعيةً بأنها تستسلم للنوم، كانت تعلم أنها لا بد وأنها مرَّت بفترات من الغياب عن الوعي؛ لأنها كلما انحنى رأسها إلى الأمام، كانت تسمع أن الموضوع الذي يتحدثون فيه قد تغيَّر: السيد تشامبرلين والأزمة. والت ديزني وسنو وايت. الخبز والزبدة كوسيلة للتخسيس. وهكذا دَوَالَيك.

وأثناء شعورها بعدم الراحة هذا، ظلَّت أفكارها تعود إلى السلام والجمال في منزل البحيرة؛ وبرودة سريرها الفارغ. وتخيَّلت إلسي وهي نائمة، وديفيد في سلَّة بجانبها وسكوتي يشخر على وسادته؛ وكانت تشتاق للعودة مرةً أخرى.

كانت غبطتها هذه مُهدَرة؛ لأن إلسي كانت تعاني قلقًا أكثر مما تعاني هي. كانت الفتاة تتعذَّب نفسيًّا من القلق على سلامة سيدتها. إذ بدا لها أن سيدتها في خطرٍ دائم أثناء سفرها وانتقالها؛ في المقام الأول أثناء رحلة القطار، ثم بعد ذلك من القطار الجبلي المائل ومن السكك الحديدية الجبلية ومن عبَّارة البحيرات والحافلات السياحية. وحتى لو لم تتنقَّل وتسافر، فهناك دائمًا احتمال أنْ تنهار عليها قطعةٌ من الجبل الثلجي فتُدفن تحتها.

كانت إلسي تقضي وقتها في تضرُّع لا ينقطع.

«أرجوك يا إلهي، لو أن حادثة لا بد أن تقع، فدعْني أُوقِف الحافلة ...»

قُرب الفجر، بدأت الآلات تُظهر إشاراتٍ على أنها تخفِّض قوَّتها، وذلك حين قالت السيدة فورس أنها تظنُّ أنها تستطيع أن تخلد إلى النوم إذا ما قلَّلَت ابنتها الإضاءة. ولَّما غرقت العربة في ظلام يكاد يكون دامسًا، أدْلَت أوليفيا بتصريحها البارز.

«ألَا تبعث الليلة الأُولى على الحماس؟ فهناك إحساسٌ ما ب «القَدَر» ينتاب المرء حين يكون في رحلةٍ بالقطار. إجازتكِ — بل وحياتكِ حتى — يمكن أن تتأثَّر بالأشخاص الذين تلتقين بهم وهم غرباء عنكِ.»

في تلك اللحظة، توصَّلت الآنسة لوفابل إلى قرارٍ انفعالي في ذهنها.

«كلَّا. لقد أفسدتُما عليَّ رحلتي تمامًا. لكنكما لن تفسدا عليَّ إجازتي. حالما نصل إلى جريندلوالد، سأكون حرةً بعيدًا عنكم جميعًا — وسأظلُّ حرة. ولو استطعتُ أن أتجنب الحديث مع أيٍّ منكم فسأفعل ولن أتحدث إلى أحد منكم. وسأعود إلى الديار عن طريق باريس.»

وبعد عشر ساعات، كانت تقف على الشرفة الخشبية في الفندق، تنظر إلى الحاجز الجبلي العظيم. ورأت أصدقاءها القدامى، جبل إيجير وجبل ويتيرورن، قبل أن تسقط عينها على الكتل الجليدية العلوية والسفلية وتركِّز على شقِّ وادي جورجي. كانت تشعر وكأن مقلتيها هُلاميتان، لكنَّ وجهها كان غايةً في الابتهاج.

وعلى الرغم من المِحَن التي مرَّت بها أثناء الليل، فإن ذهنها كان قد خزَّن ذكرياته: القهوة وخبز البيتي بان، حين شقَّ القطار مروجًا أضاءها نور الشمس؛ سطح بحيرة ثون

بألوانه الزرقاء الفيروزية، وتناوُل الغداء تحت أشجار القسطل في إنترلاكن أوست؛ الرحلة الأخيرة على الممر المحفوف بالأشجار، إلى جوار نهر لوتسكين الهائج.

لكنْ في هذه اللحظة، كانت في حاجة ماسَّة إلى الشاي. كان رأسها ينبض بالألم وشعرتْ بأن حلقها جافٌّ حين كانت تنزل الدرَج المسطَّح، وذلك حين وجدتْ موقفًا مثبطًا. من الواضح أن كلَّ مَن في الفندق قد فكَّروا في نفس ما فكَّرت هي فيه. فكانت الاستراحة تعجُّ بالزوَّار الذين استولوا على كلِّ طاولةٍ متاحة، في حين أن الموظفين كانوا حسيري النظر يهرعون من حولها بصوانٍ وأطباق محمَّلة.

ولمَّا استيأست أن تجد مَن يأخذ منها طلبها، امتدَّت يدٌ تمسك بمرفقها.

قال بكنجهام: «انضمِّي إلينا. الشاي في انتظارِك. لقد طلبناه لكِ.»

ثم تقدَّمَها إلى الخارج في الشرفة نحو طاولة أُعِدَّت لخمسة أشخاص، حيث جلست السيدة فورس مع ابنتها أوليفيا ومعهما فيفا. كنَّ قد شرعنَ في تناوُل طعامهن، لكنهنَّ لوَّحنَ لها أن تأتي وأشرنَ إلى مقعدها الشاغر.

وفي الحال نسيَت الآنسة لوفابل سياسة الانعزال التي كانت قد قرَّرتها، ونسيت حنقها، وهرعت نحو المجموعة لتنضمَّ إليهنَّ وهي ترى تبسُّمهنَّ ترحيبًا بها.

الفصل الثاني عشر

الآنسة لوفابل الحقيقية

ذُهِلَت الآنسة لوفابل لَمَّا رأت مستوى الأزياء والأناقة العالي نسبيًّا في الفندق. كانت قد حزمت بعض ملابسها القديمة وحسب؛ لتحافظ على خِفة حقيبتها، حتى تستطيع حملها بنفسها. وبعد أن سَبَّت الآنسة بِيت ولعنتْها بشدَّة بسبب نصيحتها المضلِّلة، خرجتْ إلى شرفتها لتتأمَّل الجوَّ العام.

وبينما تنظر إلى الجبال، استلَّت الجبال شعور الحنق من داخلها وتركتْها أخفَّ رُوحًا وأكثر ارتياحًا. بدا لها وهي واقفة تحت ظلال قمم هذه الجبال أنَّ من الغباء والحماقة أن تسمح لشيءٍ تافه كآراء الناس أن يخرِّب عليها إجازتها.

فقرَّرت: «سأرتدي سروالي القصير، شاء مَن شاء وأبى مَن أبى.»

لكنها حين نزلت لتناول العشاء في ثيابها المسائية — في معطفٍ حريري عثماني أبيض ترتديه فوق التنورة الحريرية السوداء لبزَّتها — لم تستطع أن تصرف عن ذهنها إحساسَ أنَّ نشوة أول إجازة لها قد فسدت ونقصت. لاحظت أن فيفا — في فستانها الفيكتوري ذي الأهداب الشبكية — تجلس مع عائلة فورس وتتشارك معها شعورًا قويًّا بالقيم الاجتماعية. كان اهتمامهن منصبًّا على أولئك الزوار الذين يرتدون ملابس أفضل ويجلسون على المقاعد الأعلى في المأدبة، ولا شك أنهنَّ فكَّرنَ في أنهنَّ أُعفينَ من أي الْتزام تجاه رفيقتهنَّ في السفر أثناء تناول الشاي.

وطمأنَت الآنسة لوفابل نفسها بأنها محظوظة لأنها أفلتتْ من صحبتهنَّ. كانت لا تزال تشعر بأنها تهتز مع تمايل القطار، وترغب في أن تنال قسطًا جيدًا من النوم. أسرعت في تناول وجبتها لكي تتفادى ما يمثِّله بكنجهام من تهديد — والذي جعلتْه شهيته يفرط في تناول الطعام — ثم سحبتْ معطفًا، وذهبت لتتمشى عبر القرية. في البداية كانت مسرورة لَمَا يتمتع به موقع هذه العطلة من حداثة؛ فالزوار يتناولون القهوة

أو الجعة في الشرفات المكلَّلة كلها بالزهور، والمتاجر بمنحوتاتها الخشبية وشرائط الزينة؛ لكنها حين خلَّفت الأضواء وراءها وبدأت تتبع الطريق الجبلي المنحدِر نحو الكتلة الجليدية العليا؛ بدأت تشعر تدريجيًّا بخيبةِ أمل.

لقد فرض «القدَر» هذه العطلة للتأثير في مصيرها، وقد بدأت الأحداث، على الرغم من كونها عشوائيةً وغير مترابطة حاليًّا، تشكِّل نمطًا مهمًّا ومتماسكًا ... وهكذا، ورغم أنَّ الليل قد أتى بكل ما ترغب فيه — حيث النجوم والعزلة والجبال — وجدَت الآنسة لوفابل نفسها تستسلم لبعض الدوافع الإنسانية جدًّا، بدلًا من أن تنغمس في تلك الرحابة.

ازدراها آل فورس وفيفا لرثاثة مظهرها. فأرادت أن تقدِّمهنَّ إلى الآنسة لوفابل الحقيقية التي تفوز بالجوائز من أجل أفضل الطعام والتي تملك ثلاثة منازل.

بعد أن نالت قسطًا جيدًا من النوم أثناء الليل، استيقظت الآنسة لوفابل بصحة ممتازة ورُوح معنوية عالية، لكنها كانت عازمة على إثبات جدارتها إذا ما لاحتْ لها فرصة لذلك. ثم نزلت إلى المطعم وهي ترتدي سروالها القصير مع افتقارٍ تام للوعي بالذات.

مرةً أخرى كانت فيفا تشارك آل فورس الطاولة، وبدت منهمكة في الحديث. وبعد التحية والابتسامة الساحرة — التي قدَّمتها السيدة فورس كشيءٍ إضافي ومنحة — لم ينتبه لها أيٌّ من المرأتين كثيرًا، عدا الابنة أوليفيا والتي أخذت تحملق في ساقَيها.

جلسَت الآنسة لوفابل إلى الطاولة الوحيدة الشاغرة والتي كانت تقع إلى جوار طاولتهنَّ، وبدأت تتناول إفطارها المكوَّن من القهوة وخبز البيتي بان. كان ذهنها قد عاد إلى هايفيلد، وكانت تحسد إلسي على تناوُل اللحم المقدد، وذلك حين دخل بكنجهام المطعم. جلس بكنجهام في مواجهةِ الآنسة لوفابل وهو غافلٌ عن إيماءات فيفا التي تدعوه لينضمَّ إليهن.

سألها بكنجهام: «أتمانعين إن شاركتكِ الطاولة؟ أنا لا أتحدث. فالوقت لا يزال مبكرًا جدًّا.»

فردَّت، وهي تشعر بنوع من الإثارة الأنثوية الناجمة عن الشعور بالغلبة: «يناسبني ذلك.»

وبسبب الحال الفوضوية التي كان عليها عقلها أثناء الرحلة؛ كان انطباعها عنه مشوشًا. وإذ كانت قد استعادت نشاطها بعد قسط النوم الجيد، أخذت تتأمل وجهه باهتمام. ولاحظت حينها أن صرامة تعبيرات وجهه كانت بسبب التجاعيد التي تظهر غالبًا على وُجوه الرجال بعد الحرب.

وبينما هما صامتان، وجدا نفسيهما يستمعان إلى المحادثة التي تدور على الطاولة المجاوِرة. بدأت السيدة فورس أولًا بإخبار فيفا عن ممتلكاتهما في مقاطعة سَري التي باعاها مؤخرًا، ثم وصفتْ لها شقتهما في لندن، والتي كانت تحتوي على كل الرفاهيات والتحسينات الحديثة، بما في ذلك منظر طبيعي مصطنع للريف.

وعند أول صمتٍ بينهم، حاولتْ أوليفيا فورس — التي بَدَت أكثر اجتماعية من رفيقتَيها — جذب الآنسة لوفابل إلى المحادثة.

فسألتْها: «هل تعيشين في الريف؟»

كانت هذه هي الفرصة التي تنتظرها الآنسة لوفابل؛ ولكن قبل أن تتمكَّن من الرد، استأنفَت السيدة فورس وصفها للشقة.

«إننا نستأجرها بمبلغ كبير يتكوَّن من أربعة أرقام، ولكنها في الواقع اقتصادية؛ حيث نحتاج إلى طاقمِ عملٍ أقل.»

فقررت الآنسة لوفابل عدم دخول المنافسة.

وأجابت: «نعم، أنا أعيش في الريف.»

وسَرَّها بشكل خفيٍّ أن بكنجهام تصرَّف كوكيل دعائي لها.

إذ أوضح يقول: «في الواقع، الآنسة لوفابل تملك ثلاثة منازل. واحد في لندن، وواحد في الريف، وواحد على الساحل.»

وبينما كُنَّ يَنْظُرن جميعهن بدهشة إلى الراكبة التي ازدرينها، استفسرتْ أوليفيا على عجل.

«أوه ... أهي بيوتٌ للضيافة؟»

فغضبَت الآنسة لوفابل لهذا التلميح.

وأجابت: «كلَّا، إنها منازل خاصة وأمتلكها شخصيًّا. أعيش فيها بالتناوب. فأنا أحبُّ التغيير.»

وبعتابٍ لطيف، كسرت السيدة فورس الصمتَ المفعم بالتوتر الذي تلا ذلك:

«كم هذا مثير! ومع ذلك، لا أظنه سائغًا أن أمتلك ثلاثة منازل في آنٍ واحد. سأعدُّ الأمر جريمة، في حين أن العديد من الأسر الفقيرة تُضطر للتكدُّس في غرفةٍ واحدة.»

فسألتْها الآنسة لوفابل بحدَّة: «هل تستضيفين دومًا عائلةً فقيرة في الغرفة الفارغة الاحتياطية في منزلكِ؟»

علَّق بكنجهام بإعجاب: «هذا السؤال من نفس فئة سؤال «هل توقفتَ عن ضرب زوجتك؟»». والآن يا سيدة فورس، إمَّا أنكِ ستدينين نفسكِ بأنكِ مناهضةٌ للاجتماعية أو ستضطرين إلى الاعتراف بأنَّ شقتكِ الرائعة ليس بها غرفةٌ احتياطية فارغة.»

فجأةً أصيبت الآنسة لوفابل بالاشمئزاز من الموقف. كانت تشعر بالعار لاستسلامها للرغبة في امتداح نفسها؛ وكذلك، بشكلٍ أكثر غموضًا، من محاولة العيش في ثلاثة منازل في آنٍ واحد. فنهضت فجأةً، وخرجتْ إلى الحديقة لتدخن سيجارة.

كانت الآنسة لوفابل تحمي عود الثقاب من الرياح عندما انضمَّ إليها بكنجهام.

وسألها: «هل أنتِ غاضبة مني لأنني أفشيتُ هويتكِ الحقيقية؟»

فأقرَّت بصراحة: «كلَّا. أنت فقط كرَّرت ما أخبرتُك به بنفسي. إنها مسئوليتي أن أحترس؛ إذ كنتُ حمقاء بما فيه الكفاية لأثرثر عن شئوني الخاصة للغرباء. إضافةً إلى ذلك، كيف تعرف أنني أملك ثلاثة منازل؟»

«لا أعرف. هل لديكِ ثلاثة منازل؟»

«أجل. هل لديكَ أخت؟»

«لِمَ لا؟ هذا أمرٌ شائع.»

«ليس شائعًا جدًّا. فأنا ليس لي أخت. كيف هي السيدة براند؟»

«الرجال لا يحسِنون معرفة أخواتهم. لقد تمكنتْ من الزواج. لا أعرف إن كان ذلك لأنها جذَّابة أم لحسن حظِّها.»

فانفجرت الآنسة لوفابل تضحك ضحكاتها العميقة المميزة.

وقالت له: «أنت غامض جدًّا حول عائلتك. كان عليَّ أن أخبرك أنَّ زوج أختك يريد شراء منزلي في لندن. أتوقع أن يتم البيع بينما أنا هنا. ولكني أعتزم العودة وتسوية أمر الأثاث بنفسي.»

«لماذا؟»

«لأنني سيدة أعمال.»

قال بكنجهام بسخرية: «سيدة أعمال؟ تقصدين أنكِ لم تكسبي قرشًا في حياتكِ. فرجلٌ اكتسب المال الذي ورثتِه ورجل آخَر نصحكِ بكيفية استثماره. ثم تزعمين أنكِ سيدة أعمال نشِطةٌ لمجرد أنكِ تقرئين تقرير البورصة لترى إن كانت أسهُم الكاوتشوك قد ارتفعت. إنَّ أي طفل على مكتب نقدية أحقُّ بهذا اللقب وأَولى.»

احمرَّت وجنتا الآنسة لوفابل.

وسألتْه: «هل تحاول أن تكون وقحًا؟»

فأجاب: «كلَّا. لقد فعلتُ أسوأ من ذلك. لقد كنتُ بالفعل وقحًا. لقد نسيت أنني أتحدث إليكِ. أنا أعتذر … الحقيقة هي أنني طوال حياتي كنت ممَّن لا يملكون شيئًا. كانت أُسرتي هم الفرع الفقير في عائلتنا. وهذا جعلني حساسًا فيما يتعلق بالمال.»

كانت نوبة التعاطف التي شعرتْ بها الآنسة لوفابل بمنزلة تنبيهٍ لها لأنْ تُقَسِّي قلبها للدفاع عن النفس بشكلٍ غريزي. كانت تُذَكِّر نفسها كثيرًا بأن بعض حظِّها يتألَّف من معرفتها بسعادتها. وبما أنها ظلَّت عزباء باختيارها، كانت تشكُّ في أيِّ تهديد مستتِر لوضعها — كعزباء.

كان الانجذاب الذي شعرتْ به تجاه بكنجهام غريبًا جدًّا عن طبيعتها، حتى إنها شخَّصته على أنه ضعفٌ في مبادئها الأخلاقية يجب أن تتخلص منه بلا هوادة. سيكون كارثيًّا زيادة تعقيد الوضع بالشفقة.

فقالت له: «أنت مخطئ في شيءٍ واحد. لقد اكتسبتُ بعضَ أموالي. فُزت بها في سَحْب.»

سألها: «بكمْ تذكرة؟»

«واحدة.»

«بآخِر عشرة شلنات معكِ؟»

«كلَّا.»

«هذه ليست حتى مقامرة.»

شهقتْ وقالت: «في الواقع! الجبال تنزع الغرور مني. لكنك كسرتَ شوكتي تمامًا.»

وعلى الرغم من أنها كانت حريصةً على ألَّا تذكُر منازلها الثلاثة مرةً أخرى لأي شخص في الفندق، كان للواقعة عواقبُ معينة ومؤكَّدة. إذ اعتبرت السيدة فورس المحنَّكة وفيفا أنها جديرةٌ بأن يتعرَّفا عليها شخصيًّا. فوجَّهتا إليها دعوةً للانضمام إليهما في رحلاتٍ مختلفة، قد تكون مكلِّفة جدًّا لها، إن لم تتقاسم التكلفةَ مع مجموعة.

عندما صارت الآنسة لوفابل وحدها، وكان بإمكانها تحليل مشاعرها، تعيَّن عليها الاعتراف بخيبة أملها المستترة. إذ لم تكُن هذه هي العطلة المثالية التي خططت لها بكل نشوة. وكانت السيدة فورس تتمتَّع بصفات الزعامة الاجتماعية وتؤثِّر على الضيوف الآخرين في الفندق. وكانت دعواتها تعتبر شرفًا؛ لذا وجدت الآنسة لوفابل صعوبةً في مقاومة الانجذاب إلى دائرتها الخاصة، والتي تضمنتْ أيضًا بكنجهام.

ذهبوا إلى بحيرة كاندرستيج الزرقاء، وممر آري ونهر الرون الجليدي. ولكنْ، على الرغم من أنها كانت تشعر بالحماسة والإثارة، فإنها كانت غالبًا ما تشعر بالضيق وعدم الرضى. فقد كان هناك كثير من الناس، فتشتت انتباهها؛ الكثير من الوجوه، والكثير من الأصوات. ما كانت تريده حقًّا هو أن تكون وحدها؛ أن تستلقي في أعلى الجبل وتشاهد الغيوم تنجرف عبر الوجوه المتغيرة لسلاسل الجبال.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن تصبح الآنسة لوفابل شخصيةً بارزةً في الفندق. وعلى الرغم من أنها لم تكن ترغب في جذب الانتباه، فإن شخصيتها كانت قوية وصادقة للغاية، بحيث لم يكن يمكن كبتها. فعندما كانت تعبِّر عن رأي لها، كانت تصرِّح به بصدقٍ وبساطة دون اعتبار لمشاعر الذين يستمعون إليها.

وكانت سراويلها القصيرة التي ترتديها مسئولةً جزئيًّا عن الإشادة التي تتلقاها شخصيًّا؛ لأنها كانت ترتديها بلا مبالاة. كانت تلك السراويل تمثِّل تحدِّيًا لِفيفا، التي كانت تخرُج عليهم يوميًّا بزِي رياضي جديد من آخِر صيحات الموضة الحصرية.

وفي الصباح الذي نزلتْ فيه لتناول الإفطار وهي ترتدي بنطالًا بلونٍ أزرقَ داكن، لم تستطِع الآنسة لوفابل التحكم في سخطها.

فقالت لأوليفيا فورس: «لم أرَ منظرًا أكثر بشاعة من هذا. أفضِّل أن أكون عاريةً على ارتداء هذا البنطال.»

ولكي تثأر لسخطها المحتشم، صعدتْ إلى غرفتها وقصَّت إنشَين من سروال الكشَّافة الصغير الذي كانت ترتديه.

الفصل الثالث عشر

النموذج المثالي

بدا منزل البحيرة فارغًا لا حياة فيه دون وجود الآنسة لوفابل. فعندما كانت في المنزل، كانت تجوبه كإعصارٍ نشِط. كانت تصيح، وتعاتب، وتثير الغبار؛ لكنها أيضًا كانت تهوِّيه، وتنظفه وتُضفي عليه البهجة. ولأنَّ الآنسة لوفابل — صاحبة المنازل الثلاثة — كانت تعدُّ نفسها محظوظة؛ فقد كانت سعيدة، وبما أنَّ الآخرين يستفيدون مما تجود به رُوحها المرِحة؛ فإنهم يشاركونها حظَّها بشكلٍ غير مباشر.

وكان لديفيد وسكوتي ردُّ فعلٍ على هذا الركود الذي أصاب المنزل. إذ أصبحا متقلِّبَي المزاج، ومن الصعب إرضاؤهما فيما يتعلق بطعامهما، فقط لإظهار أنهما يعترضان على ولاية إلسي. وليزيدا الأمور عليها سوءًا، اكتسبا عادةً مزعجةً تتمثَّل في الاستلقاء على سرير الآنسة لوفابل والنوح مثل المؤبِّنين في الجنازات. كانا يقومان بهذا العرض لأجلها؛ لأنهما كانا يتسللان مبتعدَين نحو الحديقة ويمرحان بصخبٍ فورَ غياب المراقبة عنهما.

وكانت إلسي تشتاق إلى الآنسة لوفابل من الصباح وحتى الليل، فضلًا عن تلك الساعات التي تستيقظ فيها لتتذكر أن سيدتها لم تكن تنام تحت السقف نفسه. وقد وجدت نفسها تتسمَّع باستمرار لصوت خطواتها الصارمة وضحكتها الصاخبة. وفي الرسائل اليومية التي كانت ترسلها إليها، كانت تحرص على كبْتِ ملاحظاتها الشخصية.

انتهجت هذه الرسائل صيغةً معينة. كانت تتحدث عن الطقس، والأخبار، والوجبات، والعمل وتقرير الآنسة بِيت عن صحة الحيوانات الأليفة. وكان ديفيد وسكوتي يمثلان بندَ المفاجآت بتصرفاتهما، في حين كانت مساهمات إلسي في الخطاب تتمثل في التحذير والتنبيه.

ويجب الإقرار بأن الآنسة لوفابل لم تلعب اللعبة بشكلٍ صحيح مع إلسي. فلو كانت حرَّة تمامًا، ربما كانت ستحقِّق بعض الاستفادة من العطلة. إذ تسببت موجة حَر أخيرة

في جعلها تتوق إلى ارتداء ملابس السباحة والاستلقاء تحت الشمس في خصوصية الحديقة الخلفية. فإذا كانت جميع الأعمال قد أُنجِزَت، فليس هناك من سبب يمنعها من الاسترخاء والراحة، باستثناء أنها كانت تحتاج إلى الاستعداد لزيارات مجموعة الأمن الأهلية.

بعد أن تأكدت إلسي من أن أي انحراف عن معايير السيدة لوفابل العالية ستُبلَّغ عنه، كانت تغيِّر يوميًّا فستانها القطني الأرجواني الصباحي إلى زِيها النظامي المسائي المصنوع من صوف الألبكة الرمادي. ولم يحدث أن وجدها أيٌّ من زوَّارها غير مستعدَّة، أو تفتقر إلى الاحترام، رغم أنهم كانوا حريصين ألَّا يأتوا في وقتٍ محدد — وفقًا للتقاليد المحلية.

وقد انتهكت الآنسة بِيت قواعد اللياقة بدخول المنزل مباشرةً بعد أن ضغطت على الجرس. وأزعجت إلسي أكثرَ بتوجيه حديثها إلى الحيوانات الأليفة وكأنها غير موجودة.

فكانت تسأل: «ماذا تناولت على العشاء اليوم يا سكوتي؟»

وعندما قدَّمت إلسي الجواب لها، كانت تصرُّ دائمًا على لمس ديفيد وتحسسه؛ لمعرفة إن كان يُفرِط في الأكل. كان هذا الأمر يمثِّل إهانةً مباشرة لإلسي، التي كانت تضطلع بضبط النظام الغذائي، لا للآنسة لوفابل؛ ومع ذلك، نجحتْ إلسي في التزام الصمت.

كان هناك سبب لِمَا تحلَّت به من دبلوماسية. إذ إنَّ تعاوُن الآنسة بِيت سيكون ضروريًّا، في حالة ذهابها إلى لندن في الثالث عشر من سبتمبر، لتفاجئ سيدتها في منزل لندن.

لكن، كان من الصعب السيطرة على استيائها عندما نهب الكابتن براون الحديقة. وقد أخذت تملأ كلَّ وعاء للزينة وكلَّ مزهرية بالمنزل؛ من أجل تخفيف المئونة على ساكنيه، على الرغم من أن هذا الأمر ألقى على عاتقها عملًا إضافيًّا.

وقد سألها، عندما سبقته وبادرت بقصِّ زهور الأقحوان الأولى التي كان قد خصَّصها لحفل عشاء زوجته: «ماذا تريدين من هذه الزهور كلِّها في حين أن سيدتكِ خارج المنزل؟».

فأوضحتْ: «إنها لديفيد. إنه يحبُّ أن يستخرجها من الماء.»

«لماذا إذَن لا تعطيه زهورًا ذابلة؟»

«كلَّا، فهو يحبُّ أن تكون الزهور كبيرةً وملونة.»

ابتسم الكابتن بتكشيرة، وقال: «الطبيعة البشرية»؛ فكان هذا تعليقًا أساء إلى حِس اللياقة لدى إلسي.

وعلى الرغم من أنها كانت تخشى زوجة القسِّ وتبجلها أكثر، فإنها كانت دائمًا تقف وتشاهدها عندما كانت تقطع الكرنب وتقطف الفاصوليا؛ من أجل تسجيل مدخلات مجهولة في دفتر الملاحظات.

وقد أوضحتْ ذلك بقولها: «سترغب سيدتي في أن تعرف مدى إسهامها في مساعدة الأبرشية والمستشفى الريفي.»

قالت السيدة بوسانكيه بسخرية: «هراء. يمكنكِ أن تُحصي التفاح، لكنكِ لا تستطيعين وزنَ الفاصوليا دون ميزان.»

ألمحتْ إلسي في تجهُّم: «أتحقق من الحديقة قبل العمل وبعده. أنا أعرف كلَّ شيء في الحديقة. لو أن ورقة عشب واحدة فُقِدَت لعرفتُ إذا ... إذا سرقها البستاني.»

«شكرًا لكِ يا إلسي. من الجميل أن نعرف أنكِ لا تشكِّين فينا. سيدتكِ محظوظة لأنَّ لديها هذا النموذج المثالي.»

عندما غادرت زوجة القس، بحثت إلسي عن الكلمة في القاموس. لكنها كانت ستشعر بامتنانٍ أقل تجاه هذا المديح لو عرفت أن أصدقاء الآنسة لوفابل ما كانوا ليقبلوا بها كهدية، رغم أنهم يطلقون عليها لقب «النموذج المثالي». إذ كانوا يعتبرونها مُدلَّلة بشكل ميئوس منه ومناسِبة فقط لأداء الخدمات المتخصصة، حيث كانت سيدتها تقوم بكل العمل الشاقِّ.

وفي الوقت نفسه، كان هؤلاء أحيانًا يغارون من ولاء إلسي؛ وذلك لأنَّ الطُّهاة والخادمات كانوا يتركونهم مقابل أجور أعلى، بعد أن يكونوا قد تدربوا على أيديهم. من بين السيدات المحليات، كانت الآنسة لوفابل هي وحدها التي لا تعرف شيئًا عن أسعار الإعلانات الصغيرة أو رسوم مكتب التسجيل.

ومؤخرًا، اتخذ تفاني إلسي منحًى غير عادي. إذ اعتادت كل يوم عبور الطريق أمام سيارة قادمة. وعلى الرغم من أنها كانت تعبُر الطريق على نحوٍ خطير، فقد كانت ماهرة بما يكفي لأنْ تقفز نحو برِّ الأمان؛ ولكنها كانت سببًا في إلهام السائقين العصبيين كثيرًا من الألفاظ البذيئة، والتسبب في العديد من الصدمات لهم.

لم يعرف أحدٌ أن هذا الأمر هو التكملة البديهية لصلاتها الليلية: «إن تحتَّم أن يقع حادث، فدعْه يحدث لي أنا بدلًا منها.»

واستنادًا إلى مبدأ «السلامة أولًا»، واصلتْ إلسي إرسال إشعار يومي إلى جريندلوالد. وقد قرأت الآنسة لوفابل الملاحظة الخاصة بأحدث رسائلها على مسامع بكنجهام عندما كانا يقفان معًا في الشرفة، وينظران إلى أضواء محطة جبل إيجير.

«استمع إلى هذا. تقول إلسي: «من فضلكِ سيدتي، كوني حذرةً عندما تعبرين الطريق واحذري من تلك الانهيارات الثلجية البغيضة.»»

وتوقفت الآنسة لوفابل عن الضحك لتُضيف: «دائمًا ما تحذِّرني من شيء جديد. يجب ألَّا أتعرَّض لِلَسعات البعوض. يجب أن أغلي الماء قبل الاغتسال. يجب أن أرتدي أحذيةً ذات مسامير لتسلُّق الجبال.»

نصحها بكنجهام قائلًا: «من الأفضل ألَّا تذكري لها أسد لوتسيرن.»

وكبَحَ تثاؤبه في حين أن الآنسة لوفابل كانت تسرد أدلةً جديدة على تفاني إلسي.

«أعتقد جازمةً أنها مستعدةٌ للتضحية بحياتها لإنقاذ حياتي. هي لا تحب أن أكون وحدي في المنزل دون أن تكون موجودة لتحميني. والطريف في الأمر أنها يمكن أن ترعِب متشردًا يزن ضِعف وزنها.»

قال بكنجهام: «يجب أن يوجد رجلٌ في المكان.»

«لماذا؟»

«ليضطلع بالأعمال الشاقة.»

«أنا أتولى الأعمال الشاقة. أنا أحفر في الحديقة وأقطع الخشب. فهذا مفيد لقوامي.»

«حسنًا، وماذا عنكِ أنتِ نفسكِ؟ أنت تتعرضين للمخاطر. كنت تستضيفين شابًّا غريبًا في غرفة نومكِ عندما الْتقيتُ بكِ في لندن.»

صححت له الآنسة لوفابل، قائلةً: «بل في غرفة المعيشة. كان الشاب المسكين مثل الزهرة البائسة. ولا تنسَ أنك كنت شابًّا غريبًا في ذلك الوقت.»

كانت كلماتها اعترافًا غير واعٍ بنمو صداقتهما. وقد فقد صوت بكنجهام لهجته اللامبالية عندما طرح عليها سؤالًا.

«ماذا ستفعلين عندما تتزوج إلسي الوفية؟»

فأجابتْه الآنسة لوفابل: «لن تتزوج. وأنا أيضًا لن أتزوج. لذا نحن شريكتان مدى الحياة.»

زمَّتْ شفتيها في تصميم شديد، حتى إنه نظر إليها بدهشة.

وسألها: «هل أنتِ جادة؟»

أخبرته الآنسة لوفابل: «لم أكُن أكثر جديةً حول أي شيء من قبل. لماذا يجب أن أتزوج؟ لديَّ كل ما أريد. حياتي سعيدة تمامًا. لن أخاطر بالتغيير ... لماذا تنظر إليَّ؟»

ولَمَّا لم يردَّ، ألقتْ برأسها للخلف لا شعوريًّا وبسطتْ كتفَيها كما لو كانت تتحدَّى نظراته.

وقال وهو يضحك: «لقد خمَّنتِ السبب. كنتُ معجبًا بقوامكِ. إنه رائع وأنتِ تعرفين ذلك. لكنه يجعل التبايُن باعثًا على المزيد من الأسى. أي امرأة ترفض الزواج عمدًا يجب أن تكون غير طبيعية عقليًّا. أرى أن عقلكِ غريب كغرابة عِجلٍ ذي ثلاث أرجل».

ابتسمت الآنسة لوفابل بسخرية لتُظهِر له مدى ضآلة اهتمامها بانتقاده.

وعلَّقت: «لديك لمسةٌ رقيقة.»

ومع ذلك، أزعجتْها كلماته حتى إنها لم تستطِع إبعاد تأثيرها عن عقلها. ولو عرفتْ إلسي، ربما كانت ستُضيف خطرًا آخَر إلى قائمتها التي أعدَّتها، والتي تشمل كلَّ الظروف والحوادث التي تتميز بها منطقة الألب.

لكنها لم تكُن تشمل السيد كلارنس كلوب.

الفصل الرابع عشر

القتل عن بُعد

كان الثالث عشر من سبتمبر تاريخًا مهمًّا لكلارنس كلوب. قبل أن يحلَّ الليل، كان يعتزم قتل عدوه — هنري واتكينز. كانت الجريمة ستُرتكب عن بُعد؛ بادئ ذي بدء لأنَّ ضحيته لن تكون لديه أي فكرة عن أنه قد اقتُلِع من عالم الأحياء. سيستمر في التصرف كالمعتاد — غير مدرِك لمصيره — حتى تحيق الضربة، التي وُجِّهَت في الثالث عشر من سبتمبر، بهدفها المحدَّد.

بعبارة أخرى، اعتزم كلوب أن يرتكب جريمةَ قتل سيُعدَم واتكينز بسببها.

كانت الآنسة لوفابل قد الْتقت بكلوب بالفعل. أثناء لقائهما، كانت قد وافقت على عرضه أن يجرِّب مكنسةً كهربائية، لا وجود لها، على سجادةِ غرفة المعيشة الخاصة بها. في ذلك الوقت، كان قد خلَّف لديها انطباعًا يصبُّ في صالحه، لكنه لم يترك أثرًا كافيًا لأنْ تتذكره بوضوح.

تذكرت بشكلٍ غامض شابًّا لطيفًا ذا وجه بيضاوي، وعينين بُنيتين ناعمتين، وفم صغير على شكل قلب. كان مظهره ينمُّ عن تهذيب ونُبل، وكانت لهجته توحي بأنه تلقى تعليمه في مدرسةٍ عمومية؛ حيث كان تنكُّره مثاليًّا على نحو غريزي، مثل العثة التي لا تُرى أمام لحاء الشجرة.

بدوره، لم يكن يفكر فيها كثيرًا. كان شاغله الرئيسي هو تحديد ظروفها ومحيطها. لو أنه كان قد الْتقى بها في الشارع بعد عشرين دقيقة من لقائهما كان سيمرُّ بجوارها دون أن يتعرف عليها. لم تكن تمثِّل له أكثر من مجرد دعامة من دعاماته المسرحية؛ شيء رخيص عديم الجدوى، كنشارة الخشب أو صوت صفير؛ كانت مثل الدمية جودي، التي كان هدف وجودها أن تتعرض للضرب على يد الدمية بانش.

كان كلٌّ من واتكينز وكلوب قد انجرفا إلى حياة الجريمة. كان واتكينز يملك متجرًا صغيرًا للتُّحف، لكن مبادئه كانت خبيثة؛ فبعد أن اكتشف أن التُّحف المزيفة تجلب له أرباحًا أكثر من التحف الأصلية، تخصَّص في الاحتيال.

وأما كلوب — الذي كان يعتبر نفسه عبقريًّا متمردًا — فكان «منحوسًا»، في مجموعة متنوعة من الوظائف، على الرغم من أن ربَّ عمله كان دائمًا أكثر نحسًا. في البداية كان يعمل مدوزن بيانوهات عندما الْتَقى بواتكينز أول مرة. ورغم أن أداءه الموسيقي كان مملًّا بما فيه الكفاية حتى يفرِّق عنه الجمهور؛ فإنه كان يستطيع تبيُّن جغرافية البيوت التي يزورها وتمييزها، إضافةً إلى اكتساب معرفةٍ بأي أشياء قيِّمة قابلة للنقل.

وقد شكَّل هو وواتكينز شراكةً مفيدة بطريقة معتدلة. فكان واتكينز يُصَرِّف الغنائم التي كان يجمعها: إما في الموقع على الفور، وإما خلال زيارة ليلية لاحقة لمقر عملائه. صحيح أنهما لم يكونا ناجحين دائمًا؛ لأن كليهما كانا يُدانان بين الحين والحين ويُحبسان لفترات قصيرة بسبب النشل والسرقات البسيطة.

لكن للأسف، كانت المعرفة بأنه مسجَّل في قسم الشرطة هي التي دفعت كلوب للمضي قُدمًا في مهنته. إذ ألهب هذا غروره وجعله يدرك إمكانيات اسمه: كلوب. وبينما كان يطمح إلى أن يُعرَف بـ «الآص»؛ خطَّط لعملية جريئة لسرقة مجوهرات، وطلب خدمات واتكينز ليكون شريكًا له فيها.

كان حظهما عاثرًا في مشروعهما حيث كانا يفتقران إلى التنظيم وكذلك الخبرة. ولمَّا كان واتكينز عاجزًا عن التصرف في المجوهرات ويعي أدلة الإدانة جيدًا؛ انهار تحت الضغط. وبدلًا من انتظار أن يُلقى القبض عليه، وهو الأمر الذي لا مفرَّ منه، ذهب إلى الشرطة وتعاون معهم سرًّا، على أمل الحصول على عقوبة مخفَّفة.

وكان كلوب معميًّا بغروره، ولم يكن لديه شكوك في نجاح السرقة نجاحًا كاملًا. فغضب من انفضاح الأمر وأخطأ بأن قاوم الشرطة؛ وحين نقول «قاوم» فهي طريقة لطيفة للتعبير عما حدث، وذلك بالنظر إلى ما بدا عليه الشرطي في نهاية المطاف. ولحسن حظ كلوب، تعافى الشرطي فأنقذه ذلك من حبل المشنقة؛ ولكن هذه المرة، كانت عقوبته بالسنوات وليس بالأشهُر.

ولمَّا كان كلوب يعدُّ نفسه ذا مهارة فائقة، كان يكره العمل الشاق أكثر حتى من كُرهه لفقدانه حريته. فكان يعزو كلَّ إذلال يلقاه إلى خيانة شريكه له. وبمرور السنوات فقَدَ كل إحساس بحسن التقدير وأي قدرة على ضبط نفسه؛ ومن طول تفكيره في الأمر، أصبح كرهه موجهًا نحو غاية واحدة فقط.

قرَّر أن يقتل هنري واتكينز.

توقف الزمن عن المرور ببطء وهو يخطط للجريمة الكاملة. وكان قد حسم أمره بشأن نقطة هامة؛ ينبغي أن تكون الجريمة محكمة، لأنه لا يريد أن يُشنَق جزاء جريمته. وعلى الرغم من أنه أتى ببضع أفكار ذكية ومبتكرة؛ فقد ثَبَّطَه استنتاج بديهي توصَّل إليه.

سيكون هو المشتبَه به الأول في الجريمة؛ لأنه صاح يهدِّد واتكينز من قفص الاتهام حين نطق القاضي بالحكم عليه.

كان يمكن لإبدائه هذا الشعور الطبيعي أن يُفسَّر كدافع إذا ما تزامن موت واتكينز العنيف مع خروجه من السجن.

ثم سرعان ما أتاه الإلهام. سيورِّط واتكينز في جريمة قتل يرتكبها هو وسيجعل القانون نائبًا عنه في الثأر منه.

كان كلوب يرى أن الطاقات الذهنية للشرطة دائمًا ما تكون أعلى من طاقته؛ لأنهم دائمًا ما يكونون أسبق إليه منه في الهرب منهم. وكان قد سمع من قبل أن الشرطة تعرف أساليب كل المجرمين وتستطيع تحديدها، وهكذا فإذا زرع أدلة تشير إلى واتكينز فسيتعرفون على أسلوبه المميز.

ينبغي ألَّا يكون مسرح الجريمة مليئًا بالأدلة حتى لا يساورهم الشك. كان عليه أن يثق تمامًا في فطنتهم وبُعدِ نظرهم. إذ سيستطيعون التعرف على شقٍّ صغير في قماش لوحةٍ زيتية، في غرفة صالون الآنسة لوفابل، وكأنَّ أحدهم كان على وشك أن يُزيل هذه اللوحة قبل أن يدرك أنها عديمة القيمة.

هذا هو أحد الأدلة التي تشير إلى تاجر تُحف يُزَيِّف أعمال الفنانين العِظام القدامى.

أما الإشارة الثانية فلا يمكن اكتشافها إلا بفحص دقيق للأوراق التي في مكتب الضحية. سيكون هناك كتالوج مكنسة كهربائية وسط كومة من الأوراق المتنوعة، وسيتزين غلاف هذا الكتالوج ببصمةِ إصبع متسخة.

ستجد الشرطة أن هذه البصمة تتطابق مع بصمةٍ يحتفظون بها في مجموعتهم.

أما المرحلة المنطقية التالية في تحقيقات الشرطة فستكون التركيز على تحركات واتكينز وقت وقوع الجريمة. وسيعطي الشرطة حجة غياب صادقة مفادها أنه كان بصحبة صديقته آيمي.

هنا سيشعر واتكينز بأول وخزةٍ لحبل المشنقة حول رقبته … كانت آيمي لا تزال واقعةً في غرام حبيبها السابق، كلوب، ولن تُنكِر حجة غياب واتكينز فحسب، بل ستأتي

بحلية أُخِذَت من جثة القتيلة دليلًا على أنها قد تلقَّت رشوة من أجل أن تكذب. وقد خصص كلوب لهذه النقطة السلسلة المُعلَّق بها قلادة على شكل فيل ذهبي، التي كانت الآنسة لوفابل ترتديها أثناء مقابلتهما. كان كلوب يعوِّل على طبيعتها التي تؤمن بالخرافات في أنها سترتديها دائمًا حول عنقها لجلب حسن الحظ، لأن خرطوم الفيل كان مرفوعًا للأعلى.

وستتمثل اللمسة الفنية الأبرز في تحديد هوية صاحبة السلسلة من خلال شعرة ممزَّقة من شعر الآنسة لوفابل ملفوفة حول السلسلة. وكان قد أمَّن الحصول على هذه الشعرة من مشطٍ كان على طاولة المرحاض حين دخل ليختبئ في غرفة النوم.

كما ظنَّت الآنسة لوفابل، تظاهر كلوب فقط بأنه أغلق الباب الأمامي بينما كانت تتحدث إلى بكنجهام في حجرة الجلوس الصباحية. بعد ذلك، حين أصبحت وحدها في المنزل معه، أدرك فجأةً أن الفرصة متاحة أمامه لارتكاب الجريمة من دون أن ينتظر حلول الليل. لكن بينما كان يتسلل نزولًا على الدرَج، بدا أن شيئًا ما أفزعها؛ لأنها هرعت فجأةً إلى خارج المنزل.

وقد سعِد كلوب أنه حُرِم من الاستسلام لدوافعه حين تذكَّر أن واتكينز قد يأتي بحجةِ غياب قوية لا يمكن دحضها لفترةِ ما بعد الظهيرة. وقد نبَّهه هذا الأمر إلى خطورة ارتكاب الجريمة قبل أوانها، ولذلك عاد إلى شقته واتصل بآيمي يطلب منها أن تستميل واتكينز تلك الليلة.

ثم ذهب إلى المنزل رقم «١٩» بمنطقةماديرا كريسنت ليجده خاويًا. كانت الآنسة لوفابل قد عادت إلى الريف.

ولما تأمَّل في أمر انتقامه، لم يستطع أن يرى أي احتمال لأنْ يكون مرتبطًا بجريمةٍ لا دافع لها. وقد قرَّر أنه سيعترف بأنه لا يملك حجةً إذا ما تم توجيه الأسئلة إليه. فمؤخرًا، تبدو الشرطة أكثر ميلًا للشك في حجج الغياب المثالية بنفس درجة ميلها إلى أن تضعف ثقتها في قيمة بصمات الأصابع، وذلك بعد أن عرفت أنَّ المجرمين باتوا يرتدون القفازات.

أعماه غروره عن حقيقةِ أن سلامته الشخصية مجرد وهم. فبمجرد أن يرتكب الجريمة، سيُصبح عُرضةً لهجمات الصدف والأقدار التي تتسم بالتخبط. سيصبح تحت رحمة أي شيء، ولو كان تافهًا، يتحكم في تعطيل القدَر عن العمل. فأيُّ حادثة — كقطع صغير في غشاء منطاد — يمكن أن ترسله إلى حبل المشنقة.

وقد تتغير اتجاهات الرياح وهو جاثم في الظلام فتهب ورقة تشي بمكان اختبائه. وقد يشهد العشاق المختبئون في ظلمة أزقة التجار أنهم رأوه بالقرب من مسرح الجريمة. وقد تخذله آيمي تحت وطأة الظرف.

لكنْ أيًّا كان مصيره، تظلُّ هناك حقيقةُ أنَّ أي سيدة ستدلف إلى المنزل رقم «١٩» بمنطقة ماديرا كريسنت يوم الثالث عشر من سبتمبر من دون رفقة معها ستتلقى استقبالًا غير سار تمامًا.

الفصل الخامس عشر

جبال

بينما أخذ يوم الثالث عشر من سبتمبر يقترب، زاد لدى الآنسة لوفابل إدراك غير واضح بإحساسها بالإحباط والفقد. وحين رأت سلاسل الجبال البيضاء الشاهقة، بدأت تحلم ثانيةً بالجبال أثناء الليل. أثناء نومها، كانت تتسلق قممًا هائلة الارتفاع ببهجةٍ وإحساس بالحرية والإنجاز، حتى إنها دائمًا ما كانت تستيقظ على إحساس مرير بخيبة الأمل.

كانت نشوة التحرر الليلية هذه من أعراض العقل الفوضوي. فعلى الرغم من أنها كانت تستطيع كتابة رسالة واضحة لأغراض تجارية أو عملية، فإنها كانت تقف عاجزةً عن التعبير عندما تُثار في داخلها أيُّ عاطفة عميقة. وبينما تقف الدموع في عينيها عند إدراكها لحزن الآخرين، كانت تلتمس من المنكوب أن «اقبلْ تعازيَّ في مصابِك».

كانت الجبال تمثل لها بهجة — بل شغفًا — تكاد ترقى إلى الافتتان. لكنها لم تكن تتحدث عنها أبدًا وكانت تتجنب الموضوع. لم تكن تفكر بوعي فيها حتى؛ خوفًا من أن تُثقِل أوزارُ الكلمات غير المنطوقة روحها.

طاردتها جبال أوبيرلاند البيرنية الأقل روعةً في النهار، ولكنها لم تستطع الاقتراب منها. نظرت إليها ولكنها شكَّت في أنها تراها فعليًّا، بسبب المشتتات المتمثلة في الناس الآخرين. كان كل ما حولها ضجيج توافه الأنشطة الاجتماعية؛ أصوات الثرثرة والضحك الأجوف.

ومع مرور الأيام، كانت تعزي نفسها بوعد. أقسمت الآنسة لوفابل أنها ستهرب من رفاقها وتذهب بمفردها إلى ممرِّ كلاينة شايديج الجبلي.

كان جزء من شعورها بعدم الراحة يعود لمصدر أساسي أكثر من تلهفها وحنينها إلى الجماليات. فللمرة الأولى في حياتها، كانت لوفابل واعية بوجود امرأة أخرى. لم يكن هناك شك في تفوق فيفا في الفندق. إذ لم تعتمد فقط على جاذبيتها لكسب شعبيتها ولكنها

كانت دائمًا لطيفة ومتعاطفة مع الضيوف الآخرين. ومع ذلك، وبينما كانت على استعداد للاستماع إلى مشاكل الخدَم بقدْر استعدادها لتقديم النصائح بشأن إصابة الأنف بحرق الجلد وتقشُّره، تمكنت من البقاء مبهمة ومنعزلة عن الآخرين.

أثار هذا التباين استياء الآنسة لوفابل، خاصة عندما لاحظت أن فيفا كانت نفعيَّة بامتياز وتمكنت من تجنب مضاعفات التواصل مع الزوار دون التعرف عليهم أكثر. وتدريجيًّا، بدأت تشعر بانبعاث روح التنافس. ورغم أن شخصيتها كانت كريمة ولطيفة بطبيعتها، مما جعل من الصعب عليها أن تعترف بمشاعر الغيرة، فإنها اعتادت أن تكون صاحبة المقام الأول ولم تكن تستسيغ المقعد الخلفي.

فكَّرت لوفابل في نفسها: «لم يكُن هناك منافسة في هايفيلد. لا يوجد هناك سوى نساء أكبر مني سنًّا. ولكنْ قبل أن أرحل، سأريها بالضبط مقامها.»

وقد فوجئتْ عندما اكتشفتْ أن أوليفيا فورس تشاركها ارتيابها اللاواعي في فيفا. إذ ذهبتا في نزهة معًا إلى فندق بير لمشاهدة حفلٍ راقص، وذلك عندما شاهدتا أمرًا لطيفًا. فجأةً أدركت فيفا، التي كانت ترقص في أحضان شاب تيوتوني جميل، أن هناك فتاة لا يراقصها أحد.

وفي غضون بضع دقائق، تدبَّرت أمر انتقال شريكها المتردد إلى الفتاة الوحيدة، قبل أن ينتهز الفرصة شابٌّ آخر كان يحوم حولها.

أقرَّت الآنسة لوفابل، قائلةً بصدق: «كم هذا لطيف!»

فقالت أوليفيا بمرارة: «لطيف للغاية. كنتُ أنا الضحية ليلة أمس. لم يلاحظ أحد أنني لا أرقص حتى سُلِّطَت عليَّ أضواء البحث. ثم قال الجميع: «كم هذا لطيف.» كنتُ قبلئذٍ سعيدة. فأنا أستمتع بكوني متفرجة.»

حدَّة صوت أوليفيا جعلَت الآنسة لوفابل تدرك مدى الإذلال فيما حدث لها. فباعتبارها ابنةً غير جذَّابة لأم كانت ناجحةً اجتماعيًّا، اكتسبت الفتاة طريقتها العدوانية لإخفاء عقدة الدونية لديها. فشعرت لوفابل برابطة تعاطف معها عندما واصلت أوليفيا الحديث.

«جعلتني فيفا أتساءل. ثمة شيء غريب بشأنها. تظنها أمي رائعة. ولكن لماذا هي مهتمة جدًّا بجميع أصدقائنا وبكل شخص أيًّا كان؟ أعتقد أن لها مأرَبًا ومصلحة. يمكن للمرء معرفة ذلك من عينَيها، فهي لا تهتم حقًّا بأحد. ربما أرسلتْها شركة ما للإعلان لها عن ملابسها.»

قالت الآنسة لوفابل لأوليفيا: «لكنها لا تذكر أبدًا من أين تشتري أي شيء. إضافةً إلى أنها تُوليني اهتمامًا خاصًّا، مع أنني لست من المجتمع الراقي.»

«هذا فقط لأن بحوزتكِ بكنجهام. هناك عدد قليل جدًّا من الرجال العُزْب هنا.»

أزعجت هذه الملاحظة الآنسة لوفابل. لقد اعتادت طَوال أعوامٍ إصدار الأوامر وعدم تقبل النصائح حتى. من الطبيعي أن يولِّد هذا النوع من المعاملة التفضيلية شيئًا من التسلط. فبينما كانت تحاول تجاهُل وجود فيفا، جاءتها فرصة لتفرض نفسها.

انضمت الآنسة لوفابل إلى السيدة فورس وأوليفيا وفيفا وبكنجهام في رحلةٍ بعد الظهر. انطلقوا بالسيارة إلى وادي إنترلاكن وانعطفوا حول بحيرة برينز بمياهها الخضراء إلى شلالات جيسباخ. وبينما كانوا يحتسون الشاي أمام الفندق، ويشاهدون النهر وهو ينحدر في سبع قفزات عظيمة من أعلى الجبل، لوَّح بكنجهام بيده من فوق الطاولة.

وقال: «هذا على حسابي.»

وفي وقتٍ لاحق، بعد عودتهم إلى الفندق، سألت الآنسة لوفابل عن ثمَن حصتها من أجرة السيارة.

قالت فيفا بابتهاج: «لا شيء. لقد تكفَّل ريتشارد بالأمر.»

أوضحت الآنسة لوفابل: «كان يقصد الشاي فقط.»

«لكننا جميعًا شكرناه، وقد راقه ذلك. من الأفضل ترك الأمر على هذا النحو. لا ينبغي أن نجعل الرجل يشعر بالحمق.»

«سأجازف.»

كانت الآنسة لوفابل في وضعٍ تجيد التعامل معه وتستمتع به وهي تستجوب الحمَّال. عرفتْ أن بكنجهام عاطل عن العمل وتوقَّعت أن حالته الاقتصادية ستتأثر بسبب نفقات غير متوقعة. وبما أن فاتورة استئجار السيارة لم تكُن قد دُفِعَت بعدُ؛ فقد دفعتْها بنفسها قبل أن تواجه النساء الأخريات بشأن حصتهن من الفاتورة.

قالت لهن: «أنا أطالبكن بحصصكن من إيجار السيارة. من الصعب على الرجل جمعها منا.»

دفعت السيدة فورس دَينها ودَين ابنتها بسحرها المعتاد. وحذَت فيفا حذوها، لكنها فعلتْ ذلك بتردد مبطَّن، كان بمنزلة تعزيز لاحترام الآنسة لوفابل لنفسها. وعندما ذهبت تبحث عن بكنجهام، شعرتْ بغريزة بدائية نحوه، تشبه بشكل ضعيف الرغبة الأولية لوحش من وحوش الغابة في حماية شريكه.

وجدته في الحديقة حيث كان يدخن متجهِّم الوجه. لم يتحدث إليها ولكنه حملق عندما وضعت حزمةً من الأوراق النقدية على الطاولة الخشبية.

وقالت: «شكرًا على الشاي.»

ولما رأت في وجهه شعورًا صريحًا بالراحة زادت جرأتها لطرح سؤالٍ غير لبِق.

«مُعسِر؟»

فأجابها: «بل أنا واعٍ تمامًا.»

«أقصد هل أنت في ضائقة مالية، بما أنك لا تستطيع فهم الكلمات القصيرة؟»

فأقرَّ يقول: «أنا موسر الآن، ولكن فقط بفضلكِ. قبل أن تدخلي مرفرفةً بجناحَيكِ من نافذتي الآن، كنت أتساءل كيف سأتدبر أمر رحلة العودة إلى الديار. فأنا سأغادر قبل بقيتكم.»

شعرت بنوبةٍ من الأسف لَمَّا سمعت ذلك، بينما جلست بجانبه على المقعد.

وسألتْه بصراحة: «لماذا أتيتَ في عطلة لا تستطيع تحمُّل تكاليفها؟»

فأخبرها: «بسببكِ أنتِ.»

«أنت أحمق.»

«أنا جاد. لقد وقعتُ في حبكِ على الفور. أنا لست نبيلًا وأحببتكِ أكثر لأنكِ تملكين المال. فهذا أمر مفيد. أنا كيميائي لديه مستقبل مشرق، لكن لا أحد سيدعمني.»

تحوَّل لون عين الآنسة لوفابل من الأزرق إلى البنفسجي وهي تستمع له. لم تكن الطفرة الشعورية البدائية الخاصة بالأدغال، والتي انتابتها، إلا شرارة لحظية أتت من نار أصبحت شبه مطفأة. وقد حلَّ محلها شكل أكثر تحضرًا من الغريزة ذاتها؛ طموح امرأة للسيطرة على المستقبل المرن والطيِّع لرجل.

أخمدت الآنسة لوفابل تلك الرغبة الخطيرة وتحدثتْ برفق.

«ستحظى بفرصتك. الجميع يحظى بفرصة. لا بد أن تتزوج امرأةً ثرية لا تكبلها عقلية مثل عقليتي الغريبة.»

فرفع بكنجهام نظره إليها بسرعة.

وسأل: «هل كنتِ جادة بشأن عدم رغبتكِ في الزواج؟»

فأجابته: «كنت كذلك. وما زلت. وسأظل دومًا غير راغبة في الزواج.»

«إذَن ليس من حقكِ أن تكوني على حالكِ هذه. هذا غِش.»

تمنَّت الآنسة لوفابل لو أنه كان بوسع فيفا أن تسمعه، وكان هذا دليلًا على أنها هدأت وعادت إلى طبيعتها العملية المعتادة.

قالت الآنسة لوفابل: «يؤسفني أنك سترحل، لأنني كنت أريد منك أن تساعدني.»

وحين باحت له برغبتها في القيام برحلةٍ فردية على جبل كلاينة شايديج، أومأ لها بالموافقة.

وقال: «سيتعيَّن أن يكون هذا غدًا. فالسيدة فورس وابنتها ستزوران أقارب لهما في بِرن. وسأزيِّن أنا لفيفا فكرة الذهاب إلى قرية لوتيربرونين. وسأرافقها حتى تسفايلوتشنين ثم سأخبرها أن لي حاجة أقضيها في إنترلاكن.»

تلعثمَت الآنسة لوفابل وهي تقول: «لا يسعني أن أوفيك حقَّك من الشكر. هذا يعني لي الكثير. لا ... لا يسعني أن أشرح لك.»

وبينما كانت تنظر إلى امتداد الوادي الشاسع المرصَّعة منحدراته البعيدة بأضواءٍ صغيرة، شعرت بأن الليل قد اقترب كثيرًا منهما. كان الليل يحلُّ عليهما في أمواج من الظلام — ويكتسح المكان من حولهما — لكنها لم تشعر بخوف. كانت تعرف أن بإمكانها أن تنزل الوادي دون رعدة، فتعبُر نهر لوتسكين ذا الزبَد الرمادي والأبيض، وتتجول وسط الأخشاب الساحرة للأشجار المتلألئة وبَقْبقة المياه.

ومع ذلك، في صباحٍ صيفي شمسُه مشرقة، كانت قد تملَّصت من الدخول إلى الردهة المظلمة للمنزل رقم «١٩» بمنطقة ماديرا كريسنت خشية أن يكون أحدهم في انتظارها هناك.

وبينما هي ترتجف لما تذكَّرت، كسر بكنجهام الصمت بينهما.

فقال: «لقد أخبرتِني أنكِ تفكرين في قطعِ رحلتك في لندن، في طريق عودتك، صحيح؟»

فأجابتْه: «أجل.»

«حسنًا، ماذا لو انتظرتِ قطاركِ ورافقتُكِ؟ من الكآبة أن تعودي إلى منزلٍ خاوٍ.»

«أودُّ أن تفعل ذلك.»

بهذه الكلمات الأربع، أفسدَت الآنسة لوفابل خطة كلارنس كلوب المثالية لارتكاب جريمة القتل.

الفصل السادس عشر

كلاينة شايديج

لم يكُن لدى أحد في الفندق ما يدعو إلى الشك في أن الآنسة لوفابل تكِنُّ شغفًا خاصًّا نحو الجبال. إذ نادرًا ما بدا عليها أنها تلاحظ وجودها إلا في الصور على بطاقات البريد، وذلك حين كانت تأخذ على عاتقها مناقشة أسعارها. وحين كان الناس يطلبون منها المعلومات، كانت تنطق بأسمائها بسرعة وكأنها فِرقةٌ من الكلاب المدرَّبة.

«إيجير، فيشيرهورن، فيترهورن ...»

من نطقها لأسمائها، كان المرء يتوقع أن يراها تنتصب على قوائمها العظيمة ممتثلة للأمر الصوتي.

لذا كان من المستحيل أن يخمِّن أحدهم أن كل يوم يمرُّ من إجازتها هو بمنزلة درجةٍ من درجات سُلَّم يؤدِّي إلى الدرَّة المنشودة في تاج رحلتها والتي ستصل إليها بالسكك الحديدية الجبلية: قمَّة يونجفراويوخ. كانت في انتظار تلك اللحظة المهيبة حين كانت تبرز أمام عينَيها، من كلاينة شايديج، تلك القمم العظيمة الثلاث: إيجير، ومونش، ويونجفراو.

في الصباح التالي لمساعدتها لبكنجهام، أوفى بوعده وتولَّى أمر رعايتها. فعندما غادرت عائلة فورس إلى بيرن، غادرت فيفا الفندق برفقة بكنجهام، مرتديةً بنطالًا وكنزة بلون أزرق داكن، ووشاحًا بلون التفاح الأخضر. بعد قليل، بدأت الآنسة لوفابل رحلتها، فكانت في مظهرها الخارجي فتاةً شقراءَ مسفوعةً بالشمس ترتدي سروالًا قصيرًا ولا ترتدي قبعة، وتحمل غداءً مغلفًا؛ ولكنها، في داخلها، كانت مثل حاجٍّ متواضِع ومتحمس متَّجه إلى مكة.

كان صباحًا رائعًا بِنَسيمه وشمسه المشرِقة وغيومه البيضاء السيَّارة وسمائه الزرقاء الصافية. وقد انعكس الطقس على معنوياتها؛ فشعرتْ بالحياة تنبض في كل جزء من جسمها، شعرتْ أنها مشحونة بالطاقة ولكنها مستجيبةً عاطفيًّا ومتناغمة لأدنى تأثير.

أرادت أن تستوعب كل التفاصيل، أن تخزِّنها في ذاكرتها وتحتفظ بها للأبد، حتى مقعدها الخشبي الذي دفَّأته الشمس في عربة الدرجة الثالثة والوهم البصري المتمثِّل في المباني المائلة عندما ينزلق القطار على المنحدر.

عبَرَ القطار النهرَ الصغير الصاخب، وبدأ في الزحف صاعدًا المنحدَر، مرورًا بالمروج والأشجار الصنوبرية الداكنة، وصولًا إلى المنطقة الأكثر إقفارًا والتي تتكوَّن من: صخور كبيرة، ومجاري مياه جافة، وصنوبر سيمبرا الذي امتزج فيه اللونان الرمادي والأخضر. وعندما انعطف القطار المنعطَف الأخير، ورأت العمالقة الثلجية الثلاثة، استنشقت الآنسة لوفابل نفَسًا عميقًا. خرجت من العربة تتعثر وهي لا تزال تنظر إلى الجبال الثلاثة ووقفت تحدِّق نحو الأعلى، كأنَّ المنظر أذهلها.

في تلك اللحظة، شعرتْ بالدُّوار والارتباك، ولكنها في الوقت نفسه شعرتْ بالسمو والتبجيل. كان الدم ينبض في رأسها كالماء المندفِع. كان هناك شيء قوي وحيوي ينبض بداخلها، في صراعٍ من أجل الهروب. وقد بدا جزء منها وكأنه يحلِّق في الفضاء، حتى عندما كانت أحذيتها المُسَمَّرة السخيفة المتشبِّثة بالأرض تشبه المرساة التي تجرُّها لتعيدها إلى الأرض.

جفلت الآنسة لوفابل عند سماع صوتٍ متحذلِق.

«كم يشعر المرء بالضآلة. ما أروع المشهد وأبهاه!»

وافقَت الآنسة لوفابل قائلةً: «في غاية الجمال.»

نظرت السيدة التي ترتدي عدسةً واحدة، والتي كانت قد حدثتها، إلى وجهها المحمر.

وسألتها: «هل الارتفاع يؤثر على ضغط دمك؟»

أجابت الآنسة لوفابل بفخر: «كلَّا. بل سأذهب أعلى من هذا.»

وفي طريقها إلى قطار يونجفراويوخ، عادت طبيعيةً مرة أخرى. إذ أدركت أنها تشرع نحو مغامرةٍ مثيرة ليس إلا، وأنها لا تحمل أعباء التواجد مع رفقة. لكنها لم تكَد تستقر في عربتها حتى توقفت العربة. وبعد صعود التل، غاصوا إلى نفقٍ قصير وخرجوا بالقرب من الكتل الجليدية الهائلة للسلسلة الجبلية.

وخلال التوقف في محطة إيجير جلاسير، لم تستكشف الكهف الجليدي، بل بقيتْ في الشمس في شرفة الفندق الصغير. وبينما كانت تتلكأ، كان هناك صوتٌ كقصف الرعد، ورأت كتلةً ضخمة من الجليد تنفصل عن كتلة جليدية تتدلى من جبل يونجفراو، والتي سقطتْ بعيدًا أدنى هاويةِ وادي ترومليتن. كان الانهيار مروعًا لدرجة أنها كادت تكون سعيدةً بالعودة إلى أمان عربة القطار.

واستغرق الأمر أكثر من ربع ساعة ليقطعوا النفق الذي يبلغ طوله خمسة أميال. وبعد فترة، بدأت تشعر بالملل من التحديق في الجدران الحجرية الجيرية الصلبة، وبدأت تطالع الركَّاب الآخرين. كانت تحاول تجميعَهم في مجموعات بناءً على جنسياتهم المختلفة، عندما لفَتَ انتباهها زوجان بدا وجهاهما مألوفَين.

كان الرجل ذا بشرة داكنة، وقامة قصيرة وتعبيرات وجهه تنمُّ عن المكر. وكانت ترافقه سيدة ترتدي ملابسَ باهظة الثمَن وغير مناسبة، بلون أسود، ومزيَّنة بفراء قِرد. وعندما لاحظت الآنسة لوفابل الأنف الطويل المعقوف قليلًا الذي يشوِّه وجهها الجميل، تذكرتْ أين رأتْهما من قبل.

فكَّرت لوفابل: «محطة فيكتوريا. يبدوان مجرمَين. من النوع الواثق من نفسه. ماذا يفعلان هنا؟ لن يفيدهما أن يطلبا مني أن أشير لهما إلى جبل يونجفراو. فنحن جميعًا نعرف أيَّ الثلاثة هو.»

وفي أثناء استمتاعها بطرفتها السخيفة تلك، خرجتْ من العربة في محطة إيجيرواند وتقدَّمَت؛ ليتسنَّى لها الحصول على منظر أفضل، من أحد النوافذ العالية المطلة على جريندلوالد أدنى الوادي. كان الجو صافيًا هذا اليوم، حيث كانت تستطيع أن ترى ما وراء جبال سويسرا الوسطى إلى سلاسل جبال جورا، حين كانت الغابة السوداء ظاهرةً في الأفق.

وبينما كانت تنظر من خلال المنظار، لم تكن تدري أنها هي نفسها تحت المراقبة.

سأل الرجل الصغير داكن البشرة: «هل رأيتِ تلك الشقراء من قبل؟»

أجابت زوجتُه: «في محطة فيكتوريا. كان الآص يتعقبها.»

كان كلارنس كلوب ليشعر بالفخر لو سمع لقبه هذا. كانت الإشارة إليه بهذا اللقب تقريرًا منهم باستحسانهم لَمَا أصاب الشرطي؛ والذي كان قد أدَّى وصفٌ مطبوع له إلى إدخال السرور والبهجة السادية على أصاغر مَن يمتهنون هذه المهنة.

قال الرجل بازدراء: «كلَّا. ليست هي. انظري إلى سروالها القصير. إنه قديم. إنها مجرد فتاةٍ كشَّافة لعينة.»

وافقته زوجته قائلةً: «هذا صحيح.»

لم يهتم الزوجان أكثر من هذا بالآنسة لوفابل، التي انتقلتْ إلى محطة إيسمير في عربةٍ أخرى؛ وبحلول الوقت الذي وصلتْ فيه إلى محطة يونجفراويوخ، كانت قد نسيتْهما. كانت تشعر وكأنها في حُلم عندما تابعتْ تدفُّق الركَّاب من خلال نفقٍ في الصخرة إلى

الطابق الأرضي لفندقِ بيرجهاوس. كانت غرفةُ الانتظار بأرضيتها المدفَّأة، ومكاتب الحجز والمطعم — المكسوُّ بألواحٍ من صنوبر السمبرا — تمثِّل مفاجأةً غير معقولة، حتى إنها لم يسعها سوى أن تشهق من الدهشة.

أخذت المصعد مع السياح الآخرين، لكنها لم تتبعهم إلى غرفة الطعام التي كانت في الطابق الأول. وإنما اجتازت الرواق الذي يربط المبنى بالهضبة، حين كانت تسخر من حالتها الاقتصادية التي فُرِضَت عليها.

«أملك ثلاثة منازل — ولا يمكنني تحمُّل سِعر وجبة. هذا بغيض.»

وعندما خرجت إلى الهواء القليلِ الكثافة، كان المنظر طاغيًا. صارت الآن، ترى بشكلٍ كامل كلَّ ما كانت قد رأتْه في شكلِ أجزاء فقط من المحطات السفلى. وحولها، كان وميض الشمس يلفُّ الثلج وهي تنتقل بنظرها من المروج الخضراء والوادي على جانب جريندلوالد إلى البحر المتقطع من الكتل الجليدية وقمم الجبال.

وقررت: «سأتناول الغداء هنا.»

وبينما كانت تفكُّ حزام حقيبتها، بدأت تشعر فجأةً بشعور غريب بعدم الواقعية، وكأنَّ جسدها يتلاشى بينما يسبح عقلها في الفضاء. كان هناك ضجيج في أذنيها، ولكن لم يحدث أي انهيار ثلجي.

قالت في نفسها: «أشعر وكأن وعيي ينفصل عن جسدي.»

وفي أثناء الصمت الذي تلا ذلك، تذكرتْ تعليقَ السيدة المتحذلِقة حول ضغط الدم. ومثل معظم الأشخاص الأقوياء، ارتعبتْ من فكرة أن يهدِّدها المرض.

فقالت في نفسها: «إنه الارتفاع. إنه يؤثر عليَّ. يجب أن أنزل على الفور إلى كلاينة شايديج ... ببطء. يجب ألَّا أتسرع. الأمر خطير ...»

كانت الرحلة إلى أسفل الجبل مخيِّبة للتوقعات، حيث ضجرت من الجلوس بلا حركة. وتراجعتْ أعاجيبُ تحفة الهندسة الحديثة إلى المركز الثاني أمام محطة القطار في كلاينة شايديج. جلست الآنسة لوفابل في التِّراس وأمامها القهوة، وأخذت تنظر بإعجاب شديد لجبل سيلبرهورن المخروطي الشكل.

وفكرت: «يا إلهي! أنا محظوظة.»

ذهب عنها الشعور المزعِج بأنها جزءٌ من غشاء يتلاشى. لم تعُد تترنَّح مثل شعلةِ شمعة وسط النسيم، ولكنها شعرت بالراحة والتماسك كالأرض الراسخة التي تقف

عليها. وبشهيةٍ مفتوحة أكلتْ كل محتويات حزمة الغداء الخاصة بها؛ من شطائر وبيض مسلوق وجبن وشوكولاتة وفاكهة. ثم أشعلتْ سيجارة واستسلمت للسعادة الكاملة.

قالت لنفسها: «كان ذلك المنظر من القمة، يشبه الطريقة التي يحاولون بها شرحَ نظرية أينشتاين عن الزمن. رأيتُ الكلَّ في آنٍ واحد ... «الآن أرى كلَّ شيء ... إلا إنني أحتضر» ... هذا براونينج ... لكني أكره أن أموت.»

في تلك اللحظة، بدا الموت بعيدًا جدًّا؛ تقريبًا بقدر بُعد يوم الثالث عشر من سبتمبر. عندما كانت الآنسة لوفابل تقضي عطلة لها، فإنها نادرًا ما كانت تفكِّر بتاريخ مغادرتها؛ بسبب قدرتها الميمونة على العيش في كلِّ دقيقة.

وبينما كانت جالسةً تدخِّن، طالعتْ كل تفاصيل المشهد المزدحم باهتمام كبير. جعلها جمع القطارات القادمة والمغادِرة من جريندلوالد ولاوتربرونن ويوخ تقارن «الممر الجبلي» مع محطة كلافام جونكشن. كان هناك تدفُّق مستمر للسيَّاح، وسمعتْ كل لغة تستطيع التعرف عليها.

وعندما وصل قطارٌ جديد من جبل يونجفراويوخ، تعرفت على اثنين من الركاب؛ كانا الزوجَين المثيرَين للرِّيبة اللذين رأتْهما أول مرة في محطة فيكتوريا. ولم يلاحظاها وهما منكبَّان على الطاولة المجاوِرة لها. بدا كلاهما أخضر اللون قليلًا، ثم طلب الرجل شراب براندي وقد بدت حاجته له شديدة.

أشاحت الآنسة لوفابل بنظرها بعيدًا عنهما واستمرت في مطالعة المشهد المليء بالحركة؛ الفنادق، والأسواق، ومكتب البريد والمظلات الملونة الكبيرة، التي تحت ظلالها كان السياح الإنجليز يشربون الشاي. وكان هناك باستمرار تجمُّع حول تلسكوبات زايس الكبيرة، حيث حاوَلَ الزوار متابعة المتسلِّقين على المنحدرات الثلجية.

وبطريقة طفولية أغلقت عينَيها بإحكام — لمحو كل شيء وكل شخص من «الممر الجبلي»، تاركةً إياه فارغًا وخاليًا — قبل أن تفتح أجفانها وتحدق في القمم البيضاء.

وقالت متهللة: «أنا وحدي مع الجبال.»

ولَمَّا مرت الفكرة بخاطرتها، سمعتْ صوتَ أحدهم.

«الآنسة لوفابل. ماذا تفعلين هنا؟»

أدارت رأسها ورأتْ فيفا تقف عند باب مطعم المحطة.

الفصل السابع عشر

علبة المجوهرات

خيبة الأمل التي أبدتْها الآنسة لوفابل في البداية تبعها شعورٌ بالغضب من بكنجهام. لقد أخفق في أن يفي بوعده. وقد كلَّفها الأمر عناءَ أن تُخفي امتعاضها وهي تتحدث إلى فيفا.

قالت الآنسة لوفابل: «كنت أظنُّ أنكِ ذهبتِ إلى لوتيربرونين.»

فردَّت فيفا: «لقد فعلتُ. لكني وجدتُ نفسي دون أي ارتباط، ولا أدري ماذا أفعل بعد أن غادر ريتشارد. بالطبع ذهبتُ إلى شلالات ترومليلباخ. وقد غادرتُها وأنا في قمة انبهاري. لكنْ يجد المرء في نفسه رغبةً في أن يتشارك هذه التجارب الرائعة مع الآخرين. وأرى أن من الأنانية أن يكون الإنسان وحيدًا. لذلك أتيتُ إلى هنا من الجانب الآخر عن طريق قطار فينجنالب، على أمل أن أقابل شخصًا أعرفه. وأنا سعيدة أنني الْتقيتُ بكِ.»

فقالت لها الآنسة لوفابل في جمود: «يؤسفني أن أقول إنني أنانية. لقد أتيتُ إلى هنا لرؤية الجبال وحدي.»

وفي الحال بدا على وجه فيفا تعبيرٌ يشي بالرهبة والذهول وهي تحدق في سلسلة الجبال الثلاثة. وكانت الآنسة لوفابل تعرف ما ستقوله فيفا ولم تكن منبهرةً به.

قالت فيفا: «هذه الجبال تجعلني أشعر بالضآلة.»

فذكَّرتها لوفابل قائلة: «بإمكاني أنا أيضًا أن أجعلكِ تشعرين بذلك. هذا لا يتطلب الكثير من الجهد.»

فألحَّت فيفا متجاهلةً تهكُّمها: «لكن لا شك أنها تجعلكِ تشعرين بالضآلة أيضًا، صحيح؟»

أدركت الآنسة لوفابل إدراكًا خافتًا لصوتٍ يتحدث إليها بداخلها.

قال الصوت بداخلها: «كلَّا. بل تجعلني أشعر بالعظمة. إنها تذكِّرني بأنني جزء من الأزل والدهر. أنا أحبها. بل أقدِّسها. أنا أشعر بالأمان في ظِل حمايتها.»

وحين أجابت سؤال فيفا، حملتْها غريزة الوقاية على إخفاء مشاعرها الحقيقية.

«لم أجد الأمر على هذا النحو. لكنها تمثِّل منظرًا رائعًا. يتعيَّن عليَّ أن أشتري بضع بطاقات بريدية.»

«سآتي معكِ ... لكن أولًا، لا بد أن أطالعها كثيرًا حتى تقرَّ عيني. دائمًا ما تجعلني الجبال أشعر وكأني في كنيسة. بل ويزداد فيَّ شعور الورع في حضرتها أكثر؛ لعدم وجود صلوات وأشياء تشتت انتباه المرء ... هل معكِ سيجارة؟»

وبينما كانت الآنسة لوفابل تفتح حقيبتها، قالت لنفسها بمرارة إن سياسة المشاركة لدى فيفا قد بدأت تعمل.

قالت فيفا: «أعواد ثِقاب.»

«لا أحمل أيًّا منها.»

صُدِمت الآنسة لوفابل من الكذبة التي تلفظت بها. كانت طبيعتها أنها سخية جدًّا لدرجة أن قدرتها على الشعور بالامتعاض من شيء تافه أثبتتْ أن نفورها المستتر من فيفا قد أصبح كُرهًا فعليًّا.

ومع أنه كان من المستحيل بالنسبة لها أن تستطيع الإشارة إلى موضع محدَّد من الفظاظة؛ فإن التأثير التراكمي لإهانات متناهية الصغر تمثَّل في انطباعٍ — قاصر على رأي فيفا الخاص وحسب — بأنها وضيعة المنزلة. والآن تكدَّر صفو يومها المثالي. وعلى الرغم من أنها كانت تنوي الهرب، فقد كانت حريتها ستكلِّفها ساعات عزلتها الثمينة.

هبَّت الآنسة لوفابل مبتعدةً عن الطاولة.

وقالت لفيفا: «لا بد أن أذهب. سأسيرُ نزولًا إلى جريندلوالد.»

«من الأفضل ألَّا تفعلي. فالسير نزولًا عن التل هذه المسافة كلِّها سيرهق عضلاتكِ كثيرًا. وستؤلمكِ ساقاكِ لأيام بعدها.»

«أعرف هذا. وأتوقَّع أن أعود بهما معي. كنوع من التذكار.»

بدا من تعبير فيفا الذي كان ينم عن الازدراء أنها لم تكن مستمتعةً بما يجري. هذه المرة كانت الآنسة لوفابل هي التي شعرت بالضآلة، على الرغم من أن لحظة انتصارها كانت قد شارفت على الحلول.

كان قطارٌ قد وصَلَ للتوِّ من جبل يوخ، وكان يفرغ حمولته من السيَّاح. وحين وقعتْ عين الآنسة لوفابل على امرأة جميلة لا تشوب جمالها شائبة، أشرق وجهها بالحماسة والإثارة. وتذكَّرت أن تخطف علبتها؛ حيث إنها كانت تحوي مالها وجواز

سفرها الضروري من أجل تمديد تذكرة الدخول للمنطقة، لكنها تركت العلبة التي تستخدمها الآن، كحقيبةِ يدٍ خاصة بها، على الطاولة خلفها، وهرعت تتقدَّم نحو المرأة.

وصاحت تقول: «ليدي بونتيبول، هل تذكرينني؟ من حفل هايفيلد في الحديقة.»

تعرَّفت عليها الليدي بونتيبول على الفور؛ وذلك لَمَا كانت تتمتع به من سِحر لطيف وذاكرة تحفظ الوجوه، هما ما جعلاها امرأة اجتماعية شهيرة.

«بالطبع، أتذكركِ. كيف حال الأخت مونيكا العزيزة؟ أخبريني عنها. وعنكِ أيضًا.»

قالت الآنسة لوفابل: «السيدة بوسانكيه في أفضل حال كالمعتاد. إنها تتسلط على خادمتي المسكينة في غيابي.»

ضحكت الليدي بونتيبول.

وقالت: «ما زالت تعاملني كمريضةٍ لها؛ ومريضة شقية جدًّا. لقد أُعجِبتُ كثيرًا بعسل الخلنج الذي بعتِه لي في مهرجانكم. هل ستشترين القبعة كما قلتِ من باريس؟»

وبينما كانتا تتحدثان، أخذت الآنسة لوفابل تسترسل في سرد التفاصيل في دفء حضور الليدي بونتيبول الودود.

قالت لوفابل تذكِّرها: «قلتِ إننا قد نلتقي. ومن الرائع أننا الْتَقينا. لقد صعدتُ إلى جبل يوخ، وقد بدا رائعًا جدًّا. هل كنتِ تقيمين هناك؟»

«أقمتُ لِليلة واحدة. هربتُ من الجميع، بما في ذلك خادمتي. لا يُفترض أن أذهب إلى مكانٍ مرتفع جدًّا. لا تخبري الأخت مونيكا. سيارتي تنتظرني في لوتيربرونين.»

وبينما كانتا تتبادلان أطراف الحديث، تكدَّر استمتاع الآنسة لوفابل بذكرى جعلتْها تشعر بخجلٍ شديد. كل هذا الوقت كانت تحمل علبة مجوهرات ليدي بونتيبول. على الرغم من أن الليدي بونتيبول كانت قد تخلصت منها، تذكرت لوفابل أن السيدة بوسانكيه حذرتها من الكشف عن التويج، في حين أنها في الواقع كانت قد اقترضت علبة المجوهرات فقط من أجل رحلتها.

دسَّت لوفابل العلبة خلف ظهرها وهي تشعر بالذنب بينما حاولت تغطيتها بكنزتها الصوفية. جذبت حركاتها الخفية انتباه الزوجَين اللذين كانا يجلسان على الطاولة المجاورة لها.

قال الرجل، الذي كان اسمه أمور، معلقًا: «فتاة الكشافة تُخفي شيئًا.»

وافقته السيدة أمور قائلةً: «ربما كان الآص يخطط لشيء في نهاية المطاف.»

راقب الزوجان الآنسة لوفابل وهي ترافق ليدي بونتيبول إلى قطار لوتيربرونين ولاحظا الطريقة المحترمة التي أصرَّت بها على حمل علبتها وكاميرتها. وعندما عادت إلى طاولتها، أخذا يختلسان النظر إليها، لكن فيفا أظهرت فقط اهتمامًا طفيفًا.

وسألت لوفابل: «أهي من قريتكِ؟»

كانت غريزة ردِّ الصاع لِفيفا قويةً جدًّا؛ فلم تستطع الآنسة لوفابل مقاومتها. فرفعتْ صوتها.

«ألم تتعرفي عليها؟ تلك كانت الليدي بونتيبول.»

سمع اللصان ذلك. وخلال ثانيتَين، كانا قد جعلا الآنسة لوفابل فريسةً لهما. أشعل أمور سيجارة على الفور وأسقط العود المشتعِل على الأرض. وعندما انحنى لالتقاطه، مدَّ رقبته ليلقي نظرةً متفحِّصةً على التويج على حقيبة الآنسة لوفابل.

أكدت هذه النظرة شكوكه. كانت هذه المرأة تحمل المجوهرات الشهيرة لليدي بونتيبول. استرق الرجل السمع أكثر؛ فتمكن من سماع أجزاء من المحادثة التي تدور على الطاولة المجاورة.

كررت فيفا بصوتٍ مضطرب: «الليدي بونتيبول؟»

كانت هذه المرة الأولى التي رأتْها فيها الآنسة لوفابل وقد خانتْها مشاعرها. بدت من ناحيةٍ متوترةً من الإثارة ومن ناحيةٍ أخرى مذهولةً من المعلومة.

قالت: «بالطبع. كان ينبغي أن أعرفها. إنها تشبه صورها تمامًا. لكنني ... لكنني لم أكن أعرف أنها صديقةٌ لكِ.»

وعلى الرغم من سعادة الآنسة لوفابل بظفرها، فإنها كانت أكثر تحريًا للصدق من أن تدَّعي لنفسها هذا الشرف.

فأوضحت قائلةً: «إنها ليست صديقة. أنا فقط أعرفها ... لقد بدأت الغيوم تتجمَّع. يجب أن أتحرك. أراكِ لاحقًا.»

في الوقت نفسه، فرقَعَ أمور بأصابعه لينادي على النادل ليدفع ثمَن مشروب البراندي. وبينما كانت الآنسة لوفابل تنزل المنحدر الأول للمسار، صعد هو وزوجته على متن قطار جريندلوالد. وعلى الرغم من أن عربتهما في الدرجة الثانية كانت فارغة؛ فإنهما جلسا أحدهما بالقرب من الآخَر، وتحدثا همسًا.

قالت السيدة أمور: «تلك كانت خادمتها. سمعتُ أنها ضخمة وشقراء. وهذا يفسر ما كانت ترتديه في محطة فيكتوريا. وقد قلتُ لنفسي حينها: «لم تكن هذه البزَّة مصنوعةً

لكِ. هذه البزة كانت من أفضل الأزياء في وقتها، لكنَّ وقتها هذا مرَّ قبل فترة طويلة، والموضات التي عفا عليها الزمن كالجثث، لا ينبغي نبشها ومحاولة إحيائها.» بالطبع، كانت هذه البزَّة واحدةً من المزايا التي حصلتْ عليها.»

زمجر أمور قائلًا: «أغلقي فمكِ. كان الآص يتبعها ويخطِّط لشيء ما. علينا أن نتوصل إليه.»

كانا قد قرآ في الصحف أن الليدي بونتيبول تتجول بسيارتها في القارة الأوروبية، وأنها كانت قد ارتدت مجوهراتها في الأوبرا والحفلات الراقصة في عواصم مختلفة. وبما أنهما كانا مجرد لصَّين متواضعين، لم يكونا مُهتَمَّين كثيرًا بالأمر؛ لأنهما كانا يعرفان أن النخبة في مهنتهما يغطون كلَّ تحركاتها.

لكن بدا الآن أن إحدى عادات المرأة قد ألقتْ بفرصة العمر بين أيديهما. ففي مناسبةٍ سابقة، كانت مجوهرات الليدي بونتيبول قد سُرِقت أثناء رحلةٍ بالقطار في أوروبا. وربما كان من المحتمَل أنها قررت العودة وحدها عبر سويسرا وإرسال خادمتها مع المجوهرات إلى باريس. ومع أن اللِّصين لم يلاحظا الْتِقاء السيدتَين الفعلي؛ فلا بد أنهما كانتا قد الْتَقتا في موعد سابق بمثل هذا المفترق الصغير المعزول. فضلًا عن ذلك، كانت الطريقة الخفية التي حاولتْ بها الخادمة إخفاء علبة المجوهرات ذاتَ دلالة كبيرة.

لم يكُن هذا تشخيصًا عبقريًّا، فمصيرهما دائمًا ما سيكون عدم الارتقاء في مهنتهم، لكن كان لدى أمور أسلوبه الخاص، وكان ذا صلة بالنساء الوحيدات والحقائب اليدوية.

أخبر أمور زوجته: «عودي إلى الفندق واحزمي الأمتعة واستعدي للمغادرة. سأنزل في ألبيجلين وأنتظرها خلف الصخور والأشجار بالأسفل. سأطرحها أرضًا وأختطف العلبة وأهرب. سآخذها على حين غِرة.»

اعترضت زوجته: «سيتعيَّن عليك أن تُفقِدها الوعي أولًا. إنها بحجم اثنَين من عيِّنتك.»

«لكنني لم أحضِر أدواتي معي.»

«لا بد وأنك سمكري ... هاك وِشاحي. ابحث عن حجر معقول الحجم والاستدارة ولُفَّه بداخله. سيتأرجح جيدًا حين تمسكه من الأطراف.»

بدا أمور مترددًا قليلًا؛ لأنه كان معتادًا على العمل على السيدات الكبار، اللاتي كنَّ يصفِّفن شَعرهن تصفيفات مرتفعة، ويرتدين فوقه قبعاتٍ مزخرفة.

ثم قال: «افترضي أن جمجمتها من الجماجم الرقيقة وضربتُها أنا بقوة كبيرة. إنها لا ترتدي قبعة.»

علَّقت زوجته قائلةً: «إذن سنتأسف عليها كثيرًا.»

وبينما كانا يستعدان لأخذها على حين غِرة، بدأت الآنسة لوفابل تقفز نزولًا إلى المسار الوعر. كان الأمر صعبًا، لكن روحها المعنوية كانت مرتفعة. وقد صدح صوتها بأغنية سعيدة وهي مبتهجة بالمناظر الطبيعية والعزلة.

كانت تعتقد أنها تقفز بخفة كالغزلان، وذلك عندما سمعت صوت حصى يتدحرج على المسار خلفها.

نادتْها فيفا: «توقفي. أنا أيضًا قادمة.»

الفصل الثامن عشر

القيمة الظاهرية

كان وجه الآنسة لوفابل مكفهِرًّا وهي تغرس كعبها في المسار الزلق وتنتظر فيفا. كان تصرُّفها ذا رمزية؛ حيث إنها وصلتْ إلى آخِر حدود صبرها، وكانت تعتزم اتخاذ موقفٍ حازم في مواجهة أيِّ تجاوُزٍ آخَر. وقد ذَكَّرَت نفسها بأن لها الحقَّ في الاستمتاع بعطلتها بطريقتها الخاصة؛ لذلك كانت تنوي توضيح الأمر رغم مجازفتها بأن تكون غير مهذَّبة.

وبينما كانت تبحث عن الكلمات التي ستوضح الموقف بأقلِّ قدرٍ من الإساءة، بدأت فيفا تتكلم.

«هل تمانعين أنْ آتي أيضًا؟ أريد أن أتحدث إليكِ حديثًا خاصًّا … لديَّ اعتراف أريد أن أعترف به لكِ.»

لمعت عينا الآنسة لوفابل باهتمام.

وسألت بفضول: «ما هو؟»

«سأخبركِ ونحن نمشي. أريد أن أمرِّن نفسي بعض الشيء.»

«إن النزول شاق.»

«سأستقل القطار من محطة ألبيجلين.»

قالت الآنسة لوفابل في سريرتها إنها ستتحرر من صحبتها في نهاية المطاف، بينما تقدَّمت فيفا الطريق — وكانت تقفز بخفة بين حُطام الحجارة والأشجار، حيث حوَّل انهيارٌ أرضي مسار الطريق. وعندما استوى المسار نسبيًّا مرةً أخرى، كسرت فيفا الصمت بينهما.

فقالت: «لا تدعي الحماس يطغى عليكِ. ليس الأمر عن جريمة قتل أو شيء مثير مشابِه. إنه أمر محرِج فحسب. الحقيقة أنني أعطيتكم جميعًا انطباعًا خاطئًا. تظنون

أنني فتاة من عِلية القوم. لكن ليس لي ذنب في ذلك. لقد أخبرتُكن باسمي في تلك الليلة الأُولى في القطار. كنتُ أظن أنه لا توجد امرأةٌ لا تعرف «فيفا».»

بدأت الآنسة لوفابل ترى بصيصًا من النور.

فسألتْها: «هل أنتِ سيدة أعمال؟»

«بالطبع، أنا كذلك. أنا أملك صالون التزيين الرائد في منطقة وست إند. أنا مشهورة. عملائي يشملون العائلة الملكية، إضافةً إلى قادة المجتمع وعِلية القوم. كنتُ ببساطةٍ «مذهولة» عندما لم تتعرف أيٌّ منكنَّ على اسمي.»

كان صوتها ينمُّ عن حنق، حتى إن الآنسة لوفابل حاولت تهدئتها.

فقالت: «أنا آسفة. أنا نفسي غير مطلعة على كل هذه الأمور.»

تجاهلتْ فيفا اعتذارها.

وتابعتْ: «كنتُ أظن أنني إن شرحت لكُنَّ الأمرَ حينها قد يقع بيننا حرج؛ لذا تركتُ الأمر على حاله. كان من المبهج أن أكون خارج الأضواء. بالطبع، عندما قلنا «وداعًا» كنت أعتزم أن أعطيكنَّ بطاقات عملي وأقدِّم لكُنَّ عروضًا مخفَّضة، أو معاملةً مجانية مقابل تقديمي لعملاء جُدد.»

بدأت الآنسة لوفابل تشعر أنها دفعتْ ثمنًا باهظًا لإشباع فضولها.

فعلَّقت بنبرة صريحة: «لكننا لم نقُل «وداعًا» بعد. لماذا لحقتِ بي الآن؟»

فصاحت فيفا بأنفاسٍ متقطعة: «بسبب الليدي بونتيبول. لم أستطِع الانتظار لتقديم عرضٍ لكِ. كما ترَين، لم يكن لديَّ أدنى فكرة أنها صديقةٌ لكِ.»

«إنها ليست صديقتي.»

«أوه، بل هي كذلك. كنتما تضحكان معًا وسمعتُها تطلب منكِ أن تبلغي تحياتها إلى أختها، مونيكا. أرجوكِ لا تراوغيني. هذا أمر ذو أهمية بالغة لي.»

«لماذا؟»

«أريدكِ أن تُقنعي الليدي بونتيبول بأن ترعى صالوني. سأدفع لكِ نسبةً على كل معاملةٍ وصفقة. سنحدد الشروط لاحقًا، ولكن أعدكِ أنها ستكون سخية.»

كان صوتها متحمسًا، لدرجة أن الآنسة لوفابل شعرت بالذنب لأنها رفعت طموحاتها دون قصد.

وقالت بقسوة: «كلَّا. لا أستطيع أن أفعل ذلك. لقد سبق وأن أخبرتكِ أنها ليست صديقةً لي.»

كان من الواضح أن فيفا لم تصدِّقها؛ لأنها أصرَّت على تأكيد الفكرة.

«ستكون تلك منفعة متبادَلة. الليدي بونتيبول جميلة جدًّا، ولكنها تفتقر إلى الجاذبية المتخصِّصة. يمكنني أن أفعل الكثير لوجهها. إن وجه دوقة مولبري أحد أعمالنا. كما صنعنا الوجه الذي حصلتْ به لينا ليومينستر على أفضل عَقد لها … أنا دائمًا في حالة تأهُّب للأفكار المستقاة مباشرةً من الطبيعة. في الواقع، أنا لا أرى وجهًا دون أن أقوم بتفكيكه في ذهني ثم أعيد تجميعه على النحو الصحيح.»

بينما كانت الآنسة لوفابل تستمع، فهمت ما كان يربِكها سابقًا. كلمات فيفا شرحت تلك النظرة المبهَمة التي كانت تعدُّ الإنسان مشكلةً تجميلية. كما كانت كلماتها أيضًا مبيِّنة لإيثارها في احترام الآخرين، والذي بدا بمعزلٍ عن اللطف الأصيل، الأمر الذي كان غريبًا جدًّا.

فكرت الآنسة لوفابل: «بالطبع، لا بد أن تقديم الخدمات للعملاء مهارة طبيعية لديها.»

وضحكت لا إراديًّا، ولكنَّ مرحها توقَّف عندما انتقلت فيفا من الوجوه عمومًا إلى مظهرها الشخصي.

إذ وعدتْها قائلةً: «يمكنني أن أحوِّلكِ تمامًا. فأنت تتمتعين بشيء رائع. ولكنكِ تقليدية للغاية. سأُضفي عليكِ طابعًا مائلًا قليلًا — الحاجبَين، والشفتَين، والعينَين. وشَعركِ متموج جدًّا وخضِل. يبدو وكأنه بحالته الطبيعية. إنه يحتاج إلى علاج بالطلاء التشكيلي؛ ليجعله يبدو أكثر كثافةً، وكأنه معدني.»

فأسرعت تقول الآنسة لوفابل: «هذه ليست أنا، شكرًا. قد يبدو هذا تعجرفًا، ولكنْ ثقةً، أنا أحب وجهي على هذا النحو. فهو نظيف على أي حال. يمكنني أن أنظِّف مدخنة دون أن يبدو مظهري قذرًا.»

فأقرَّت فيفا برحابة صدر: «صحيح، صبغتكِ رائعة ومظهرك جميل. ولكنه طبيعي … والطبيعة لا يمكنها التنافس مع الفن. فهي لا تملك التنظيم ولا الموارد. ونحن لدينا مجموعة متنوعة ولا نهائية من الألوان لندمج بعضها ببعض.»

فعاجلتْها الآنسة لوفابل بسؤالها: «مثل …؟»

كان السؤال ماكرًا، حيث إنها لم تكن مهتمة بمستحضرات التجميل. كل ما أرادته هو تشجيع فيفا على الإسهاب في موضوعها الخاص، حتى تتمكن من تكريس اهتمامها للاستمتاع بمشهد الجبال المتراكمة.

وذكَّرت نفسها: «سأتخلص منها في ألبيجلين.»

بحلول هذا الوقت، كان القطار الصغير قد وصل إلى ألبيجلين وفقَدَ راكبًا. إذ انسلَّ أمور من عربته دون أن يلفت الانتباه وبدأ ينزل على الطريق الذي يحيط بقاعدة جبل إيجير. ورغم أنه كان يرتدي أحذية مخصصة للسير في المدينة، كان تقدمه سريعًا؛ لأنه كان واثق الخُطى ويتمتع باتزان كمَن يجمع بين مهارات الراقصين وقليلٍ من مهارات اللصوص.

وكان كلما سمع أصواتًا حَرِصَ على الاختباء خلف شجرة أو صخرة. كان قد تعلَّم من خلال التجارب المريرة أهميةَ عدم الخلط بينه وبين تلك الشخصية الشريرة التي — وفقًا للشهود — دائمًا ما تكون ملحوظةً في محيط مكانِ وقوع الجريمة.

إضافةً إلى هذا الاحتياط، كان عليه أن يلتقط أداةً مناسبة لهجومه على خادمة الليدي بونتيبول. كان هذا الجزء من العمل يزعجه؛ لأنه كان يكره الأدوات المؤقتة والبديلة. ومع ذلك، سرعان ما وجد حجرًا بالوزن والشكل المطلوبَين. وبعد أنْ لفَّه بعناية بجوربه، ربطه داخل وِشاح زوجته وبدأ في التدرُّب على ضربته.

وبعد أن ضرب أشجار الصنوبر بضع ضربات، شعَرَ أنه أتقن الأسلوب بما فيه الكفاية لاختيار مكان الضربة. وبعد أن نزل مسافة على منحدر الجبل، اختار موقعًا بين الظلال الكثيفة لأشجار الصنوبر المتكتِّلة، حيث يمكنه الاختباء بين الصخور الكبيرة التي تتدلى فوق المسار. كان المنحدر شديدًا للغاية، بحيث إذا أمطرت السماء — كما كان الجوُّ يوحي — فسيكون المسار زلقًا بالطين.

فكَّر أمور في نفسه: «ستسقط بضربةٍ قوية كهذه، لدرجة أنها ستظنُّ أنها انزلقت واصطدم رأسها.»

كان من الممكن حتى وهي في حالة التشوش هذه، أن تتعثر فتسقط نحو الوادي دون أن تدرك ما فقدت. وفيما بعد، عندما تعود للبحث عن حقيبتها، قد تكون مشوشة جدًّا فلا تستطيع العثور بدقة على المكان الذي سقطت فيه، أو قد تستنتج أن ما فقدته قد وجده في أثناء ذلك شخصٌ غير أمين.

وبينما كان أمور يجثم على الأرض اللزجة وهو يستند إلى الصخور الداعمة، كان يمضغ العلكة؛ لأنه كان يخاف من أن يُدَخِّن. كان يقدِّر ذكاء خدعة الليدي بونتيبول؛ لأنها فشلت في تضليل ذكائه الأعلى مقامًا. في اعتقاده، بدا من البراعة والمكر أن ترتدي الخادمة ملابس تنزُّه وتجعلها تمشي إلى جريندلوالد — بما يؤيد شخصيتها — مع إخفاء

آلاف الجنيهات تقريبًا في حقيبتها القماش القديمة، بينما كانت الأشياء الأثمن تتبع سيارة سيدتها.

كان أسوأ جزء في هذه العملية الانتظار الطويل وغير المريح. فعلى الرغم من التشنجات التي أصيب بها، فلم يجرؤ أمور على الاسترخاء؛ خوفًا من أن يغفو ويفوته صوت الخطى. فلكي يشنَّ هجومه، كان عليه أن يلحق بقطار منحه وقت انتظار طويل جدًّا، ذلك لأن الآنسة لوفابل كانت لا تزال على مرمى البصر من المحطة الصغيرة.

أعلنت الآنسة لوفابل في طرب: «ها هي محطة ألبيجلين».

كانت الآنسة لوفابل مرتفعةً فوق بحر من قمم الأشجار؛ ومع ذلك، ستنخفض أكثر وأكثر، وسترى السقف الأخضر مفروشًا عند قدمَيها. وقد امتلأت نفسها بشعورٍ بالسعة والحرية من منظر الوديان الواسعة والممتدة. كما شعرتْ بالنشاط بفضل الهواء النقي؛ فكانت متحمِّسة بفعل الرياح التي أخذتْ تصفرُّ وهي تدفع الغيوم الممطرة أمامها. ولَمَّا كانت تتوقع أن تكتمل فرحة الحرية، تحدثت إلى فيفا بنبرة دافئة بحقٍّ.

«هنا نفترق. لن تضطري للانتظار طويلًا حتى يأتي القطار. من اللطيف أنكِ أخبرتِني عن نفسكِ. أنا ممتنة لذلك.»

فسألتْها فيفا بحماس: «إذن، هل ستأتين معي إلى الليدي بونتيبول؟»

«كلَّا. وهذا حقًّا قرار نهائي. وداعًا. سأفكر فيكِ خلال مسيري. أنتِ رائعةٌ حقًّا، تبدين كطفلة صغيرة في حين أنكِ سيدة أعمال مشهورة.»

«أنتِ لم تعرفي القصة بالكامل بعدُ. انتظري حتى أخبركِ كيف بدأتْ. لم يكن لديَّ أموال أو نفوذ. لكنَّ رجل أعمال قدَّم لي رأس المال؛ لأنه كان يثق بي. كان العرض دون أي شروط وسدَّدت له ماله في غضون ثلاث سنوات.»

ومما أثار استياء الآنسة لوفابل أن فيفا تجاوزت المحطة دون أن تتوقف وتقدَّمت على المسار الهابط. وقد بدأت تُدرك أن محاولتها لتخفيف رفضها بمجاملةٍ كانت سياسة فاشلة؛ حيث إنها أطلقت لسان فيفا في سرد قصة نجاحها.

ناشدتها الآنسة لوفابل: «من الأفضل ألَّا تحاولي المشي إلى جريندلوالد. فالمنحدر يزداد انحدارًا في الأسفل.»

قالت فيفا بتفاخر: «لن يؤثر ذلك عليَّ. أنا لا أتعب أبدًا. فأنا من أعضاء رابطة الصحة والجمال، كما أمارس التزلج والسباحة وغير ذلك. وأترك لسكرتيراتي حضور كل اجتماعاتي.»

«لكنها ستمطر.»

«جيد. سيمكنني هذا من أن أعطي بشرتي صدمة.»

على مضضٍ تقبلت الآنسة لوفابل أن تتحمل مداخلةً طويلة من فيفا حيث استعرضت الأخيرة المراحل المتتالية لتحسُّن تقدُّمها العملي. ورشَّت الرياح وجهيهما بأُولى قطرات العاصفة، ثم بدأ المطر يتساقط باستمرار. في البداية لم تدركا سوى صوتِ الرذاذ الناعم فوق رأسيهما؛ لأنهما كانتا في حِمى الأشجار، لكن مع تزايد المطر، توقفت الأشجار عن العمل كمظلات. وأصبح المسار زلقًا وتحوَّل بعد قليل إلى طين يلتصق بأنعُل حذاءَيهما.

قالت الآنسة لوفابل بتطلُّع: «من الأفضل أن تعودي إلى ألبيجلين. سوف تتشبع ثيابكِ بالماء.»

سألتْها فيفا: «ماذا عنكِ؟»

«أنا أحبُّ المطر.»

«وأنا أيضًا. لا يمكن أن نصاب بالبرد أثناء المشي.»

«لكنَّ بنطالكِ لن يعود كما كان مرةً أخرى.»

«إنها مجرد ملابسِ عطلة. عبَّأتْها خادمتي، ولم أكن أعرف ما وضعتْه. أنا أثق بذوقها تمامًا. هي تعتني بكل ملابسي.»

وبينما كانت الآنسة لوفابل تستمع، قررت ألَّا تأتي على ذِكر خادمتها إلسي، التي لم تكن قادرة حتى على تلميع أرضية في المنزل. حاولت أن تنسى رفيقتها وتتقبل تحدي العاصفة، حيث أرجعت رأسها إلى الخلف وشهقت شهيقًا عميقًا. وبفعل الرياح، اصطدمت قطرات المطر بوجهها وأغرقت شعرها وسالت على رقبتها.

أحبَّت الآنسة لوفابل ذلك كله؛ احتكاك الملابس المبللة على بشرتها، والهواء المنعش، والروائح الترابية والصمغية التي بثَّها في الجو هطولُ المطر. واجتذب المطر شيئًا آخَر غير لطيف؛ بزَّاقات سوداء كبيرة أخذت تزحف على المسار. صرخت فيفا عند رؤيتها، لكنَّ الآنسة لوفابل ضحكتْ فحسب.

وعلَّقت قائلةً: «مظهرها أفضل من بعض الأشخاص الذين يذكِّرونني بها. من النوع الرطب الداكن. كان هناك عيِّنة مثالية منها في شايديج. كِدت أتوقع منه أن يترك أثرًا رطبًا خلفه بينما يمشي.»

بحلول هذا الوقت، كانتا قد وصلتا تقريبًا إلى المكان الذي كان أمور ينصب فيه كمينًا. كان في وضعٍ بائس؛ لأنه لم يجرؤ على التحرك وكان محميًّا جزئيًّا فقط بواسطة

الصخور التي كان يقبع خلفها. ورغم ملابسه المبللة والعضلات التي كانت تؤلمه، كان يتعيَّن عليه أن يظل متأهبًا ومتيقظًا؛ حتى لا يفوِّت أول أصوات اقترابِ ضحيته.

وبعد إنذار أو إنذارَين كاذبَين، حينما كان مختبئًا خلف الصخور لتجنُّب أن يراه أحد؛ سمِعَ خُطى الآنسة لوفابل، تنزلق وتخوض في وحلِ المسار. كانت متقدِّمة بمسافةٍ معقولةٍ على فيفا التي كانت قد توقفت عن الثرثرة، حيث كانت الرياح تحمل كلماتها خلفها. وبينما كان أمور يراقبها، فوجئ بمدى براعتها في تأديتها لشخصيتها كمتنزِّهة؛ فقد كانت تبتسم ولم تُظهر أيَّ علامات على الضيق.

فقال جازمًا: «لا بد أنها فتاةٌ سويسرية لعينة.»

وفي الثانية التالية، تغيَّر وجهه واستشاط غضبًا وخاب أمله عندما ظهرَتْ عند المنعطف شخصيةٌ ثانية، نحيلة وترتدي بنطالًا. لم يتوقع أن تتعقد الأمور بوجود رفيقة، في حين أنه كان ينتظر امرأةً وحيدة. فأخذ يسبُّهما في حين أنه يتوارى بين الصخور ويتسلل تحت غطاء النباتات المبللة بجانب الطريق.

أجفلت الآنسة لوفابل، ثم أمسكت بدعامةٍ من شجرة صنوبر حين كانت تمسح المطر عن عينَيها.

وصرخت في فيفا: «أنا أرى أشياء. أكاد أُقسم أنني رأيتُ رأس رجل ذي شعر أسودَ لامع هناك. لكنها مجرد قطعةٍ من الصخر.»

أصبح الطريق الآن شديدَ الانحدار لدرجة أنه كاد يصبح مسارَ سيلٍ جارف، وكان يتعيَّن عليهما التبديل بين جذوع الصنوبر من أجل الحفاظ على توازنهما. وعندما وصلتا إلى المروج الرطبة الإسفنجية وأول الأكواخ؛ شعرتا أنهما عادتا إلى البيت تقريبًا، على الرغم من أنه كانت لا تزال أمامهما مسافةٌ يتعين عليهما قطعها.

نبَّهت فيفا الآنسة لوفابل قائلةً: «لا تخبري أحدًا بما أخبرتكِ. أظنُّ أن السيدة فورس قد تُعَرِّفني على بعض الأشخاص المفيدين إذا ما تحدثتُ معها بالطريقة الصحيحة.»

فوعدتْها الآنسة لوفابل: «لن أذكر شيئًا أمامها. لكني ما زلتُ مذهولة. كنت أنظر إليكِ باعتبارك أنثوية جدًّا، وأن كل ما تريدينه هو الزواج فقط.»

«استمري في التفكير بهذه الطريقة. فأنا هكذا فعلًا، وهذا هو ما أريده.»

«تقصدين أنكِ قد تتخلين عن مهنتكِ من أجل رجل؟»

«مستحيل.»

«إذَن قد تقدِّمين الدعم لزوجك؟»

«هذا هو آخِر شيء يمكن أن أفعله. ما أريده هو دمج زواجي مع عملي. أن أجعل زوجي يؤدي نصيبه من العمل وأحقِّق له فائدة مشتركة، وإلا فقَدَ احترامه لنفسه، وحينها لن أستطيع أنا احترامه. يجب أن تكون لديه شخصيةٌ قوية مستقلة. ترَين، أنا أوفَرُ منكِ حظًّا. فالرجال لا يحتاجون للزواج مني من أجل مالي.»

فجأةً بدأت المحادثة تكتسب أهميةً عند الآنسة لوفابل.

فسألتْها: «أي مهنة؟»

فأجابتْها فيفا: «كيميائي. يمكنه القيام بأعمالٍ بحثية. لقد توصَّل العلماء لاكتشاف طبي مهم من خلال التجارب على الأصباغ. ألَا تظنين أن هذا سيكون مثاليًّا، خاصةً مع وجود العديد من الشباب الأذكياء الذين ينتظرون فرصةً حقيقيةً فقط أو نقطةَ بداية؟»

«أتمنى أن تحققي ما ترغبين فيه.»

«عادةً ما أفعل.»

كان صوت فيفا هادئًا وواثقًا لدرجة أنَّ الآنسة لوفابل أدركتْ وللمرة الأولى أنها تمتلك شخصيةً قوية وحيوية.

كانت صامتة في طريقهما إلى النهر الذي كان مليئًا بالمياه الجليدية ومغطًّى بغطاء كثيف من البخار المكثَّف. وعندما فكرت في الموضوع بواقعية، اعترفت أن تحالف بكنجهام مع فيفا سيكون حلًّا مُرضيًا للصعوبات التي يواجهها؛ خاصةً أنها هي نفسها لم تكن ترغب في الزواج منه.

كانت الآنسة لوفابل ترى أن الناس ينبغي أن يتزوجوا وهم شباب يافعون، وإلا فلا ينبغي يتزوجوا على الإطلاق، إلا لأسبابِ العِشرة أو لاعتباراتٍ نفعية. لقد ذاقتْ هي نفسُها، في بواكير شبابها، نشوةَ الحب وألمَ عدم اكتماله. كان «ديفيد» هو اسم الشاب الذي لم يبادلها حبًّا بحبٍّ، وقد خَلَّدَت ذكراه بتسميةِ أكثرَ من حيوانٍ أليف محبوب باسمه.

ومنذ حققت الاستقلال الاقتصادي، صارت سعيدةً تمامًا. كانت طبيعتها عملية لا عاطفية، وكان لديها عقل منظَّم. لم تُصَب بأمراض مطلقًا، ولم تشعر بالملل قَط ولا بالوحدة. من ثَم، في هذه الظروف، سيكون حسدها بكنجهام على فيفا إظهارًا منها لطِباع البخل والأنانية.

وحين انفصلتا في الفندق تحدثت إلى فيفا.

وقالت لها: «حظًّا سعيدًا.»

بخطوات حذرة على الدرَج الخشبي المصقول، وصلتْ إلى غرفتها وأعطت ملابسها المبللة للخادمة. وبعد الاستحمام بالماء الساخن، شعرتْ بانتعاش وبسلام مع العالم، وهي تقف عند نافذتها تدخن وتشرب الشاي. وبالمقارنة مع ما تستمتع به من راحة، كانت الآن تستطيع أن تقدِّر بشكل أكبر عظمةَ العاصفة وهي تجتاح الوادي بأمطارٍ غزيرة.

وبعد قليل ومن خلال النافذة المبللة، رأت ظَهْر رجلٍ حين مرَّ بالفندق. لاحظت أن كاحلَيه كانا عاريَين وهو يعرج في حذاءٍ جلدي مبلل. كانت ملابسه المبللة تلتصق بجسده النحيل؛ فبدا متداعيًا مثل فزاعة من العام الماضي، في حين أنه ترك خلفه آثار رشح الماء عنه.

أثَّرت كآبته في قلب الآنسة لوفابل الحنون. فرفعت كُوبها، وشربت نخبًا لأمور الذي لا يراها.

وقالت جهرًا: «اليوم ليس يوم حظِّك. نحن في القارب نفسه أيها الرجل الضئيل الجسم. حظًّا أفضل في المرة القادمة.»

الفصل التاسع عشر

كائن ليليٌّ

شعر بكنجهام بالذنب عندما الْتَقى بالآنسة لوفابل في الاستراحة تلك الأمسية.

وقال بطريقة دفاعية: «نسيتُ أن هناك طريقَين للصعود.»

فأقرَّت الآنسة لوفابل: «ليس خطأك. لم يكن الأمر كما كنتُ أتمنَّى. هذا كل شيء.»

«ولكنكِ تظنين أنني خذلتكِ؟»

«هل لهذا أهمية؟ أيًّا كان ما حدث، فقد انتهى الآن. الأهم لك كثيرًا أن تحافظ على وعدك.»

«يمكنكِ الاعتماد على كوني في محطة فيكتوريا يوم الثالث عشر من سبتمبر؛ لمقابلة قطار السابعة وخمس عشرة دقيقة، القادم من أوروبا. مهما حدث، سأكون موجودًا هناك.»

شعرَت الآنسة لوفابل براحةٍ كبيرة حين عرفتْ أنه قد حفظ تاريخ عودتها. وعلى الرغم من أن منطقها السليم جعلها تقرِّر أن تقمع أيَّ معتقد خرافي قد يتعارض مع الأعمال؛ فإنها كانت تعي وجود إحجام لا شعوري عن التفكير في نهاية عطلتها. وقد رأت أن هذا كان إرثًا من تجاربها في لندن؛ لأنه اختفى تمامًا بعد عرض بكنجهام بمرافقتها إلى المنزل الفارغ.

قالت له: «لم أخبرك بأننا نتمِّم بيع البيت لصهرك. ففي ظهر يوم الرابع عشر من سبتمبر لن أكون مالكةً للمنزل رقم تسعة عشر بمنطقة ماديرا. وطبعًا خُصِم الإيجار المدفوع مقدَّمًا من الشيك.»

سألها بكنجهام: «ماذا ستفعلين بالنقود؟»

«سأشتري منزلًا آخَر في المدينة، بالطبع. قد لا يكون في لندن مرة أخرى. ربما في هاروجيت أو في باث.»

«حسنًا، أنا أستسلم. كنتُ أظنكِ بسيطةً وبريئة، لكنَّ عقلك مُعقَّد جدًّا بالنسبة لي.»

وتحوَّل انتباهه إلى فيفا بتردد واضح عندما انضمت إليهما.

نادتْه فيفا قائلةً: «ريتشارد، هلَّا اكتشفتَ ما خطْب كاميرتي.»

غادرت الآنسة لوفابل المكان وتركتْهما معًا، لكنها شعرت بأن حوَّاء القديمة تتمرد في داخلها. لقد جرى الاعتداء على شعورها بالملكية. كانت مستاءة من الطريقة الباردة التي تجاهلتْ بها فيفا مشاعرَها الخاصة — إن كانت موجودة — في هذا الموضوع، وكذلك الطعنة الغادرة عندما اقترحتْ أنَّ اهتمام بكنجهام بها كان ماديًّا.

قالت في نفسها: «أستطيع إبعاده عنها بحركةٍ من إصبعي الصغيرة. أريدها أن تعرف ذلك.»

كانت السيدة فورس وأوليفيا تتناولان القهوة في الطرَف البعيد من الاستراحة، وقد أشارتا إليها لتنضم إليهما. عندما وصلت إليهما، حذَّرتها أوليفيا — التي كان وجهها مسفوعًا بالشمس، حتى أصبح لونها كتفاحة قرمزية — بفظاظتها المعتادة.

«لا تسمحي لها أن تأخذه منكِ. إنه ملككِ. رأيتُه ينظر إليكِ ... إذا نظر أحد إليَّ بتلك الطريقة، سيُغشى عليَّ، «جيمس لي»».

قالت الآنسة لوفابل بغضب: «يمكنها أن تحظى به. أنا لا أنوي الزواج. أعرف متى أكون في وضعٍ جيد. أنا أبدو أصغرَ سنًّا وأتمتع بصحةٍ أفضل من معظم زميلاتي في المدرسة اللائي تزوجن ولديهن أُسَر.»

تأوهت السيدة فورس قائلةً: «ألا أعرف ذلك؟ قد لا تصدقين ما سأقوله، ولكني كنتُ رياضيةً في السابق. كنتُ فعليًّا ألعب في ويمبلدون، حتى لو لم أتجاوز الجولة الأُولى. إنجابي لأوليفيا هو ما ضعضعني بهذا الشكل.»

عجزَت الآنسة لوفابل عن أن تشعر بالتعاطف؛ لأنها كانت قد اختبرت أن السيدة الهزيلة تتمتع بطاقةٍ لا تعرف الكلل. ومع ذلك، قدَّرت رأيها كامرأة لديها خبراتٌ حياتية ومرَّت بتجارب كثيرة، وهكذا أخذتْ تستمع بانتباه حين كانت السيدة فورس تتحدث.

«حقًّا يا عزيزتي، سيكون من الجنون أن تتزوجي الآن. لقد تأخرتِ كثيرًا.»

قالت الآنسة لوفابل بغضب: «أنا في الثامنة والعشرين من عمري فحسب.»

«لم أكُن أشير إلى عمركِ. أعني أنك لا تمتلكين عقلًا مرنًا. أفكاركِ جامدة مثل الجيلي عندما يُترك على النار كثيرًا. تحبين رفاهيتكِ وتحبين طريقتكِ الخاصة في الحياة. وقد

يحطِّمكِ أن يكون لديكِ رجل يتطفَّل على حياتكِ الشخصية، ويتدخل في عملكِ، في حديقتِك. قد يرغب في زراعة البصل حينما تريدين أنتِ زراعة القرنفل.»

«لا. أنا أحبُّ البصل أكثر، وسأختاره كلَّ مرة.»

«إذَن سيرغب هو في القرنفل ... إذا اتبعتِ نصيحتي فستعرفين متى تكونين في وضعٍ جيد. لديكِ بالفعل الأشياء التي تتزوج من أجلها النساء؛ لديكِ دخلٌ ومنزل.»

كانت الآنسة لوفابل قد لاحظت بالفعل وجودَ تجنُّب للحديث عن موضوع منزلَيها الآخرين. يبدو أن منزل البحيرة فقط هو المعترَف به ملكيةً حقيقية.

وبعد دفاعها عن العزوبية، ابتسمت بسخرية عندما أصبحت السيدة فورس مدرِكة فجأةً خيانتها لجنسها.

فاختتمتْ في وهن: «ومع ذلك، كل امرأة ينبغي أن تتزوج.»

فقالت الآنسة لوفابل ساخرة: «الآن صار كلامكِ تقليديًّا.»

شعرت الآنسة لوفابل بكسلٍ لذيذ وبعزوف عن أن تتحرَّك من كرسيها في حين أنها تشاهد المشهد أمامها بموضوعيةِ المتفرِّج. كانت الغرفة عارية وبسيطة مقارنةً بفخامة فنادق البحيرة وبهرجتها. كانت الستائر البيضاء الناصعة، والمنسوجة على شكل شبكة، بالكاد تغطي النوافذ، وقد كشفتْ عن الخلفية بأشجارها التي تمتد على منحدرات الجبل. وكانت أنوار الكهرباء تتدلى على شكل كئوس زهرية. وبمجرَّد أن بدأت الأوركسترا عزفها، شرع الأزواج في الرقص على المساحة الفارغة في منتصف الأرضية الشمعية.

بعدما عزَّزت نفسها بنصيحة السيدة فورس، ذكَّرت نفسها بأنها ستعود مرة أخرى إلى منزل البحيرة في غضون أسبوع، وستعود إلى الروابط المنزلية والتقاليد المحلية، وستستعيد الروتين المألوف.

قالت في نفسها: «منزل البحيرة حقيقي. إنه حياتي كلها، ويجب ألَّا أخاطر بخسارته ... ولكن قريبًا، سيبدو كل هذا حلمًا. وهؤلاء الناس لن يكونوا مهمين بعد الآن.»

كان بين الراقصين فيفا، التي تسبَّب نشاطها وحيويتها في تحفيز الآنسة لوفابل على التخلص من خمولها. فعلى الرغم من أنها لم تكن متعبة كما كانت تتوقع، بدأت العضلات الخلفية لساقَيها تنقبض على نفسها. ولَمَّا كانت لا تهتم بأن تبقى في الخلفية، نهضت من كرسيها المنخفض المصنوع من الخيزران وصعدت إلى غرفتها.

وبعد أن تخففت من ملابسها، خرجت إلى شرفتها لتدخن سيجارةً أخيرة. كانت كلُّ الغرف الأمامية في الطابق الأول تفتح على شرفة مشتركة؛ ولكن حتى في أثناء النهار،

كان الزوار حذِرين بشأن البقاء في غرفهم الخاصة ولم يتجولوا، خوفًا من أن يقتحموا عن غير عمدٍ خصوصية الآخرين. في الليل، كان معظم الإنجليز يبقون نوافذهم الفرنسية مفتوحة، رغم أن الضيوف الأوروبيين والأشخاص العصبيين كانوا شديدي الحرص على إغلاق الستائر.

وبينما كانت الآنسة لوفابل تطالع الجبال، استعرضت خطط فيفا لمستقبل بكنجهام.

وقالت في نفسها: «لا بأس. أعطيه مجهرًا ودعيه يصنع الأصباغ وسيكون سعيدًا. ربما سيكتشف شيئًا يجلب لها ثروة، وهذا سيرضي غروره. لا بأس بهذا.»

لم تكن تعلم أنها كانت تحت المراقبة طوال الوقت الذي بقيت فيه في الشرفة. فعلى الجانب الآخر من الطريق، ومقابل الفندق تقريبًا، كان هناك نُزُل نادرًا ما كانت تلاحظه. كانت هناك امرأة تجلس أمام نافذة غرفة نوم مظلِمة، ترتدي رداءً فضفاضًا أرجوانيَّ اللون ومزيَّنًا بوريقات مهترئة لا تشبه الريش بقدْر ما تشبه حثالة الميناء وزبد الموج. وكانت المرأة تحمل نظَّارة ميدانية، في حين أنها تسلي مسامع زوجها بتعليقاتٍ فاحشة عن المراحل المختلفة لتبديل الآنسة لوفابل لملابسها.

علَّقت قائلةً: «إنها تتمتع بالجرأة، فهي لم تغلق الستائر لتبدِّل ملابسها. والآن خرجت إلى الشرفة بلباس النوم. حسنًا، لدينا رقم غرفتها. إنها الغرفة الثالثة من جهة اليسار.»

بعد دقيقة، أنهت تقريرها بنبرة انتصار.

«أطفأت الضوء وتركَت النافذة مفتوحة.»

نصحها أمور، الذي كان يرتجف في السرير، رغم أنه كان يرتدي رداءَ النوم: «تحقَّقي من الباقي».

ورغم أنه لم يسمع النبرة التي تنم عن آمالها في نجاحه المستقبلي، كان الرجل الضئيل — الذي أثارتْ حالته شفقة الآنسة لوفابل — يستعد بالفعل للمحاولة مرةً أخرى. إذا أكَّدت ملاحظات زوجته ما يتطلَّع إليه؛ فإن محاولته الثانية على شخصها وممتلكاتها ستكون مقرَّرة في الليلة التالية.

كان الناس في الفندق ينامون مبكرًا؛ لذا استطاعت السيدة أمور، بعد الثانية عشرة، العودة إلى سريرها.

قالت المرأة بابتهاج: «الأمر أكيد. هناك غرفة واحدة لم تُضَأ. من المؤكد أنها فارغة في مثل هذا الوقت من الموسم.»

قال أمور: «سأستأجرها غدًا.»

«وتتركني هنا دون وسائل الراحة الأساسية.»

«ومن الذي تعيَّن عليه الاختباء في تلك الأمطار التي استمرت طوال اليوم؟»

«ابتهِج ... يا إلهي، لقد استمتعتُ الليلة ببعض الضحك. كانت هناك خادمة عجوز عانس، لكنها تركت نافذتها مفتوحة. هذا ما أسمِّيه أمرًا مبشرًا.»

ربما لم تكن السيدة أمور ستطرب كثيرًا لو علمت أن السيدة المعنية — التي كانت أخت المدير — ستلعب دورًا في دراما الآنسة لوفابل أكثر أهمية من مجرد كونه دورًا كوميديًّا خفيفًا.

في اليوم التالي، كان الزوار في الفندق مهتمين بسماع قصة رومانسية. إذ أعلن اثنان من الزوار الذين جاءوا إلى سويسرا للتسلق — كلاهما طالبان جامعيان وينتميان إلى «جماعة أكسفورد» — عن خِطبتهما، حيث كانا مغرَمين كثيرًا، لدرجة أنهما لم يستطيعا إخفاء سعادتهما.

بَدَت فيفا متحمسة بشكل خاص للأخبار. وتساءلت الآنسة لوفابل وهي تطالع حماسها: هل كانت تنتظر هي نفسها الزواج.

صاحت، وهي تبتسم للشاب الذي كان يشع سعادةً وهو يتلقى التهاني: «انظروا إلى عريس المستقبل. إنه مشرق.»

زفر بكنجهام من أنفه بازدراء.

وقال: «أيُّ شاب يتقدَّم لخِطبة في عطلة فهو أحمق. إذ من المؤكَّد أنه سيخلط بين أسلوب الفتاة في العطلة وفي غيرها. أعرف رجلًا خطب فتاةً أثناء رحلة بحرية. وفي غضون عام انتهى الزواج. وقد اعترف لي بعد ذلك أنه تقدَّم لخِطبة المشهد الرائع حينها جانبَ الفتاة؛ لكنْ كان عليه أن يتزوج الفتاة فقط، ولم يكُن معجبًا بجوانبها الأخرى.»

فسألَتْه فيفا: «هل تُنَبِّهنا إلى ألَّا يحدونا الأمل، حتى تأتي لتطرق أبوابنا؟»

«لم أكُن أقصد سياقًا شخصيًّا. إضافةً إلى ذلك، لقد الْتقيت بالآنسة لوفابل في منزلها في لندن.»

تجنَّبت الآنسة لوفابل بكنجهام عمدًا طوال ما بقي من اليوم. صعدت المجموعة بأكملها إلى جبلٍ بريج في فترة ما بعد الظهيرة، ومن هناك خرجوا في مسيرة شاقة. ولم يكُن هناك رقص في المساء؛ لأن التعب كان قد نال من الجميع. ولم يلاحظ أحد وجود ضيف جديد، حيث تناول الرجل الضئيل المنزوي عشاءه في المطعم ولم يظهر في أيٍّ من القاعات العامة.

ولم تضيِّع الآنسة لوفابل أيَّ وقت قبل الذهاب إلى السرير. إذ سارعتْ إلى تبديل ملابسها، وتجاهلتْ تقديم تحيتها الليلية للجبال من الشرفة. بعد وقت قصير من وضع رأسها على الوسادة، راحت في نوم عميق.

وفجأةً، فتحت عينَيها وهي تنتفض. إذ قالت لنفسها: «هناك شخص ما في الغرفة.»

الفصل العشرون

كابوس

عندما رفعت نفسها على مرفقٍ واحد وحملقتْ في الظلمة، أدركت الآنسة لوفابل أن أنفاسها كانت تتسارع في حين أن ساعدَيها يخزانها، كما لو كانت تقف في مواجهة عاصفة رعدية. ولكنْ، على الرغم من أنها شعرت بالقلق والارتياب، فإنها كانت مرتبكةً لا خائفة. لم تستطع أن تفهم لماذا راودها هذا الانطباع بوجودِ دخيل. فمهما كان السبب — صوت خشخشة، أو زفير، أو حركة في الهواء — فإنه كان غيرَ محسوس على الإطلاق، ومجرَّد حيلة من حيل الخيال.

أضاءت الآنسة لوفابل المصباح ونظرت في أرجاء الغرفة. كانت الغرفة غير مرتبة جدًّا؛ لأنها تعجلت الخلود للنوم فألقتْ بملابسها على الأثاث والأرضية، ممَّا أعطى انطباعًا بأن الرياح قد عصفتْ بحبل غسيلها. ولكن بصرف النظر عن الفوضى، لم تستطع اكتشاف أيِّ شيء غير عادي.

فقالت في نفسها: «لا شيء هنا. ما الذي جعلني أجفل بهذا الشكل؟ أتساءل إن كان تأثير الارتفاع قد بدأ يظهر عليَّ مرة أخرى. أنا على ارتفاع حوالي ثلاثة آلاف قدم.»

كانت النافذة الفرنسية المفتوحة تعرض منظرًا يتألَّف من سماء الليل والجبل. ففكرت لِلحظة في إغلاق الستائر، ولكنها نبذت الفكرة. فكلُّ الزوار الذين تطل غُرَفهم على الشرفة كانوا فوق مستوى الشبهات، بينما كان الباب الخاص بها، والذي يؤدي إلى الممر، مغلقًا.

وتساءلت في نفسها: «هل ينبغي أن أنهض وأفتِّش الغرفة؟»

كان هناك مكانان فقط يمكن لأي شخص أن يختبئ فيهما؛ داخل خزانة الملابس وتحت السرير. عندما تخيلت نفسها منحنية لأسفل لتبحث عن رجلٍ؛ استحضر ذهنها دعابات المسارح الموسيقية القديمة، حتى إنها بدأت تضحك على الفكرة في حد ذاتها.

وبينما كانت تحاول بذل الجهد لمغادرة فِراشها الوثير، بدأتْ أهدابها ترتخي وشرعت في التثاؤب.

وأنذرت نفسها: «إذا لم أستلقِ مرةً أخرى في حين أنني ما زلت أشعر بالنعاس؛ فسيبدأ عقلي في العمل، وبعد ذلك سأظل مستيقظة لساعات.»

فأطفأت المصباح وأغمضتْ عينَيها وأرخَت عضلاتها. ولكنْ قبل أن تروح في النوم، كان عليها أن تطرد اثنين من الأوهام. الأول كان شعورًا بأنها لا تستطيع تذكُّر أنها فتحتْ حقيبتها أو أيَّ درْج، بما يتناقض مع الأدلة، وذلك رغم أنها لم تُعِد تجميع ملابسها المتناثرة؛ بل تركت كلَّ قطعة ملقاة حيث سقطت. أما الثاني فكان تذكيرًا غيرَ سارٍّ بغرفة فارغة تفتح أيضًا على الشرفة. كان باب هذه الغرفة على الممر مغلقًا؛ ولكن ربما سرق أحدُ موظفي الفندق المفتاح وخرج يبغي السرقة.

تطفُّل هذه الأفكار على ذهنها حرَمَها من الراحة الحقيقية. فمنذ أن جاءت إلى جريندلوالد وقد اجتمع العمل الجسدي الشاق مع هواء الجبل فجعلاها تنام نومًا عميقًا. لكن الآن، كانت سبعةُ أثمان حواسِّها مغمورةً تمامًا مثل جبلِ جليد؛ أمَّا الحاسة الوحيدة الباقية — والتي كانت يقِظة ومتحفزة — فكانت تقاوم النوم.

وبعد حلمٍ مُربِك وغير مريح بأنَّ هناك مَن يتتبعها ولا تستطيع رؤيته، استفاقت فجأةً على وقْع أصابع تلامِس وسادتها. كان هناك شخصٌ ما يميل عليها في الظلام. تحولت صدمتها إلى ردِّ فعل فوري حين أدركت حقيقةَ الموقف. إذ صرختْ صرخة تلقائية، ووجَّهت ضربة للجسم المعتِم بكل ما اكتسبتْ من قوة عضلية من تلميع الأرضيات.

أتعبها هذا الجهد الذي بذلتْ وآلمَتْها يدها. وبينما كانت تتنفس بصعوبة من الألم والغضب، أضاءت المصباح. لكنها كانت متأخِّرة جدًّا؛ فلم ترَ الرجل، ولكنْ عندما اندفعت إلى الشرفة، اصطدمتْ ببكنجهام.

كان شعره أشعث ويرتدي رداءً داكنًا. وقبل أن يتمكَّن من الكلام، صفعَت الآنسة لوفابل وجهه بقوة.

وقالت: «هذا سيُعَلِّمك ألَّا تدخل إلى غرفتي.»

فأمسك بيدها عندما كانت على وشك تكرار الصفعة.

وصاح في سخط: «ليكنْ جزائي الشنق لو كنتُ قد دخلتُ إلى غرفتكِ. لقد سمعتُ صرختكِ وظننتُ أنكِ قُتلتِ. لكن يبدو أن الأمر غير ذلك.»

«أوه ... آسفة. لم ... لم أكن في كاملِ وعيي عندما صفعتُك. ولكنْ، حقًّا، كان هناك رجلٌ في غرفتي.»

«هل رأيتِه؟»

«لم أرَه تمام الرؤية. كان الظلام يلفُّ المكان.»

بحلول الوقت الذي انضم فيه الضيوف الآخرون إليهما في الشرفة، بدأت الآنسة لوفابل تشعر أنها جعلتْ نفسها تبدو بمظهر الحمقاء. وقد أضافوا إلى ما بها من ارتباك، بالدخول إلى غرفتها الفوضوية والبحث فيها، لإثبات أنها كانت ضحيةً لكابوس وحسب. وقبل أن يعودوا إلى غرفهم كانت شِبه مقتنعة.

لم يكُن جميع الضيوف موجودين في الشرفة. بين الغائبين كانت السيدة فورس، والتي أرسلت كشَّافتها أوليفيا لإبلاغها بالمستجدات، في حين أنها كانت تحفظ أسرارها الخاصة. بقيت أيضًا أخت المدير في سريرها وتحملت الفوضى في صمت وتجهم. كانت تحتل موقعًا هامًّا في العالم الأكاديمي، وجاءت إلى سويسرا للتعافي بعد فصل دراسي شاق.

وبينما مرَّت الفتيات بنافذتها المفتوحة وهنَّ في طريقهن إلى غرَفهن، سمعتْ تعليق فيفا لأوليفيا.

«لا يمكنكِ أن تلومي رجلًا يجعل من نفسه أضحوكةً إذا كان يتوقَّع ترحيبًا.»

سجلت السيدة التعليق في ذهنها للرجوع إليه في المستقبل.

سرعان ما أصبحت الشرفة فارغة وهادئة مرة أخرى. ولكنْ كان هناك شخصٌ لديه نظر ثاقب — تصادف أنه كان ينظر في الاتجاه الصحيح — رأى شخصًا يتسلل من حديقة الفندق وعبَر الطريق إلى النُّزل المظلم.

كان الشخص المراقِب السيدةَ أمور، تعود إلى غرفة نومها في الطابق الأرضي عبر نافذتها.

في صباح اليوم التالي، تحت ضوء الشمس الساطع والهواء الجبلي المنعش، الْتَقت السيدة أمور بزوجها في مخبز صغير على الشارع الرئيسي. جلس الزوجان على طاولة مطليَّة على الرصيف، وكانا يشاهدان تيار السيَّاح المتضائل، حين كانا يرشفان شراب التوت الأحمر، للحفاظ على تقمصهما شخصيةَ المتنزِّهَين المسالِمَين. كانت المرأة لا تزال ترتدي رداءً من نسيج الجورجيت الأسود، مزينًا بفرو القرد، وصندلًا بكعبٍ عالٍ مكشوف الأصابع، كاشفةً عن أظافرَ قرمزية، لكنْ كان يبدو عليهما التعب والاستياء من فشلهما.

اشتكت السيدة أمور قائلةً: «كنت مزروعة في تلك الحديقة اللعينة، منتظرةً زمنًا طويلًا أن تُسقِط الأشياء. ما الذي حدث؟»

فأجاب أمور متذمرًا: «استيقظَتْ ولكمتْني في كِليتي.»

«ولماذا لم تحاول مرةً أخرى؟»

«لكي تكون في انتظاري بالقضيب الحديدي في المرة القادمة؟ مستحيل.»

«حسنًا … متى سننفذ؟»

«الليلة. ومن المؤكَّد أنها ستأخذ حذرها. كانت العلبة تحت وسادتها … لن تشكَّ فيَّ. وأنا سأتوارى. لقد طلبتُ أن يجلبوا قهوتي إلى غرفتي هذا الصباح.»

حكَّت السيدة أمور أنفها وهي تفكِّر.

ثم قالت متوقِّعةً: «ستغلق نافذتها الليلة، إلا إذا كانت مجنونة.»

فوافقها زوجها يقول: «من الآمِن أن تفعل ذلك. لكنني لن أدخل من النافذة. غرفتها بجوار غرفتي، وبينهما بابان موصلان. كلاهما مغلق بالطبع، والمفاتيح غير موجودة. سأتحصل على سلك معدني هذا الصباح، وإذا لم أستطع فتحَ تلك الأقفال سأطرح كل شيء وأنضم إلى الكنيسة.»

ثم لمعتْ عيونه بشراسةٍ وهو يُضيف: «سأحضر أدواتي معي وأقوم بالمهمة الليلة.»

نظرت السيدة أمور إليه بدهشة؛ لأنهما كانا لصَّين يتسمان بالجبن، لا يجازفان أو يخاطران، بل يفضِّلان استغلال الفرص التي يوفِّرها الآخرون، الذين يكونون قد قاموا بالفعل بالمخاطرة الأولية.

فحذَّرته: «قد يتطور الأمر ليصبح قتلًا غير عَمْد.»

«وقد لا يحدث. لقد درستُ الأمر. إنها تنام نومًا ثقيلًا في البداية. لقد تأخرتُ الليلة الماضية.»

«هل تشخر؟»

«كلَّا؛ لكنها تتنفس بعمق. ينبغي أن أعرف الليلة. سأضربها بهراوة قبل أن أبدأ المهمة … إنها آتيةٌ بصحبة رجل.»

أدارا كلاهما رأسه، وراحت عيونهما ترقُب نافذة متجر المعجنات، حيث مرَّت بهما الآنسة لوفابل وبكنجهام. لم يلاحظ أي منهما الزوجَين؛ إذ كانت الآنسة لوفابل تثبِّت نظرها على الجبال، حين كان بكنجهام يُشعل غليونه.

وبينما كان أمور يحملق فيها، كانت نظراته على ظهرها القوي وساقيها المستقيمتَين المُسْمَرَّتَين تنمُّ عن غيظ. لم تكن ترتدي قبعة، وكان شعرها يتلألأ في ضوء الشمس. وجَّه أمور في خياله ضربةً لذلك الرأس الجميل … ورآه وهو ملطَّخ ببقع الدم واستنشق نفَسًا عميقًا ينمُّ عن الرضا.

لم تُظهِر الآنسة لوفابل أيَّ أثر لَمَا أصابها من اضطراب ليلة أمس وهي تصعد بسهولة على المنحدر الحاد. كانت عيناها الزرقاوان هانئتَين وسعيدتَين، تعكسان انتعاش رُوحها. كانت قد تناولت الإفطار مبكرًا لتجنُّب تشهير غير مرغوب فيه.

وقالت تعترف لبكنجهام: «أشعر أنني كنت حمقاء جدًّا ليلة أمس. يبدو أن كل مَن بالفندق يظنون أنني كنت أحلم.»

فقال يصحِّح لها: «نصف الفندق فقط. فالنصف الآخَر يظن أنني اقتحمتُ عليكِ الغرفة.»

«حمقى.»

«ما رأيكِ أنتِ فيما حدث ... إن كنتِ قد كَوَّنتِ أيَّ رأي؟»

قطَّبت الآنسة لوفابل جبينها وهي تفكِّر، حين تجول ببصرها في الأفق.

وأجابته: «أظن أنه كان هناك الْتِباس. أخبرني أحد أولاد وارتون، هذا الصباح، أنه يوجد رجل في الغرفة المجاوِرة لغرفتي. وصفه بأنه ضئيلُ البنية. من المحتمَل أنه تجول في الشرفة، لينظر إلى القمر أو الجبال، وأخطأ بابي المفتوح ببابه. إن كان قد فعل ذلك، فقد ذكَّرتُه بالمكان ونبَّهتُه بعنف. فقد ضربتُه بجنون.»

لم يشاركها بكنجهام الضحك. إذ كان يستمع بتركيز وهي تتحدث.

«الأمر الغريب هو أنني استيقظت قبل ذلك، وظننتُ أن هناك شخصًا في الغرفة. أتعرف ذلك الشعور، عند الشعور بأن في المكان أحدًا ما؟»

أومأ بكنجهام برأسه في حين أن الجدية بدت على شفتيه.

وقال لها: «عديني أنكِ ستُغلقين النافذة الليلة.»

سألته: «تقصد خزانة اللحوم تلك؟ لا أستطيع النوم دون هواء.»

«إذن بدِّلي غرفتكِ.»

«كلَّا، لا عليك. سأضع كرسيًّا أمام النافذة، وسأضع أجراس البقر الخاصة بي. إذا حاول أحد الدخول، فسيوقظني الضجيج.»

«ليست فكرة سيئة. ومع ذلك، كنت أتمنى ألا أغادر الليلة.»

علَّقت الآنسة لوفابل: «سيبدو الحال غريبًا من دونك.»

شعرت لوفابل بالذنب من شعورها بالراحة؛ لأنها كانت ترحب بفرصة العودة إلى سياسة الانعزال التي تتبعها، وفكاكها من التورط العاطفي. وعلى الرغم من أنها وعدتْ بعدم الكشف عن هوية فيفا مبكرًا؛ فإنها لم تستطِع مقاومة طرح الموضوع. في الوقت

الحالي، كانت تشعر بالامتنان لفيفا بسبب طريقتها الماهرة في إزالة أبرز ما كان ظاهرًا للناس عندما اقتحم الضيوف الآخرون غرفةَ نومها الفوضوية بشكل مخزٍ ليلة البارحة.

فسألتْه: «أصحيح أنكَ لا تحبُّ سيدات الأعمال؟»

أجاب بكنجهام: «أنا لا أعرف سيدةَ أعمال.»

«ستعرف ... ستعرف. كيف ستشعر إذا تزوجتَ سيدة أعمال وكانت شابَّة وجذَّابة وقد عملتْ على تأسيس عملٍ رائع بذكائها وجهدها؟»

«سأعتني بها. وسأعتني بدفاترها وسجلاتها. لا ينبغي أن يكون هناك أسرار بيننا. أهي أنتِ؟»

«كلَّا.»

«إذَن لماذا تسألينني؟»

«لأن المرء لا يعرف ما يخبِّئه له حظه.»

ثم سارا قليلًا في صمت كسره بكنجهام.

إذ سألها فجأة: «ما اسمكِ؟»

صُدِمَت الآنسة لوفابل قليلًا من السؤال المفاجئ. كانت قد اعتادت أن تفكِّر في نفسها من حيث اللقب، وحتى عندما أخبرتْه به شعرت بالشك في هويتها.

فارتسم على وجهه تعبير ينمُّ عن استياء.

وقال معترضًا: «كلَّا. كلَّا. سأدعوكِ «فلورا».»

الفصل الحادي والعشرون

نقطة المباراة

لم يرَ المدير أخته في ذلك اليوم حتى الْتَقيا لتناول الغداء. وقد لاحظ على الفور العلامات المألوفة للأرق في ملامحها، التي كانت تنم عن الإرهاق، وعينَيها الغائرتَين.

فسألها: «ألَمْ تنامي جيدًا؟»

أجابته: «كلَّا. كان هناك الكثير من الأحداث المثيرة في الليل.»

على الرغم من أنها كانت تشعر بالتعب والانفعال، فإنها حاولتْ أن تعطي أخاها تقريرًا غير متحيز عمَّا حدث.

فأخبرتْه: «لا ينبغي ألَّا تستنتج أنني أُلقي بأي تعليق على شخصيةِ الفتاة. فهي تبدو لطيفة جدًّا. لكنْ للأسف، يبدو أنها تجذب انتباهًا غير مرغوبٍ فيه. قد تكون لهاتَين الساقَين العاريتَين علاقةٌ بذلك؛ وليس معنى هذا أن هناك أيَّ ضرر في ارتداء السراويل القصيرة.»

فارتسمت ابتسامة على وجه المدير الصارم.

وقال: «كنت أشعر بالخجل بشأن ساقاي عندما ارتديتُ الجوارب أول مرة. والآن أنسى أنني لا أرتدي سروالًا. ربما اعتادتْ ارتداء السراويل القصيرة لدرجة أن الأمر لم يعُد يثير انتباهها ... ومع ذلك، لا أحب فكرة قضائكِ الليالي في نومٍ متقطع.»

وافقتْه أخته، قائلةً: «ولا أنا. لا تقلق. أنوي اتخاذ بعض التدابير في هذا الشأن.»

جرتْ مقابلة السيدة مع مالك الفندق بعد الغداء. بينما كانا يتحدثان، نزلت الآنسة لوفابل الدرَج المسطَّح إلى الصالة محدِثة قعقعةً أثناء نزولها.

فتقدَّم المالك لِلقائها.

«يُحزنني بشدة أن أعرف أنكِ تعرضتِ للإزعاج الليلة الماضية. لم يحدث أن وقع مثلُ هذا الأمر من قبل في فندقي. لا أستطيع أن أفهمه على الإطلاق.»

وافقَت الآنسة لوفابل بنبرةٍ صارمة: «ولا أنا. مثل هذا الأمر لم يحدث لي من قبل في أي فندق.»

رأت أخت مدير الفندق أن الوقت مناسبٌ للتدخل.

فقالت: «لا بد أن الأمر غيرُ مريح للغاية. الأمر المهم هو تجنُّب تكرار هذا الإزعاج. يتساءل أخي إنْ كنتِ تشعرين براحة أكثر في غرفته. إنها في الخلف وليس بها شرفة. إذا راقت الفكرة لكِ، فسيبدِّل غرفته معكِ.»

شعرت الآنسة لوفابل للحظة أنها تميل لرفض الاقتراح. إذ كان التغيير يعني فقدانها لمنظر الجبال. ولكنْ، بينما كانت مترددة، أدركتْ فائدةَ القدرة على النوم دون ترقُّب متسلِّل محتمَل.

فقالت: «شكرًا لكِ. سيسرُّني أن أقبل عرض أخيكِ. بصراحة، سيكون الطرف الأكثر استفادة من الصفقة؛ لأن غرفتي تطلُّ على منظر ساحر. لكن يهمني أكثر أن أنام نومًا عميقًا.»

وافقتْها أخت المدير بنبرةٍ جافة وقالت: «هذا رأيي أنا أيضًا.»

وحيث كان كلٌّ من المدير والآنسة لوفابل يحوزان الحد الأدنى من الأمتعة، سرعان ما جرى تبديل الغرفتَين. لم يعرف أمور شيئًا عن ذلك، حيث كان يأوي إلى النُّزل خلال النهار، خوفًا من أن تتعرَّف عليه الآنسة لوفابل وتشكُّ في أنه قد تبعها. وكان قد ابتاع كلَّ حاجاته ولوازمه واستلقى على سريره يدخن حتى يخلو له الجو فينسلُّ عبر الفندق ويعمل على فتح أقفال غرفة النوم.

وبوصف زوجته ضابطةَ استخباراته، كانت تجلس عند النافذة تراقب الفندق من خلال نظاراتها الميدانية. وفجأةً صاحت صيحةً رفيعة.

وأعلنت: «أنا متأكدة أنها بدَّلت غرفتها. لم أرَها ولو مرَّة واحدة. والآن هناك قسٌّ يقف عند نافذة غرفة نومها. يدخن الغليون أيضًا.»

فسأل أمور بعد فاصل من الألفاظ البذيئة المناسبة: «إذَن ما العمل؟»

قالت زوجته على الفور: «لقد انتهى عملك بالفندق. لا شيء تفعله هناك. ستوصد بابها، ولا يمكنك المخاطرة بأن يُلقى القبض عليك في الممر ... لكنها ستحمل المجوهرات معها. فهي لن تتركها على طاولة الزينة لتنظفها عاملة تنظيف الغرف بالمسحوق.»

فقال أمور موافقًا: «في حقيبة حول رقبتها. أو في جيوب سرية في سروالها. سيتعين علينا تتبعها عندما تكون وحدها.»

بدا هذا الاحتمال بعيدًا جدًّا عن الآنسة لوفابل. كان يومها مضطربًا بسبب رحيل بكنجهام إلى إنجلترا. ولم ترغب في الخروج في نزهة منفردة — إذا كان ذلك ممكنًا — حيث كان الوقت المتاح له قصيرًا جدًّا. وعندما عادت إلى الفندق لتناول الغداء، كانت هناك رسالة جعلتها تشعر باضطراب أكثر. كانت من إلسي، وعندما قرأتها قررت أن تجعل عودتها قريبة جدًّا.

> «توقف الكابتن براون عن عمليات القتل [هكذا كتبت الخادمة] التي كان يرتكبها. يقول الآن إنه يريد أن تكون الحديقة مليئة بالزهور من أجلكِ. وقد نبَّهتُه إلى أنني أريد ملء مزهريةٍ في المنزل بالزهور ترحيبًا بكِ، وأنكِ إذا وجدتِ أن شيئًا ليس على ما يرام فستعرفين ما ينبغي فعله.»

ابتسمَت الآنسة لوفابل من الإشارة إلى أنها تُستخدَم في تهديد الكابتن براون والسيطرة عليه. ثم ظهَرَ الحنين في عينَيها عندما قرأت الملاحظة المذيَّلة.

«زجاجات الماء الساخن في سريركِ. وهناك اثنتان أخريان خارجه. يمكنكِ تخمين أسمائهما. إنهما يُرسلان إليكِ أشواقهما.»

فقررت الآنسة لوفابل: «حان الوقت لأعود إلى البيت. لم تكُن هذه عطلةً سعيدة، لكنني لن أنهزم. سأعود مرةً أخرى، قبل الآخرين.»

وبينما كانت أفكارها تجنح بها إلى إنجلترا، كانت إلسي تعيد قراءةَ آخِر رسالة لها على مسامع جمهور متضجِّر يتألَّف من سكوتي وديفيد. كانت هناك نبرة حسم في الرسالة، تبدو كأنها تقرِّب سيدتها من العودة إلى البيت.

> «ستكون هذه آخر رسائلي [هكذا كتبت الآنسة لوفابل]. ولا تراسليني بعد اليوم. سيكون عنواني غيرَ محدد؛ فقد أذهب إلى باريس. لكن انتظروني لتناول الشاي معًا في منزل البحيرة في الرابع عشر من سبتمبر. أتمنى لو كان بوسعي أن آتي إليكم مباشرةً. تذكري أن يكون سكوتي وديفيد حاضرَين لاستقبالي. أريد ترحيبًا حقيقيًّا بعودتي إلى البيت. أعلم أنني أستطيع الاعتماد عليكِ.»

وبينما كانت إلسي تبتسم، سمعتْ صوت الباب الأمامي يُفتَح، ووقْع خطوات ثابتة. وللحظة، تصورت إلسي أن الآنسة لوفابل في المنزل. لكن، حين كانت تنتظر صوت الضحك — الذي كان كالموسيقى لعقلها الكئيب — أعلن صوت الآنسة أجاثا بِيت عن وصولها.

فكرت إلسي: «إنها مصرَّة على أن نكون جميعًا هنا. إذا ذهبتُ إلى لندن، ستكشف أمري. لن أقول شيئًا للآنسة بِيت، في نهاية المطاف.»

لم تكُن الأمور تسير بشكلٍ جيد بالنسبة لجريمة قتل السيد هنري واتكينز المؤجَّلة. إذ قررتْ إحدى السيدتَين إلغاء زيارتها إلى المنزل رقم تسعة عشر بمنطقةماديرا كريسنت، في حين أن الأخرى رتَّبتْ لجلب صديقها؛ لتولِّي أمرِ أي اهتمامات شخصية ...

كان بكنجهام سيغادر سويسرا بواسطة القطار الليلي من إنترلاكن، فكان الشاي هو آخِر ما يتناوله في جريندلوالد. وعندما انتهى، طلب من الآنسة لوفابل أن ترافقه في زيارة وداعٍ سريعة إلى الوادي. سارعا الخطى طوال الطريق حتى تجاوزا المنعطف الأخير، حيث انحنيا على الحاجز وشاهدا تيار الماء وهو ينجرف فوق الصخور.

قال بكنجهام، وهو يفتح محفظته: «كنت أجمع العناوين. وعلى الرغم من همجيتي الكامنة، فقد طلب الناس مني أن أزورهم. وأنا ذاهب الآن لزيارتهم.»

ثم ألقى بحفنة من بطاقات الزيارة في النهر.

وعلَّق يقول: «يؤسفني جدًّا أنكِ لستِ في المنزل.»

سألتْه الآنسة لوفابل وهي تشير إلى دوامة من الزبد: «هل آل فورس هناك؟»

فأجابها: «كلتاهما. لقد أبقيتُ على بطاقة واحدة فقط. بطاقة فيفا. أنوي أن أزورها.»

«هل تروقك؟»

«بالطبع. فهي تتمتَّع بصفاتٍ تروق معظم الرجال. لم أرَها منزعجةً أو حادة الطباع ... وبالمناسبة، أنا قادم إلى هايفيلد. هل يمكنني أن أعرِّج عليكِ؟»

«نعم. تفضل.»

قالت الآنسة لوفابل ذلك بحرارة وودٍّ. أرادت لبكنجهام أن يراها في بيئتها الخاصة، حيث تكون معزَّزة ضدَّ أي هجوم من المشاعر. كان منزل البحيرة يمثِّل مملكتها التي لم تكُن تنوي مشاركتها مع زوج.

وأضافت: «ستلتقي سكوتي وديفيد.»

«ديفيد؟»

«قطي الفارسي الأزرق. لماذا تضحك؟»

فأوضح لها قائلًا: «اسمي «ديفيد».»

«أليس اسمك «ريتشارد»؟»

«عُمِّدتُ باسم «ريتشارد». لكنَّ أمي كانت تقلِّد الآخرين. لم يكُن أمرًا ممتعًا لها أن تكون قريبةً فقيرة؛ لأنها كانت تريد الكثير، مثل ابنها الغالي. لكنَّ تقليد العائلة الملكية لم يكُن يكلِّف شيئًا، لذا تم تغيير اسمي تيمُّنًا باسم أمير ويلز.»

تأثَّرت الآنسة لوفابل بهذه الأخبار تأثرًا غير متناسب؛ لأن امرأة غجرية كانت قد رسمت حرف «د» في راحتها ذات مرَّة، وأخبرتها أنه الحرف الأول من اسم الرجل الذي ستتزوجه.

فقالت باقتضاب: «ستُفَوِّت قطارك.»

ركضا طَوال الطريق عَبْر الغابة الباردة والرطبة التي تتخلَّلها المياه الجارية، ولكنْ بعد أن عبرا جسر نهر لوتسكين، أبطآ وتيرةَ خطوهما ليتمكَّنا من صعود التل.

وقال بكنجهام: «أنهيتُ أموري في الفندق، وحقائبي تُنقَل إلى المحطة. ينتظرني العمدة ومعاونوه في المحطة لتوديعي رسميًّا ... لن أقول لكِ «وداعًا»؛ لأنني سألتقي بكِ قريبًا في قطار فيكتوريا. هذا يذكرني بأمرٍ ما. واتَتْني فكرة.»

سألته الآنسة لوفابل: «ما هي؟»

فقال: «فكرتي كالتالي: لن نتناول العشاء في الطريق إلى المنزل. فَلْنشترِ الطعام ونأكله في منزل ماديرا. إذ يمكننا أن نطبخ بعض الطعام. كالنقانق والبطاطا المهروسة.»

قاطعتْه الآنسة لوفابل: «كلَّا. سمكًا مدخنًا.»

فقال: «ما دُمنا سنحافظ على الرقي واللباقة، سأقبل بأي شيء. وسأصنع القهوة.»

«إن تجرأتَ على لمس موقدي ...»

«سأغسل الأطباق إذَن.»

«وتعبث بحوضي؟»

فقال: «هذه هي الفكرة. أريد أن أراكِ تعملين ... يا فلورا.»

فجأةً أدركت الآنسة لوفابل كيف يسهُل للمداعبة الرائعة بينهما، أثناء إعداد وجبتهما، أن تكون مقدمةً لحياة زوجية. وقد أعجبتْها الفكرة؛ لأنها كانت من مناصرات قضاء شهر العسل في اللعب والشجار بالوسائد، حيث كانت ترى العلاقة العاطفية أمرًا صاخبًا يبعث على الفرح.

كانت تحبُّ المزاح وتبادُل المشاكسة التي تستطيع فيها أن تردَّ الضربة بالضربة. فتخيَّلتْ مطاردةً مجنونةً صعودًا وهبوطًا على الدرَج، وفي أرجاء المنزل، حيث تلعب دورَي الصيَّادة والفريسة. وتذكرتْ أن «ديفيد» السابق — بعدما قبَضَ عليها — أفقدها توازُنها فأسقطها وقبَّلها.

كانت هذه الخطوة الأُولى — التي ستؤدي إلى الخطوة الثانية الحتمية — عندما يهدِّد بكنجهام حديقتها الصغيرة.

فجأةً أصابها الخوف وهربتْ للاختباء في الزاوية المحتجبة في عقلها. ومع أنها كانت صادقة بطبيعتها، فإنها أُجبِرَت على الكذب.

وإنْ كان صحيحًا أن الآنسة لوفابل كانت تحميها قوة حميدة خيِّرة — كانت تشارك في مباراة لحمايتها من مصيرٍ خبيث — يبدو أنَّ حظها قد فاز. إذ كانت محمية من الهجوم على شخصها بنقلها إلى غرفة نوم لا يمكن اختراقها؛ كان ثمَّة حارس شخصي قوي يحميها من هجوم على حياتها.

لكن تبيَّن أنها هي عدوة نفسها، وكانت مدفوعة في ذلك بحافز مُهلك.

إذ قالت، وعيناها تتوسلان في مواجهةِ طغيان إرادتها: «أودُّ ذلك. لكنني غيَّرت خططي. سأقضي الليلة في لندن، حتى أتمكَّن من قضاء يومٍ إضافي هنا. سأكون في فيكتوريا في الرابع عشر من سبتمبر.»

بحلول هذا الوقت، كانا قد وصلا إلى المحطة، حيث كان هناك حشد جليل من الفندق ينتظر لتوديع بكنجهام. ولم يتحدث بكنجهام مع الآنسة لوفابل حتى بدأ قطاره يتحرك مغادرًا.

فصاح بالفرنسية: «إلى اللقاء» ثم أكمل جملته بالإنجليزية: «حتى الرابع عشر من سبتمبر.»

الفصل الثاني والعشرون

كوب قهوة

غادرت الآنسة لوفابل جريندلوالد في الحادي عشر من سبتمبر، قبل يوم من الموعد الذي كانت قد حددته. كانت السيدة فورس هي السبب غير المباشر في تغيير خطتها. بعد رحيل بكنجهام، لم يكن هناك رجال غير مرتبِطين في الفندق، باستثناء القس. فعندما تأكدت من حقيقة أن له زوجةً مريضة في الدير، قررت السيدة فورس الذهاب إلى مكانٍ آخر.

قالت: «قد نجرب الذهاب لساحل دلماسية. لقد حصلت على قسط راحتي بالفعل، لذا يجب ألَّا أكون أنانية. أوليفيا تريد بعض الحياة الاجتماعية مرة أخرى. في كل الأحوال، سنذهب إلى مكانٍ أنيق.»

لاحقًا علَّقت الآنسة لوفابل قائلةً لفيفا: «آمل أن تلتقي برجلٍ لطيف. إنها من النوع المهمَل والتي يمكن أن تكون أفضلَ زوجة.»

كانت الآنسة لوفابل دائمًا ودودةً فيما يتعلق بموضوع الزواج لأي شخص غيرها، لكن فيفا لم تشاركها حماسها.

فقالت: «لا أمل لها. إنها لا تتمتع بأي سحر بالتأكيد. ينبغي أن أبدأ العمل على وجهها بإزالة أسنانها الأمامية.»

شهقت الآنسة لوفابل وقالت: «لكنَّ أسنانها مثالية. حتى لو كانت بارزةً قليلًا؛ فإنها تضفي على وجهها شخصيتها.»

«لكنها توحي بأنها شيء يُؤكَل به.»

«وفيمَ تستخدم الأسنان لغير ذلك؟»

«لنبتسم بها. وميض اللون الأبيض يوفر التبايُن مع أحمر الشفاه. كما أنها ضرورية أيضًا لدعم هيكل الوجه.»

بحلول هذا الوقت، اكتشفت الآنسة لوفابل أن فيفا ليس لديها رُوح دعابة. عندما تذكرت تقدير بكنجهام المادح لصفاتها، تساءلت إن كان هذا يمثِّل مصدرَ جذب آخَر في رأيه.

وبعد أن غادر آل فورس جريندلوالد، صارت فيفا تمنح الآنسة لوفابل رفقتها الحصرية. كان هدفها هو رعاية ليدي بونتيبول في المستقبل، الأمر الذي كانت تعتبره دعايةً لا تُقدَّر بثمَن.

أوضحت قائلةً للآنسة لوفابل: «إذا ضمنتِ ملكة النحل، سيتبعها السِّرب.»

اعترضت الآنسة لوفابل قائلة: «السرب كله من النحل العامل. لا يوجد وقت لتجميل الوجوه في مجال صناعة العسل. فضلًا عن ذلك، أخبرتكِ بالفعل أنني لا أملك أيَّ تأثير على ليدي بونتيبول.»

«أنتِ متواضعة جدًّا. لا عليكِ. فقط فكِّري في الأمر.»

وبدلًا من اتباع نصيحتها، أصبحَت الآنسة لوفابل مصابةً بشيء من الدبلوماسية السائدة؛ حيث حاولت إقناع فيفا بالانضمام إلى آل فورس.

فقالت لها: «يجب ألَّا يُهدَر شبابُكِ وتُهدَر جاذبيتكِ الشديدة في هذه البرية.»

لكن للأسف، أبدَت فيفا صلابةً في مواجهة هذا المقترح.

فقالت: «لقد أمر طبيبي بثلاثة أسابيع من الراحة والهدوء التام لأعصابي. لذا سأبقى ثلاثة أسابيع لا تقِلُّ يومًا … كلما كنت أجرب علاجًا جديدًا للوجه، كنت دائمًا ما أتبع الصيغة بأمانة، حتى إن تعارضتْ مع تقديري.»

سألت الآنسة لوفابل، وهي تحدق بتشكُّك في وجه فيفا رابط الجأش تمامًا، والذي رأت بشكل مبهم أنه يشبه صَدَفة مزخرفة: «هل قلتِ: «أعصاب»؟»

«نعم. نتيجةً للإرهاق. فقد تركتْني إحدى فتياتي لتنشئ عملًا لنفسها. في الواقع كنت أستلقي وأظلُّ مستيقظة وأتساءل إنْ كانت ستأخذ أيًّا من عملائي. هذا سيخبركِ عن حالة أعصابي.»

«لماذا لا تجمعي بين عملكِ واهتمامٍ آخر؟»

«سأفعل ذلك. أنوي الزواج.»

كانت خطة فيفا مزيجًا دقيقًا من الضراوة واللباقة، بحيث لم تكن الآنسة لوفابل ندًّا يضاهيها. وحيث كانت طيبة القلب جدًّا لدرجةِ ألَّا تصارحها بقسوة؛ فقد تخلَّت عن محاولاتها للذهاب في جولاتٍ ونزهات طويلة بمفردها.

فهمستْ للجبال قائلة: «في المرة القادمة.»

لكنها لو تمكنتْ من التخلص من مرافقتها، لكانت وجدت رفقة أخرى. ذلك أن الزوجَين أمور كانا يتعقبانها، يتحيَّنان فرصةً لتجربة تلك التكتيكات المفاجئة التي لا تتناسب مع طِباعهما. فكلما خرجتْ شخصية نسائية وحيدة من الفندق، كانا يتبعانها مثلَ الظلال الخبيثة، حتى اللحظة المحتومة التي تلتقي فيها بامرأةٍ أخرى.

بدا لهما أن هذه الحراسة المستمرة دليلًا آخر على أن الخادمة ترتدي زيًّا أكثر تكلفةً مما تدل عليه قيمتها الظاهرية. وفي الليلة التي سبقتْ مغادرتها لجريندلوالد، حصلا على تأكيدٍ آخَر لنظريتهما.

غادرت الآنسة لوفابل الفندق بعد العشاء لتشتري البرقوق الأخضر لرحلتها بالقطار. سارت إلى كشك الفاكهة المفضَّل لديها في طرفٍ من القرية، وقد كانت الإضاءة في المكان ضعيفة جدًّا. وكان الشارع مزدحمًا بمجموعة من الطلاب الصاخبين الذين يغنون ويصرخون عند عودتهم من عطلةِ تخييم.

وخلصت الآنسة لوفابل إلى أن أحدهم كان، ولا بد، غير حذِر في التعامل مع عصاه؛ لأنها أثناء مشاهدتهم شعرت بكاحلها ينعقف فجأة.

وبدلًا من أن تمسك بطاولة كشك الفاكهة، سقطت الآنسة لوفابل على وجهها. ذلك أن الغريزة التي ستجعل معظم الناس يحاولون حماية أنفسهم قد غلبها دافعٌ أقوى منها، ألَا وهو الاحتفاظ بعلبة المجوهرات. إذ كانت تحتوي على تذاكرها، وأموالها، وجواز سفرها الثمين.

وفي الظلام وفي أثناء الفوضى والتشوُّش، لم تلحَظ الرجل الصغير اللطيف الذي كان يرتدي قبعة من الصوف تغطي عينَيه، والذي ساعدها على الوقوف. ولم تلحظ أيضًا أن المرأة التي بجانبه كانت تحمل حقيبةً يمكن أن تكون بديلًا لحقيبتها الخاصة، لو كانت قد سقطت على الرصيف.

وحتى تفاؤلها القوي لم يكُن منيعًا أمام هذه المصيبة الأخيرة. فقد جُرِحَت ركبتها وأُصيب ذراعاها بكدماتٍ عندما سقطت. كما انسلَّ آخر جورب كان لديها، حين انفكَّت خياطةُ تنُّورتها الساتان السوداء، التي كانت تشكِّل نصف زيِّها المسائي.

شعرت الآنسة لوفابل بالحيرة بسبب ذلك الحادث، حين سارت تتعثَّر وتترنح في طريق عودتها إلى الفندق، حتى إنها انهارت في الكرسي الأول في الشرفة وتحدثت باندفاع.

«هل تؤمن بالحظ؟»

طرحَت السؤال على أقرب شخص وجدتْه قبل أن تتعرف على ملامح القس التي توحي بالذكاء والحكمة.

ثم قالت: «أوه، أنا آسفة. أظن أنني لا ينبغي أن أطرح عليك أنت تحديدًا هذا السؤال.»

فابتسم القسُّ وقال: «ولمَ لا؟ إن الحظ دائمًا ما يمثِّل موضوعًا مثيرًا للنقاش. على الرغم من ذلك، أنا لا أومن به. إيماني الشخصي هو أن كل شيء يجري كما قَدَّره الرب.»

فقالت الآنسة لوفابل بإصرار: «لكنَّ الأحداث الكبيرة تتأثر بالتفاصيل الصغيرة.»

«لا أتفق مع هذا القول. إنما هي شخصياتنا التي تحدِّد القَدَر. قد تعتبرين أن لديكِ دليلًا على أن بعض الأحداث الهامة تعتمد على حدثٍ غير مهم. لكنْ في الواقع، ردَّة فعلكِ تجاه هذا الأمر الصغير كانت هي ما طوَّر الوضع.»

وبينما كان القس يتحدث، تذكرَت الآنسة لوفابل الرغبة التافهة في تأكيد أهميتها في «كلاين شايديج» التي أدَّت إلى تعرفها على الليدي بونتيبول، ومن ثَم إلى احتكار فيفا لرفقتها.

فقالت ببطء: «أعتقد أنك محِقٌّ. مثال ذلك تلك الليلة التي دخل فيها الرجل إلى غرفة نومي. لقد انهرتُ تمامًا. لو كانت لدي شخصية أكثَر توازنًا؛ لَمَا فقدتُ شُرفَتي ومنظر الجبال.»

فذكَّرها القس: «يمكن تدارُك تلك المحنة، والليلةَ إذا أردتِ.»

«أوه، كلَّا لم أقصد ذلك. دائمًا ما أتكلم دون تفكير. كان لُطفًا شديدًا منك أن اقترحتَ ذلك. على أي حال، لا يستحقُّ الأمر الإقدام على أي تغيير الآن.»

وبينما كان القس يدخن في صمت، عادت إلى مناقشتها.

«مع ذلك، أنا أومن بالحظ؛ لأنني كنت محظوظةً بشكل استثنائي. الأمور تسير دائمًا على ما يُرام بالنسبة لي. كل شيء ما عدا هذه العطلة. كنت أتطلَّع إليها، ولكنَّها كانت مخيِّبة لآمالي. لقد ساء كل شيء من بدايتها إلى نهايتها.»

فقال القس: «لقد نسيتِ شيئًا. أنتِ لم تصلي بعدُ إلى النهاية. أنتِ تُصدرين حُكمًا مبكِّرًا. فوجهة نظركِ تقتصر على معرفتكِ الحالية، وقد يكون كلُّ حادث جزءًا مقنَّعًا من حُسن الطالع. وعندما أقول «الطالع»؛ فأنا لا أعني «الحظ».»

قالت الآنسة لوفابل بنبرةِ شك: «آمل أن تكون محقًّا. سأعود إلى الوطن غدًا.»

«إذَن أتمنى لكِ «رحلة ميمونة».»

غادرت الآنسة لوفابل جريندلوالد وهي في أفضل حالاتها، فكانت البَرَكة حصنَها وأشعة الشمس مصدرَ بهجتها. كانت تستطيع تحمُّل النظر إلى قمة جبل أيجر المغطاة بالثلج دون الشعور بالألم؛ لأنها كانت تتطلَّع إلى لمِّ الشمل في ظروفٍ أكثر سعادة. ومن اللحظة التي دخلتْ فيها القطار الخشبي الصغير، شعرت أنها في طريق عودتها إلى منزل البحيرة المحبَّب لها.

وسمحتْ لنفسها بالتجول طويلًا في إنترلاكن. وأثناء تجوُّلها في شارع هوهيويج، كانت بين الفينة والأخرى تنتقل ببصرها بين قمة يونجفراو البيضاء اللامعة والزهور الرائعة في حدائق الفنادق. كان هذا التردِّي في هوة تعظيم الجبال ناتجًا عن عودة الحياة فيها إلى روح البستانية. وعندما وصلت إلى المتاجر الحديثة الأنيقة، كانت تتباطأ أمام الساعات والدانتيل حتى تشبَعَ ممَّا هو معروض في النوافذ.

بعد ذلك عبرَت الجسر، حيث كانت المياه الزرقاء والخضراء لا تزال تتلاطم وتتسابق بعد مرورها الأخير عبر أحد السدود، وسارت حذاءَ النهر عائدةً إلى محطة إنترلاكن-أوست. ثم جلستْ إلى طاولة تحت أشجار القسطل الصفراء قُبالةَ فندق دو لاك، وطلبتْ كوبًا من القهوة، لتمضية الوقت. وعندما فتحتْ علبة سجائرها، تقدَّم رجل صغير مهذَّب فجأةً بعود ثِقاب مشتعل.

وقال لها: «اسمحي لي.»

وعندما رفعتْ نظرها لتشكره، لاحظتْ رفيقته وتعرَّفت عليها من زيِّها الأسود الرقيق والمزيَّن بفرو القرود. كان الجالسان على الطاولة المجاورة هما الزوجَين المتباينَين اللذين لاحظتْهما من قبل؛ مرةً في محطة فيكتوريا، وبعدها في قطار يونجفراويوخ.

كان الزوجان أمور متأهبَين لاتخاذ إجراءات يائسة، وكانا قد وضعا خطةَ حملة لتغطية عدة احتمالات. كان آخِر أمل لهما في اغتراف الثروة يعتمد على جرأتهما ومهارتهما في الاستفادة من الرحلة إلى إنجلترا. رطَّبت السيدة أمور بلسانها شفتَيها المصبوغتَين في توتُّر ثم ابتسمت للآنسة لوفابل.

وقالت: «عذرًا. ألمْ نلتقِ من قبل؟ أعني، على الجبل؟»

سألت الآنسة لوفابل وهي تتذكر بصعوبة: «أي جبل؟»

«الجبل ذو الاسم الطريف. من الغريب أن نواصل لقاء الأشخاص أنفُسِهم هنا، حتى ينتاب المرء شعور بأنه يعرفهم. إذا كانوا إنجليزيين أعني، مثلكِ ومثلنا. لكنْ يمكن للمرء أن يجلس إلى جانبهم في كورنر هاوس لسنواتٍ ولا يحدِّثهم.»

ولمَّا لم تُبدِ الآنسة لوفابل أيَّ تجاوب، بدأ أمور بالاعتذار.

«اعذريها يا سيدتي. فهي تشتاق للوطن. تريد العودة إلى طفلتها.»

أدركَت السيدة أمور أن التعليق كان خطأً، بالنظر إلى حقيقة أنَّ الوصيفات ينبغي ألَّا يحملنَ أعباءً. ثم تذكَّرت أعمال الليدي بونتيبول الخيرية — والتي تضمَّنت الرفق بالحيوان — فألهمتْها محاولتَها التالية.

فقالت بنبرةٍ تنطوي على الشكوى: «هذه وقاحةٌ منه. طفلتي هذه قطةٌ صغيرة. يا إلهي، هي تعرف معنى كلِّ كلمة أقولها. إنني على استعداد لأن أموت جوعًا ولا أتركها تجوع. لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن للناس أن يكونوا قساةً مع الحيوانات الأليفة.»

فصرَّحت لها الآنسة لوفابل: «أولئك ليسوا بشرًا. إنهم كائناتٌ منحطَّة.»

وافقتْها السيدة أمور: «هذا صحيح.»

كان الزوجان أمور في وقتٍ من الأوقات قد قدما عرضًا في قاعة موسيقية، حيث زعمت السيدة أمور أن لديها عينَين يمكنهما اختراق أي شيء ومعرفة محتوياته. لم يدُم العرض طويلًا؛ لأن عقلها كان لا يُتقن تفسير كود الإشارات التي كان يشير بها زوجها، رغم نظرتها الساحرة.

والآن بينما كانت تنظر إلى علبة الآنسة لوفابل، لم تكن في حاجة إلى عينٍ خارقة لمعرفة أنَّ الجواهر كانت بداخلها. كانت الخادمة قد تخلَّت عن ارتداء السراويل القصيرة — بما تحويه من جيوبٍ سريَّة — وارتدت البدلة الحريرية السوداء الضيِّقة، التي كان من الواضح أنها منحةٌ من سيدتها لها.

ورغم أنَّ السيدة أمور كانت تزعم أنها تتمتع بالحنكة والفطنة، كانت سليقة زوجها هي ما رأبت الفجوة بينهما وبين ضحيتهما. فبينما كانت تحاول تحسين تعارُفهم بإبداء تعليقٍ حول الطقس، تحدَّث أمور بصوتٍ محبط.

«اسكتي يا ميمي. ألَا ترين أن السيدة لا تريد إزعاجًا؟»

لمس تواضُع هذا التعليق المهذَّب قلبَ الآنسة لوفابل الجواد. فضلًا عن ذلك، وبصرف النظر عن الحاجة إلى العزلة التي كانت أمرًا ضروريًّا للتواصل مع الجبال، كانت طبيعتها سخيَّة. وقد بدأت تشعر بالوحدة منذ عادت إلى إنترلاكن وما بها من تعقيد. فذَكَّرَت نفسها بأن هذين الزوجَين الصغيرَين المثيرَين للشفقة هما رفيقا سفر — إلى إنجلترا وكذلك إلى الخلود — وأنه من العادي أن يُقحما شيئًا مثيرًا للاهتمام في عطلتهما.

وبعد أن سألتْهما عن انطباعاتهما عن سويسرا، تحدَّث أمور بحماسة.

«هل يمكنني أن أسمح لنفسي أن أطلب منكِ أن تشربي القهوة برفقتي أنا وزوجتي؟ هناك الكثير من الوقت قبل وصول القطار.»

شكرتْه وأوضحتْ أنها قد طلبَت القهوة بالفعل. وبينما كانت تتحدث، جلَبَ النادل كوبًا يعبق بالبخار إلى الطاولة. وقد تبادل الزوجان أمور النظرات في حين أنها كانت تنتظر أنْ تبرد قهوتها، ثم فتحَت السيدة أمور صحيفةً أسبوعيةً للأفلام.

وسألتْها: «هل رأيتِ هذه الصورة؟»

بدأت الآنسة لوفابل تحملق في الصور الفوتوغرافية لعملٍ درامي عن الجريمة.

فعلَّقت تقول: «أحبُّ الأعمال الدرامية الجيدة عن الجريمة. لكنْ ينبغي للعمل أن يكون مقنعًا. بالطبع، أنا لا أنغمس في العمل فأصدِّقه تمامًا، لكني أحب أن أنجرف معه.»

سألتْها السيدة أمور: «هل شاهدتِ فيلم «الرجل النحيل»؟ كانت الطريقة التي تصرفتْ بها الشخصيات مزعجة. فهي لم تكن مثل الحياة الزوجية الحقيقية.»

كبحَت الآنسة لوفابل ابتسامةً تنمُّ عن شعور بالذنب، عندما تخيَّلت نفسها مع بكنجهام في دورَين مماثلَين.

وقالت: «أوافقكِ الرأي. معظم الأفلام غير واقعية. الخطف والمشروبات المخدِّرة. إنها سخيفة.»

وقرَّبَت الجريدة من وجهها حتى حجبتْ رؤيتها للطاولة. هنا امتدتْ يد أمور بسرعة وكأنها تنتظر إشارة، وأسقطتْ حبةً بيضاء في فنجان قهوتها.

واصلت الآنسة لوفابل: «مثل هذه الأمور لا تحدُث في الحياة الحقيقية. ولا حتى في الخارج.»

تبادل الزوجان نظرة. كانا يعرفان أن القطار سيكون شبهَ فارغ في البداية، لذا إذا استطاعا مشاركةَ عربةٍ مع الآنسة لوفابل؛ يمكنهما اعتبار الجواهر مِلكهما. إذ سرعان ما ستغطُّ الآنسة لوفابل في نومٍ عميق.

ولَمَّا جاء صوتُ صفير المحرك من بعيد نظَرَ أمور في ساعته.

وقال: «هذا قطارُ باريس. لا تنسَي شُرب قهوتكِ، يا آنسة.»

اضطربَت الآنسة لوفابل لهذا التنبيه. فمدَّت يدها لوعاء السكر بتسرُّع وأسقطتْ فنجانها بأكمام معطفها، فسالَت القهوة على الطاولة وتساقطتْ على الحصى.

فتمتم أمور بغضب: «يا لسوء الحظ!»

الفصل الثالث والعشرون

«حين تنام»

ذُهِلَت الآنسة لوفابل من تعاطُف رفيقَيها الممتزِج بالسخط. بدا عليهما القلق كما لو كان الحادث شأنهما الخاص. ورفضَت الآنسة لوفابل العرض العاجل من الرجل الضئيل أن يعودوا إلى الفندق ليأتوا بقهوةٍ جديدة؛ لكنْ، وبسبب ذلك، لم تستطِع الشعور بالانزعاج عندما دخلا عربتها. كان القطار غير مكتظٍّ في محطة أوست؛ ولكنْ، حتى في هذه المرحلة لم يكن بمقدورها أن تتوقع أن تحصل على عربة لها وحدها.

وبما يتمتع به المسافرون عامةً من أنانية، رتَّبا أغطيتهما وأمتعتهما على المقاعد لخلق انطباع بأنَّ العربة ممتلئةٌ عندما يتوقَّف القطار في إنترلاكن. وقد حقَّقت استراتيجيتهما النجاح؛ لأن أحدًا لم ينضمَّ إليهم عندما غادر القطارُ المحطة.

أنزَلَ أمور قبعته على عينَيه وأغلق شبَّاكه.

وقال: «سأتظاهر بالنوم.»

وقالت زوجته: «وأنا أيضًا. لن نتمكن من الاستلقاء في وقتٍ لاحق إذا ما امتلأت العربة.»

لم تَحذُ الآنسة لوفابل حذوَهما؛ لأنها أرادت الاستمتاع بالمناظر الطبيعية حين كان ضوء النهار لا يزال موجودًا. وقد هنَّأت نفسها؛ لأن رفيقَيها ممَّن يفضِّلون النوم، عندما قارنت صمتهما بما دار من محادثةٍ مشتِّتة في رحلة الذهاب. وعندما تطلَّعت إلى الطبيعة الخضراء الزاهية؛ كان وجهها هادئًا كمياه بحيرةِ ثون الزرقاء الزجاجية أدناهم.

كان جوُّ العربة دافئًا أكثر من اللازم، ولكنها لم تحبَّ أن تُخفِض النافذة؛ لأنها كانت متأكِّدة من أن رفيقَيها غير المزعِجين لا يشاركانها حبَّها للهواء الطلق. وعندما نظرتْ إلى جسدَيهما الواهنَين وصدرَيهما النحيلَين؛ شعرت بالأسف عليهما.

وفكرت في نفسها: «وكأنهما نباتات تنمو في قبو.»

كان من المستحيل تجنُّبُ مقارنتهما بقوة نموِّها وتطورها، أو عدم الشعور بالامتنان للهواء والشمس اللذين ترعرعَت الآنسة لوفابل عليهما. ولم يكُن هناك في قلبها كِبر أو خُيلاء، عندما سلَّمت بأنها تمثِّل عيِّنةً مثالية؛ باستخدام مصطلحات البستنة.

واعترفتْ تقول: «ربما أكون متقيِّدة بالأصيص قليلًا.»

فتحَت الآنسة لوفابل الباب بحذرٍ وهي تُحكِم قبضتها على علبة المجوهرات، واندسَّت إلى الممر لتدخِّن سيجارة. فانفتح على الفور زوجان من العيون الداكنة حيث استفاق النائمان. وقد لاحظت تلك العيون كيف كانت الآنسة لوفابل تقبض على العلبة؛ إذ حشرتْها تحت إبطها أثناء إشعال سيجارتها.

ومع أنها استشعرت انتباههما، كانت في تلك اللحظة تفكِّر في تعاطفهما ولطفهما.

فقررت في نفسها: «سأكون لطيفةً معهما. فهذه عطلة لهما أيضًا، أولئك المساكين الصغار.»

وعندما عادت إلى العربة، كانا، حسب ما بدا لها، يغطَّان في النوم؛ لذا قررت الاستفادة من الهدوء الراهن في أن ترتاح. فلفَّت وشاحًا حول شعرها ومالت مستندةً إلى زاوية، وأخذت تشاهد الحقول وهي تمرُّ ببطء مزيَّنة بزهور الزعفران الخريفية ذات اللون البنفسجي الباهت.

وتدريجيًّا، امتدت الحقول الخضراء في خطٍّ متواصِل، حيث اندمجت المراعي معًا. ولمَّا هدأت الآنسة لوفابل بفعل الدفء والحركة، بدأت تشعر بالنعاس. فشعرت كأنها تنزلق إلى بحرٍ استوائي دافئ، في حين أن العشب استمر في الاندفاع أمام جفنَيها الناعسَين. وساد شيء من التناغم بين صوت المحرك المنتظِم والأنفاس الباعثة على النوم داخل العربة …

فجأةً، سقط رأسها إلى الأمام بِرَجَّة فاستيقظتْ بانتفاضةٍ عنيفة. كان قلبها فزِعًا من وهمٍ خاطفٍ داهَمَها. كادت تُقْسِم أنها في تلك البرهة القصيرة بين النوم والوعي رأتْ وجهًا خبيثًا مشوهًا؛ كأنه رُوح شريرة لا جسد لها تحوم قرب وجهها.

لكن لم يكن هناك أحد سوى رفيقَي السفر اللذين كانا يغطَّان في النوم كلٌّ في زاويته. ولمَّا كانت ترتجف لشدةِ واقعية ما رأت من خيالها، حاولت أن تحذو حذوَهما. لكنها كانت محاولةً غير مجدية؛ لأنها كلما وصلت إلى حافة النعاس الحلوة وكانت على وشك الغوص في النوم؛ بدا لها كأنَّ جرس إنذارٍ يدقُّ داخل رأسها، فيعيدها صوت صلصلته إلى الواقع.

وبطريقةٍ ما، راوَدَها انطباع بوجود دخيل؛ كأنَّ هناك أعداءَ في العربة. شعرتْ كأنهم كانوا يتقدمون نحوها، ثم ينطلقون بعيدًا عنها كلما تحركت. وفي مرةٍ من المرَّات انكمشتْ وتمسَّكت بالعلبة بشدة كأنَّ هناك أصابع تحاول لمسها؛ ولكنها عندما نظرت حولها لم تتمكن من اكتشاف أي سبب للارتياع والجفول.

عادت تقف بجوار النافذة المفتوحة في الممر وتركَت الهواء البارد يتدفق على وجهها.

لم تكُن الآنسة لوفابل مخدوعةً في تمييزها للإحساس بوجود انتهاك؛ لأن الأفكار الشريرة شيء حقيقي. إذ تولدت فكرةٌ بشِعة في الأعماق المعتِمة لعينَي المرأة وانطلقتْ منها، مثل أفعى قاتلة، إلى ذهن الرجل.

فعلى الرغم من فشلهما في عملهما، فقد كان هناك تواصُل عقلي حقيقي بين الزوجَين. كان كثيرًا ما يفهم أحدهما الآخَر دون حاجة إلى الكلمات. وكان واضحًا لهما أن خادمة الليدي بونتيبول تحرس كنزها بشدة وكأن أصابعها قد اندمجت مع جلد العلبة. والأسوأ من ذلك أنها كانت تنام مثل القطة، في حين أنه لن تسنح فرصة أخرى لتخديرها.

وبما أنهما لن يستطيعا المخاطرة بكشف أمرهما أو القيام بعملٍ أهوج آخر، فقد كان يجب إسكاتها على نحوٍ فعَّال. فقد مضى الآن وقتَ التأنيب. سيترجلا من القطار وبحوزتهما ما يبتغيان في أول فرصةٍ محتمَلة عندما يتوقف القطار في الطريق إلى باريس. وحين يقوم الحارس بجولته لاحقًا، لن يلاحظ سيدة بلا حراك مغطاة ببطانية؛ لأن معظم الركَّاب سيكونون نائمين أيضًا.

مالَ أمور إلى الأمام وهمَسَ لزوجته.

«بعد محطة بونتارلييه.»

فأومأتْ برأسها وقالت: «هذا صحيح. عندما تنام.»

عندما عادت الآنسة لوفابل إلى العربة نظَرَا إليها بشيءٍ من شعور بالذنب، وبدآ في إخلاء المقعد من أمتعتهما، كما لو كانا يتعديان على مساحتها. ولكي تُبعِد عنهما شعورهما بالدونية، ابتسمتْ لهما بودٍّ حقيقي.

وسألَتْهما: «هل هذه أول مرة تسافران فيها إلى الخارج؟»

أجابتْها السيدة أمور: «أول مرة نزور فيها الريف. لقد ذهبنا إلى برلين وبودابست وباريس، وإلى كل المدن الكبيرة. تعلمين، أنا أعمل في مهنةٍ تتطلب السفر كثيرًا. فأنا مساعِدة ساحر. أُعطيه أدواته، وأجتذب انتباه الجمهور كي لا تُلاحَظ خُدعه، وما إلى ذلك. كما أرتدي زيًّا خليعًا؛ سروالًا قصيرًا وسُترة خفيفة.»

فحثَّها زوجها بقوله: «حافظي على التهذيب. أخبري السيدة أنكِ ترتدين حذاءً ... هل يمكنني أن أسألكِ يا آنستي إذا كنتِ تعملين في وظيفة؟»

قاطعتْه السيدة أمور: «لا تكُن أحمقَ. ألَا تري أن السيدة تميل للانعزال؟»

لم ترغب الآنسة لوفابل في إقامةِ حاجزٍ بينها وبين رفاق السفر؛ فتوصلت إلى حلٍّ وسط بأن قدَّمتْ إجابةً صحيحة من الناحية الفنية.

فأجابتْ، وهي تفكِّر في عملها الشاقِّ في كلٍّ من المنزل والحديقة: «بالطبع لديَّ وظيفة.»

«أهي وظيفةٌ مرموقة يا آنستي؟»

«نعم، يمكنك أن تصفها بذلك. أنا سيدةُ نفسي.» ولكي تُغيِّر الموضوع أضافت: «ربما نلتقي في باريس؟ سأقضي هناك ليلةً واحدة.»

فسألها أمور: «في أيِّ فندق ستنزلين يا آنستي؟»

ثمَّ هزَّ رأسه عندما ذكرَت الاسم.

وقال: «إنه أفخر ممَّا نستطيع تحمُّله. آمل ألَّا نلتقي يا آنستي. لأننا إذا الْتقينا؛ فسيعني هذا أن الحظ قد جانَبَنا في عملنا. لكنهم يقولون: «حاولْ مرارًا».»

انفجرتْ زوجته في صرخةٍ حادة من الضحك، ثم أخرستْها فجأة. وعندما نظرت إليها الآنسة لوفابل ارتجفتْ للحظة، لأنَّ النغمة الحادة تزامنتْ مع نوبةٍ من النشوة التي تلألأتْ على وجه المرأة. كما تسبَّب الضوء العلوي في زيادة طول الأنف المُعوَجِّ وأحيا ذكرى كابوس لوجهٍ مشوَّه كاد يلامِس وجهها.

وزال الانطباع عندما تكلَّم أمور.

«نحن نقترب من بِرن. عظيم؛ لن يمتلئ القطار بالكثير من الركاب. إذَن هي جلسة ارتجال معتادة ... وأنا لا أقصد الموسيقى.»

نظرت الآنسة لوفابل إلى أسطح المنازل الممتدة وإضاءات المدينة حين كان القطار يبطئ من سرعته. وعندما دخل القطار المحطة ورأت الرصيف المزدحم، أطلقت صرخةً تنمُّ عن الانزعاج.

وقالت: «يبدو أن نصف سكان البلاد يتجهون إلى باريس. إذا وقفنا عند الباب والنوافذ، فقد نخدعهم بأنَّ العربة ممتلئة.»

في البداية، بدا أن الحظ حالفهم في استراتيجيتهم. كانت الآنسة لوفابل دائمًا شخصية لافتة للنظر، وقد شكَّلت حاجزًا باهرًا وهي تحرس مدخل عربتهم. مرَّ الركاب في الممرِّ ولم يحاولوا الدخول، وعندما بدا أن كل الخطر قد زال؛ اقتحمت عائلةٌ فرنسية العربة.

كانوا ستة أفراد، يمثلون ثلاثة أجيال، وكانوا جميعًا في حالةٍ من الاضطراب والإثارة. كان الكبار يتحدثون ويضحكون بصوت عالٍ، حين كان الأطفال يلتهمون الطعام ويمرحون في الحيز المحدَّد. وقد أوقعوا فُتات الخبز وقشور الموز على الأرض، ومسحوا أصابعهم في تنورة الآنسة لوفابل، وداسوا على أصابع قدمَيها حتى شعرت بالاضطراب.

لم يمثلوا لها سوى متطفلين مزعجين؛ لأن عينَيها لم تريا أنهم كانوا نصف دزينة من الملائكة الحارسة. وبينما كانت تكابد الضجيج، تساءلت إن كانت إكرامية في يد الحارس ستؤمِّن لها مكانًا أكثر راحة. بدا أنَّ تغيير مكانها قبل الوصول لبونتارلييه لا يستحقُّ العناء — حيث سيتعين عليهم المرور عبر الجمارك — لذا خرجتْ بصعوبة إلى الممر، وما لبث أن انضم إليها الزوجان أمور.

همس الرجل الضئيل قائلًا: «هناك مقصورةٌ درجةٌ أُولى فارغة في العربة التالية. هل تودَّان الانتقال إليها؟»

فهمتْ زوجته إشارته، فهزَّت رأسها نفيًا.

«لا. سيجعلوننا ندفع.»

«أوه، كوني لطيفة. نحن بريطانيون، أليس كذلك؟ لا ينبغي أن نقبل بأنْ نُعامل أسوأ من أسماك سردين ميتة.»

رفضَت السيدة أمور المغامرة، حين ظهر تفكيرٌ عميق على ملامح وجه الآنسة لوفابل. كانت تفتخر بالشجاعة العقلية والمنطق السليم اللذين أكَّدا لها أن من السخف أن يجلسوا في مكانٍ مزدحِم في حين أن هناك عربات فارغة في القطار.

قالت: «سأخاطر. ألَا ترغبان في الانضمام؟»

فصرَّح الرجل الضئيل: «يجب ألَّا أترك زوجتي.»

ساعَدَها الرجل في جمع أغراضها، لكنه لم يرافقها إلى العربة التالية. منذ تلك اللحظة لم يعُد يرغب في أن يُرى برفقة الآنسة لوفابل. كانت هي ومعشرها موصومين بشيءٍ خطير يمتدُّ تأثيره حتى آخِر شخصٍ احتكَّ بها.

عادا إلى عربتهما المزدحمة، وكانا ودودين مع العائلة الفرنسية؛ حين كانت الآنسة لوفابل تهنئ نفسها على الراحة والهدوء في عربتها من الدرجة الأُولى. قررتْ أن تحاول أن تُبرم صفقةً مع الحارس أو جامِع التذاكر؛ حتى تتمكَّن من البقاء في مكانها لبقية الرحلة. وما كان من المسئول الوحيد، الذي لاحظ وجودها، إلا أن أبدى عدمَ اكتراثٍ بشأن تجاوُزها؛ إذ هزَّ كتفَيه فحسب، ومرَّ دون اعتراض.

بعد فترة قصيرة، بدأت الأضواء تومض عبر الظلام وتوقَّف القطار في بونتارلييه. حملت الآنسة لوفابل أمتعتها وانضمت إلى المتدافعين نحو الجمارك. وقررت أن تعود بشجاعة إلى عربة الدرجة الأولى — التي أصبحت لها بحقِّ الاستحواذ — وأن تَبيتَ فيها ليلتها مباشرةً بعد أن تتجاوز الإجراءات الرسمية المزعِجة.

وصلتْ في لحظةٍ مواتية؛ إذ كان الموظفون يكدِّسون الأدلة ضدَّ شخصٍ أبلغهم أنه ليس لديه ما يُفصِح عنه. وعلى الرغم من أنها اضطرَّت للانتظار حتى ينتبه إليها أحدهم؛ فإن حقيبتها لم تُفتَح ووُضِع عليها خطٌّ بالطباشير.

بدا كلُّ شيء يبشِّر بأن الرحلة إلى باريس ستكون ناجحة. واشترتْ خبز بيتي بان وشوكولاتة من البوفيه، وعادت مبتهجة إلى القطار. وهُيِّئ لها أن القطار ازداد طولًا أثناء غيابها، لكنها أرجعت هذا الانطباع إلى خيالها. ولَمَّا حدَّدت مكانها مسترشدةً بالقلنسوات الصفراء للأطفال الفرنسيين من نافذة إحدى العربات، صعدَت الدَّرَج الحاد ودلفتْ إلى الممر.

ومن فورها أدركتْ أن شيئًا ما قد تغيَّر. كان أول ما لاحظته هو معطف السفر الذي كانت قد تركتْه في عربة الدرجة الأُولى لتحجز به مكانها. كان المعطف الآن مكوَّمًا وملقًى على الرف.

ولَمَّا مدت ذراعها وكانت على وشك أن تسحبها؛ انتبهت إلى شيءٍ أكثر خطورة. لم يعُد هناك ممرٌّ موصل إلى العربة التالية.

وبينما كانت تحدق في الحاجز الخشبي الغُفْل الذي يعيق طريقها، فسَّر لها الفرنسي الأمر.

«فُصِلَ ذلك الجزء، وانضمَّت إلينا بعض العربات الممتلئة. سيكون القطار شديدَ الازدحام. لا يُهِم. ستكون العربة أدفأ وستبعث على النوم.»

حاولت الآنسة لوفابل التسليم بفلسفته خلال ليلةٍ من المشقة الشديدة. إذ أخذت العربة تتمايل والمحرك يزعق حين كان القطار يشقُّ الظلام. كما كانت هناك توقفات مزعِجة في محطاتٍ مختلفة استقبلوا منها المزيد من الركَّاب. وعلى الرغم من أن أمور طاف القطار كلَّه، لم يتمكن من العثور على عربةٍ فارغة يمكن أن يباغت فيها السيدة في خصوصيةٍ وعزلة عن الجميع.

بعد فترة، ورغم ضيق التنفس وانضغاط الأجساد، نامت الآنسة لوفابل. واستيقظت على ضوء الفجر؛ كان الفجر رماديًّا وملوَّثًا كما لو كان نافذةً متَّسخة بالمطر. كان

الضجيج والحركة كثيرين من حولها، حيث كان الناس يستعدون لمغادرة القطار. كانت باريس تقع عند نهاية السكة؛ على مسافةٍ قصيرة فحسب.

كان اليوم هو الثاني عشر من سبتمبر.

وعلى الجانب الآخَر من القناة، في لندن، استقبل كلارنس كلوب اليومَ بارتياحٍ غير متحضر.

قال وهو يستنشق الهواء بسرعة: «غدًا. غدًا سأتصل بإيمي.»

الفصل الرابع والعشرون

جرعة شراب

قلنا إن نجاح خطة كلارنس كلوب لتوريط هنري واتكينز في الجريمة، كان يعتمد على تعاون صديقته إيمي. وعلى الرغم من أنَّ هذا الإدخال للعنصر البشري حرَمَ المسألة من أن تكون مضمونة، لم يكُن لدى كلوب أيُّ خوف على سلامته الشخصية. لم تكن إيمي أسيرةَ سحره وولائه الثابت فحسب، بل كانت أيضًا تعدُّ الأيام حتى اجتماع شملهما.

كان لحقيقة أنها لم تغيِّر اسمها إلى «آيمي» بعض الدلالة على خصالها. فقد وُلدت في الريف لوالدَين محترمَين وكانت نادلةً في نُزُل القرية عندما اقترح رجل يمتهن التجارة أن تسمح له بالعبث بالسجل النقدي. ولأنها كانت متساهلة وكسولة، إلى جانب سرعة تأثُّرها بالنفوذ الذكوري؛ فقد أبقتْ على الأمر حتى اكتُشِف العجز.

وإحقاقًا للحقِّ، لم تكن إيمي طمَّاعة. فهي نفسها لم تحصل على شيء من الأمر، باستثناء المغامرة العاطفية وفقدان حريتها لثلاثة أشهُر.

بعد أن خرجتْ من السجن، انجرفتْ إلى مهنة كانت منجذبةً مِزاجيًّا لها؛ ولكنْ، على الرغم من أنها كانت عالقة في دائرة شريرة، فقد ظلَّت بمنأًى عن طائلة القانون وعملتْ فقط مضيفةً اجتماعية لَمَن يقدِّمون لها الحماية. بهذه الصفة، لم يكن هناك الكثير من الاختلاف بينها وبين مدبِّرة منزلٍ عادية. كان الإهمال من عاداتها، لكنها كانت تتسم بالاتزان، والصدق والإخلاص لأيِّ مجرم من المجرمين الذين يتولون دفع إيجارها.

ولأن كلوب كان عشيقًا خبيرًا، شعَرَ بالثقة في سلطته على إيمي. فحين أخبرها أن عليها أن تتوقَّف عن زيارته في السجن؛ لأنه سيتخلى عنها لصالح هنري واتكينز، استجابت له بإذعان. وعلى الرغم من أن هنري كان — بعبارة مُلَطَّفة — رجلًا ساذجًا جدًّا، فقد حققت أقصى استفادةٍ من هذه الصفقة السيئة؛ واعتبرَت الأمر بصفة رئيسية أساسًا لشراكةٍ مستقبلية مع كلوب.

ولكي يحافظ كلوب على الصورة الخادعة بأنه انفصل تمامًا عن إيمي، لم يلتقِ بها بعد إطلاق سراحه من السجن، بل أظهر أنه يلتقي بحسناواتٍ أخريات. وكانت محادثاته الخاصة معها تجري على الهاتف، حيث كان يعطيها التعليمات التي من شأنها أن تحكم ضبط حجة غياب واتكينز.

وحين هاتفها صباح يوم الثالث عشر من شهر سبتمبر، تحمستْ لمَّا سمعتْ همسه وبدتْ عليها السعادة الغامرة لإمكانية اجتماع شملهما سريعًا.

قال لها: «قومي بعملكِ الليلة. عليكِ أن تُبقي على واتكينز برفقتكِ. وتذكري، الوقت الحاسم يقع بين السابعة والتاسعة، لكن أبقي عليه معكِ طوال الليل، في حال لم يستطِع الطبيب أن يحدِّد الوقت بدقة.»

كرَّرت إيمي: «من السابعة إلى التاسعة.» ثم أضافت: «سيرغب في أن يذهب إلى الكلاب.»

«إذن ضعي له مخدِّرًا في شرابه. تصرَّفي.»

كانت هذه هي لعبتها. كانت إيمي خبيرةً في خلط المشروبات، وكثيرًا ما دسَّت المخدِّر في شراب زوار مزعِجين.

فوافقتْه قائلة: «لا بأس. متى سأراك ثانية؟»

«ليس قبل أن يُصبِح من الآمِن أن نلتقي. ابقي بعيدة عني حتى أرسل في طلبكِ. سأرسل لكِ قطعة المجوهرات تلك الليلة.»

«هل سيكون عليها ... دماء؟»

«كلَّا — سيكون عليها شعرة فقط. لا تعبثي بها.»

كانت إيمي شاردةً تفكِّر حين وضعَت السماعة. لم تكن تتحلى بمخيلةٍ خصبة، لكنها احتفظت بحسِّها السليم وكذلك بصحتها. كان الأمر قد استغرق منها وقتًا طويلًا حتى استقرت في نفسها حقيقةٌ معينة، لكن في ذلك الصباح، أدركت أنها على وشك أن تُصبح شريكةً في جريمة قتل.

قالت لكلبها من فصيلة البكيني: «لا يروقني هذا الأمر.»

لكن بما أن سيدها ومولاها قد أمر — وكان مقدرًا لها أن تطيع — ذهبت إلى المطبخ الصغير، حيث تحتفظ بعلبها وزجاجاتها من أجل الاطمئنان على المقادير والمكوِّنات الأساسية.

وفي ساعة متأخِّرة من بعد الظهيرة، عاد واتكينز إلى رفاهة الشقة المظلِمة والمهمَلة.

سألتْه إيمي وهي تفكُّ رباط حذائه: «أكان يومك طيبًا يا عزيزي؟»

أومأ لها واتكينز.

وقال: «قدمت عرضًا في أحد المنازل في ميدان إيتون. مصارع النوافذ بالية وهناك شرطيان على الأقل.»

فكرَّرت، بنبرة تنمُّ عن الارتياب: «على الأقل؟ شرطيان؟»

«كلَّا، لا تقلقي. كان وجودهما صوريًّا. كانا من العجَزة. ربما ألتقي بهما ثانية.»

وبينما أراح واتكينز قدمَيه، أخذت إيمي تفكِّر بإمعانٍ فيه وفي الموقف. كان شعره غثًّا وساقاه متقوِّستَين وعيناه حادَّتَين؛ لكنه كان يتمتع ببعض الفضائل المنزلية. كان ينهض في الصباح ويعدُّ لها كوبًا مبكِّرًا من الشاي. وكان يعامل الكلب البكيني بحنوٍّ. وكان إنفاقه للمال منتظمًا، عوضًا عمَّا لقيتْه مع كلوب من شحٍّ أو إفراط.

وكانت الحياة مع واتكينز تشتمل على امتياز الزواج، إضافةً إلى ميزة الدخل الثابت. على الجانب الآخر، كان كلوب يقدِّم لها الرومانسية؛ لكنْ كانت همساته لا تزال تتردد في أذنَيها.

«ضعي له مخدِّرًا في شرابه.»

كتمتْ إيمي تنهيدة، وجلستْ على ركبة واتكينز وفركتْ وجهها بوجهه بدلالٍ مصطنَع.

وقالت: «يا إلهي، وجهك مليء بالبثور. إنه يشبه كعكةَ الكراوية. دعني أمزج لك شرابًا سريعًا، أو سأضطر إلى التوقف عن تقبيلك.»

وبينما كان يعترض على قيامها، كانت قد انسلَّت مبتعدةً إلى المطبخ الصغير المظلِم. سمع صوت ملعقة تصطدم بالزجاج، تلاه هسهسة مِمصِّ مياه الصودا، قبل أن تعود بكأسٍ مُزبِدة.

قالت له: «جرعة واحدة سريعة. اشربه يا عزيزي. لن تشعر بطعم الأملاح.»

ظهر بريق في عينَيها عندما ابتلع القطرة الأخيرة؛ بريقٌ اختلط فيه الخوف بابتهاجِ الظفر. الآن كان أوان التراجُع قد فات، مهما كانت مغبَّة عملها.

ومع مرور الوقت، دون ظهور أي نتائج من شرابها، بدأت تشعر بالقلق. لم يُظهِر واتكينز أي علامات على النعاس، بل على العكس، أصبح متوترًا ومتهيجًا. بدا أن حرارة الشقة وصخب الموسيقى الحماسية من الراديو يزعجانه بشكل لا شعوري، بقدر ما كان الذباب يزعجه.

ألحَّت عليه الرغبة في الخروج لتناول الشاي، وبصعوبة كبيرة نجحت إيمي في تحويل انتباهه عن غرضه. بعدها كان الكلب البكيني مريضًا فشكَّل ذلك مصدر إلهاء مستحسنًا،

وحينها أثبت واتكينز، كالعادة، أنه لطيف ومتعاون؛ ولكنْ عندما نَهَضَ من على الأرض، لاحظتْ أن جبينه كان متعرِّقًا.

فقالت: «أنت تتصبَّب عرقًا. هل هناك خطبٌ ما يا عزيزي؟»

أجابها: «آلام في البطن. ربما أُصِبتُ ببردٍ طفيف ... لا أستطيع البقاء هنا. أحضري حذائي. سنشرب مشروبًا آخَر ونذهب إلى الكلاب.»

نظرت إيمي إلى ساعتها وهي مذعورة. كانت الساعة السابعة وخمس دقائق — وكان كلوب قد أخبرها أن الساعات الحاسمة من السابعة إلى التاسعة. بللت إيمي شفتَيها بتوتر، واندفعتْ إلى المطبخ الصغير وأضاءت المصباح.

ثم ما لبثتْ أن أطلقت صرخةً حادة.

وصاحت تقول: «ليس خطئي. إنها تلك الفتاة مجددًا. لقد نقلَت العلب. لقد خلطَت الشراب في الظلام. إنه حادث.»

ترنَّح واتكينز باتجاه المطبخ الصغير وكان وجهه قد صار شاحبًا من وخزةٍ مفاجئة في بطنه.

وقال وهو يبتلع ريقه بصعوبة: «ماذا أعطيتِني؟»

أجابتْه بأنْ مدَّت يدها بعلبة تحمل صورة قارضٍ ميِّت على مُلصقها.

وقالت وهي تجهش بالبكاء: «كانت العلبة الخطأ. استلقِ يا عزيزي. لا تقلقْ. ستستعيد عافيتك.»

وبينما كان الرجل المرتعِب ينهار على كرسي، سمعها تصرخ لمالكة العقار من بَسْطَة الدرَج:

«النجدة! أحضري الطبيب. لقد تناول واتكينز سُم فئران.»

سرعان ما اقتحمَت الغرفة مجموعةٌ من النزلاء المنفعِلين. كان المكان يعجُّ بالأصوات؛ مَن يصيح في الهاتف، ومَن يعطي الأوامر وينادي بالنصائح في ظلِّ صخب الراديو الذي لم يتذكَّر أحد إيقافه. وخُلِطَ الخردل والماء، لكن واتكينز، الذي كان يجاهد الذعر الذي تملَّكه، سكبه على السجادة.

حين بلغت الفوضى مبلغها؛ وصل الطبيب ومعه جهاز غسيل المعدة. ومنذ ذلك الحين، بلغت حرارة الحاضرين ذِروتها بفعل ما بهم من فضولٍ وارتباك. ولمَّا طُرِد النزلاء من الشقة، تجمعوا في الردهة يحاولون رسمَ الصورة الدرامية المؤلِمة لمَا كان يحدث على الجانب الآخَر من الباب ...

قُرب الساعة الثامنة والنصف، أعرب الطبيب عن ارتياحه للحالة وغادَرَ المنزل. وبمجرد أن رحل، توجَّهت إيمي إلى السيدة المالكة ودسَّت في يدها ورقةً مالية بقيمة جنيه.

وهمستْ لها قائلة: «يتحتَّم عليَّ أن أخرج. الْزمي جانبه ولا تتركيه دقيقةً واحدة، حتى تأتي المرضة. قد ينهار وتتدهور صحته، لذا كوني مستعدة بشرابِ البراندي.»

ولَمَّا ارتاحتْ إيمي إلى ترتيبات السلامة للمريض، ارتدَت قبعتها ونثرتْ مسحوق التجميل على أنفها ونزلتْ في المصعد إلى مستوى الشارع. وبمجرد أن خرجتْ من البناية أوقفتْ سيارة أجرة.

وقالت للسائق: «إلى سكوتلاند يارد.»

عندما وصلتْ إلى المبنى وصرَّحتْ بأن ما جاءت من أجله خاص ومهم، لم تضطر إلى الانتظار طويلًا قبل أن تتلقى انتباهًا رسميًّا. كان هذا التعامل الخاص ناتجًا عن حقيقة صداقتها المعروفة مع بعض السادة الذين كانوا محلَّ اهتمام الشرطة.

وبينما كانت تجلس في المكتب، لم يبدُ عليها شيء يوحي بأنها صديقةُ رجل عصابات تقليدية. فلم تكُن تمضغ العلكة، أو تدخن السجائر، أو ترفع تنورتها الضيقة لتجلس واضعة ساقًا فوق الأخرى. ورغم أنها كانت حمراءَ الشعر، كانت تفتقر إلى الاتقاد الذي يُفترض أن يكون مُميِّزًا للصهباوات. كانت شفتاها الحمراوان ناعمتَين ولينتَين، وعيناها زرقاوَين ضاربتَين في البياض. وترتدي بدلة سوداء بمقاسٍ مناسب، وكنزةً بيضاء شفافة من نسيج الأورجاندي وقفازًا أبيض نظيفًا.

عندما نظر إليها المفتِّش، تذكَّر صورة مشوَّشة لأرنب كان يحتفظ به في صباه.

سأل: «حسنًا يا إيمي، مَن هو خليلكِ؟ كلوب؟»

أجابت بلا مبالاة: «كان خليلي. أمَّا الآن، فهو هنري واتكينز.»

«هكذا سمعت. كيف حال تجارة المكانس الكهربائية؟»

«لا يحالفه الحظ.»

«مؤسف جدًّا. من الأفضل أن تحذِّري هنري أن الوقت قد حان ليحقِّق عملية بيع. يجب ألا يُهمِل الأعمال حينما يتعرف على مخططات منازل الناس.»

«ليس لديك شيءٌ ضدَّه.»

«ليس بعد ... حسنًا، ما الذي جئتِ من أجله؟»

بدأت إيمي تسوِّي تجعدًا في قفَّازها لتثبت أنها لا مبالية.

قالت بنبرة تحدٍّ: «جئتُ لأبرِّئ هنري واتكينز. كان باستطاعتي أن أفعل ذلك بنفسي، إلا أنني لا أستطيع أن أثق في أن الشرطة ستصدق الحقيقة؛ لكوني صديقته. ولكن في

السابعة مساءً هذا اليوم، أصابه المرض في الشقة. كان الطبيب يعالجه بجهاز غسيل المعدة وقد كانت حالته غايةً في السوء.»

سأل المفتش: «تأثير سُم؟»

«أخبرتُه أنه سُم فئران. وأظهرتُ له علبةً فارغة؛ فقط لأخدعه. ولكنَّ كل ما أعطيتُه حقًّا كان شرابًا. شيء غير ضار، ليمسك عليه أمعائه قليلًا ويجعله يتقيَّأ.»

«لماذا؟»

«لأقدِّم له حجةَ غيابٍ في ذلك الوقت بالطبع. الآن صار لديَّ شهود يُثبتون أنه لم يرتكب جريمةَ القتل.»

فجأة ظهر الاهتمام الشديد على وجه المفتش.

سأل بحدة: «أي جريمة قتل؟»

أجابت إيمي بإبهام: «الجريمة التي يخطِّط كلوب لتلفيقها لهنري. سيرتكبها هو بنفسه. امرأة ما. من المقدَّر أن تعود لمنزلها الفارغ وهو ينتظرها هناك. لكن لدي شهودي لإثبات ...»

«ما عنوان المنزل؟»

أصابها الارتباك بسبب نبرة المفتش؛ فنظرت إليه، في حين أن عينَيها كانتا غائمتين من الكرب الشديد.

وقالت وهي تتلعثم: «بئسًا، لقد نسيتُ أمرها تمامًا. ظللتُ طوال الوقت أفكر في كيفية توفير حجة غيابٍ لهنري ...»

«ما العنوان؟»

«لا أعرف. أوه، أمهلْني دقيقة. لقد جَعَلْتَني أنساه.»

تمكن المفتش من السيطرة على نفاد صبره حينما كان ينظر إلى وجهها الناعم المرتجِف. كان يعرف أنَّ أي محاولة لتحفيز ذاكرة إيمي لن تؤدي إلا إلى زيادة ارتباكها. فأشعل سيجارة، ووضعها بين شفتَيها، ثم رَبتَ على كتفها بطريقةٍ أبوية.

وقال: «خُذي وقتكِ. ستتذكرينه.»

وأبقى عينَيه مثبتتَين على الساعة حين تمرُّ اللحظات الثمينة التي قد يتم فيها إنقاذ حياة امرأة. أخذ ينقر بأصابعه على الطاولة ثم قرَّب يده من الهاتف استعدادًا. وقد فاتته اللحظة التي أشرق فيها وجه إيمي حين تذكَّرت.

قالت بنبرةٍ ظافرة: «تسعة عشر،ماديرا كريسنت، شمال غربي المدينة. كنت أعرف أني سأتذكَّره ...»

قاطعها المفتش: «متى يُتوقَّع أن تصل المرأة؟»

«في الواقع، وصل قطارها إلى محطة فيكتوريا بعد السابعة بقليل. قال كلوب إنها ستأتي بقطار الأنفاق وستكون هناك في الثامنة على الأكثر. لقد أمَّنتُ حجة الغياب ولديَّ شهود ...»

لم يسمعها المفتش. وبينما بدأ يتكلم في الهاتف، نظر مرةً أخرى إلى الساعة.

كانت الساعة التاسعة وعشر دقائق.

الفصل الخامس والعشرون

العالم السُّفلي

فكَّرت الآنسة لوفابل في نفسها مليًّا: «هذه هي مجاري باريس. أنا أرى الحياة.»

لم تكُن تشير إلى أعمال المرافق العامة في مدينة «النعيم والسعادة المطلَقة»، ولكنْ إلى الفساد المحلي الذي كان يُعرَض للسيَّاح مقابل مبلغٍ كبير من الفرنكات لكل سائح. كانت الآنسة لوفابل تتجول في العالم السفلي لباريس برفقة بعض الغرباء اللطفاء.

كانت هذه الرحلة مختلفةً عن الرحلات التي تنظِّمها الوكالات الرسمية لمشاهدة الحياة الليلية للمدينة. كانت وسيلةَ ترفيه متخصصة، يُراد بها إثارة الرعب والنفور من أجل الإبهار، من خلال قوة التباين. في هذه الرحلة، يمكن للأرانب السمينة والمُتخمة أن تنظر من خلال ألواحٍ زجاجية وتشاهد الثعابين الجائعة وهي تتلوى.

وعلى الرغم من أن الآنسة لوفابل بذلت قصارى جهدها للهيمنة على انفعالاتها، لم تتمكن من أن تُجبِر نفسها على الشعور بالإثارة. لم تكن لتعترف بالهزيمة، لكنها كانت متعبة تمامًا. الحقيقة أنها كانت شرِهة جدًّا في محاولتها لاستيعاب العاصمة الفرنسية في مرةٍ واحدة. كان كعبا قدمَيها يؤلمانها، ورأسها ينبض بالألم، وفي أحشائها إحساسٌ بالدهشة ... لكنها كانت تعي شعورًا بخيبة الأمل والاشمئزاز أكثرَ من أي شيء آخر.

عندما وصلت إلى باريس في السادسة صباحًا، أخذت تتجول في أرجاء محطة القطار بانتظار أن تُفتَح المتاجر، بدلًا من الذهاب إلى فندقها والحصول على قسط من النوم. وبما أن غرف الانتظار كانت قيد التنظيف، لم يكن هناك حتى مقعد واحد يمكنها أن ترتاح عليه. كان عليها أن تتجول على الأرصفة وتشاهد وصول قطارات الصباح الباكر، مع المشهد غير المعتاد للعمَّال الجاثمين على المقاعد الخارجية.

في ذلك الوقت، كان المحيط من حولها يثير حماستها وكانت مبتهجة بشعورها بالحرية. كانت سعيدة أنها عادت وحدها مرة أخرى حيث تخلصت من الزوجين أمور.

كان أمامها الآن يومٌ كامل، وقررت ألَّا تُضيِّع دقيقةً منه، بل ستتشرَّب هذه الأجواء الغالية بروح الحرص على التعلُّم.

تناولت الآنسة لوفابل الإفطار في أحد المقاهي، حيث جلست على الرصيف وشاهدت قدْرًا ضئيلًا خاملًا من الحياة الباريسية، عوضًا عن الرحلات القصيرة البهيجة التي يُروَّج لها. هبَّت ريحٌ بغيضة نفخت الغبار في عينَيها وألصقَت القُمامة بكاحلَيها، لكنَّها لم تنتقل إلى داخل المقهى. كانت هذه سمةً أساسية من الحياة الفرنسية؛ أن يتناول المرء الطعام في الهواء الطلق، وأن يُميل قبعته على إحدى عينيه أثناء تدخين سيجارة.

ولم يمرَّ وقت طويل حتى جذبت بعض الانتباه الذي لم تقابله بالمثل. وبعد أن دفعت المعجب الشاحب بعيدًا عنها حرفيًّا، ذهبت إلى مكتب توماس كوك وحجزت أكبر عدد من الرحلات المصحوبة بمرشد، والتي يمكن أن تُتخم بها وقتها المحدود.

قضت الآنسة لوفابل بقية اليوم في نزهةٍ حافلة بمشاهدة المعالم. كانت تمد عنقها لتحدق في الواجهات الخارجية للمباني الشهيرة — وتبعت المجموعة في وداعة بين أرجاء المعارض الفنية والمتاحف — واشترت بطاقات بريدية مصوَّرة بتدبير اقتصادي وحُسن انتقاء، فكتبت عليها أسماء جميع الأشخاص المشهورين الذين ذكَرَهم المرشِد. وبفضل صفاء ذهنها، استطاعت أن تفلت من مزيج الانطباعات التي تتشكل لدى السائح العادي، ولكن عندما عادت إلى فندقها، شعرت أنها نجحت في تحقيق إجهاد عقلي وجسدي شديدَين.

وكانت لطيفةً في التعامل مع الزوجين أمور عندما الْتَقت بهما بعد العشاء في المطعم الخافت الإضاءة بالفندق.

قالت السيدة أمور: «يا إلهي، تبدين مُتعَبة.»

أخبرتْها الآنسة لوفابل: «ينبغي أن تري الآخَرين. اسأليني ما الذي لم أره!»

«هل ذهبتِ مع مجموعة من السياح؟»

«نعم. أفضِّل التجول وحدي، ولكن الكثير من الرجال الفرنسيين يريدون تعليمي الإنجليزية.»

تبادَلَ الزوجان النظرات. ثم سألها الرجل الضئيل باحتشام: «هل ستعتبرين الأمر اجتراءً إذا طلبنا منكِ أن تأتي إلى مَلهى فولي بيرجير معنا الليلة؟ هذا عرضٌ يجب ألَّا تفوِّتيه، إذا كنتِ تستطيعين تحمُّل شيء من المجون.»

ترددت الآنسة لوفابل.

أقرَّت الآنسة لوفابل: «أودُّ أن يكون بوُسعي لاحقًا أن أقول إنني ذهبت إلى هناك، لكنْ عليَّ أن أرى الحياة الليلية في باريس. مكتب توماس كوك يقيم جولةً سياحية. ولا يمكنني أن أجمع بين الأمرَين.»

أخبرها أمور: «بلى، يمكنكِ ذلك. سنُريكِ العرض «الحقيقي» لاحقًا.»

لم تستمتع الآنسة لوفابل بالأداء في ملهى فولي. كان الجوُّ خانقًا جدًّا، كما أنَّ العرض أزعجها. وزاد شعورها بالملل الشديد من تصرفات العارضة العارية، حتى إنها كانت تتوق لأنْ تُسقِط العارضة وشاحها، فقط لكسر الرتابة.

وتذمَّرت قائلةً: «دائمًا ما أسأم من رؤية المنظر نفسه.»

وعندما خرجوا من المسرح مرةً أخرى، قررتْ أن تنهي يومها. فهزَّت رأسها بالنفي عندما أشار أمور إلى حافلة حمراء كُتب عليها بالفرنسية «الطريق إلى الجحيم.»

وأوضحتْ: «سأعود إلى الفِراش.»

فقال لها: «لن تنامي. فالضجيج هنا لا يتوقف. ستكون حركة المرور قد توقفت لدى عودتنا.»

وضعت الآنسة لوفابل حجته في اعتبارها، فرغم أنها كانت مرهقة، كانت حماستها أكبرَ من أن تشعر بالنعاس. وبما أنها لن تغادر باريس حتى بعد ظُهر يوم غد، فبإمكانها أن تبقى في السرير طوال صباح اليوم التالي، بدلًا من شراء قبعة. وقد تلاشت رغبتها في زيارة صانع قبعات الليدي بونتيبول بعد أن رأت مرَّات عديدة انعكاساتِ بدلتها الساتان السوداء بوضوحٍ في نوافذ المتاجر الباريسية.

وبينما كانت متردِّدة، انضمَّ إليهم مرشِد جولة إنفرنو تور. كان يرتدي معطفًا وقبعةً بيضاء أنيقَين، مثل السائق الذي كان يبدو رثَّ الهيئة، مع أشرطة من الجلد الأسود اللامع. أسرَّ هذا المرشد الآنسة لوفابل بابتسامته الماكرة. كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة بقدر طلاقته في استخدام لغة العوام في السب، وكان مظهره يوحي بشيطان صغير وشجاع كان قد خرج من دائرة اجتماعية أرقى.

سألها المرشد: «هل تودِّين أن تصنعي معنا معروفًا؟ لا يمكننا بدء هذه الجولة دون العدد الأدنى، وإلا سنجريها مع تحمُّل الخسارة. هناك بعض الأشخاص الساحرين المتحمِّسين جدًّا لزيارة عالم الجريمة. أستطيع أن أرى بالطبع أن الرذائل والنقائص لا تستهويكِ.»

فوافقتْه: «هذا صحيح. فمظهري لا يوحي بالرومانسية وزهور الكاميليا البيضاء، أليس كذلك؟»

نظر إليها المرشِد بإعجابٍ حقيقي.

وقال: «أنتِ تذكِّرينني بالورود الإنجليزية وجعة وورثينجتون. من فضلكِ كوني بريطانية وجربي الأمرَ ولو مرةً واحدة.»

بحلول هذا الوقت، انضم العملاء المحتملون الآخرون إلى المجموعة. كانوا يمثلون رباعيةً أنجلو-أمريكية جذَّابة؛ زوجَين إنجليزيين شابَّين وفتاة أمريكية جميلة مع خليلها. كانت المرأتان ترتديان فستانَي سهرة تحت معطفي فرو قصيرين، وكان الرجلان يرتديان سُترات سهرة.

أُعجِبَت ميس لوفابل بهم من النظرة الأُولى. كانوا يمثِّلون تغييرًا منعشًا بعد عدم التوافق الذي كان بين أمور وزوجته؛ فلم ترغب في تخييب أملهم. وبينما كانت تتجاذب أطراف الحديث معهم وتتبادل الانطباعات، دخل بعض السياح الآخرين الحافلة، فلم تكن بحاجة للبقاء؛ ولكن بحلول ذلك الوقت، كانت قد بدأت تستمتع بالمغامرة.

في البداية، شعرت بالرومانسية وهم يمضون بالحافلة عبر الظلام الذي يتخلَّله لونُ الزعفران الذهبي لمصابيح الغاز. وقد تحولت أفكارها بشكلٍ مربِك إلى الشرق؛ إلى الزنابق والفوانيس والموسيقى الغريبة الحلوة. وتذكرتْ بكنجهام وتمنَّت لو كان بجوارها عندما لاحظتْ أن الفتاة الأمريكية وعشيقها كانا متشابكَي الأيدي.

لكن مع استمرار الجولة، تلبَّدت سماء حالتها المزاجية بغيوم الخيبة، فلم تستطِع الانضمام إلى ما يحظى به رفاقها من استمتاع. إذ بدا الفساد المقدَّم واهنًا ومبتذلًا في ظاهره. كما زاد إنهاكها من الحرارة والوقوف والهواء السام في الأوكار المختلفة التي زاروها. أمضوا وقتًا طويلًا في كشكٍ فاسدٍ جدًّا، حيث جرتْ تسليتُهم بشيء من الغناء والرقص الغريب؛ فاتَهُم منه جزءٌ كبير، أو بالأحرى، جزء سيئ.

تناولوا العشاء في مطعمٍ صيني، حيث تناولوا أطباقَ الشوب سوي، وزعانف القرش، والبودل، والدجاج مع الأناناس، وشربوا الشاي بنكهة براعم الأقحوان. وبينما كانوا يتناولون الطعام، جاء المرشد إلى طاولتهم ليُدلي بإعلان.

فقال: «سنقدِّم لكم الآن ما يعدُّ قمةَ الإثارة في برنامجنا. سنريكم وكرَ الأفيون. في حالته الخام ... ولكنْ أولًا، يجب أن أقدِّم لكم تحذيرًا. يجب على السيدات ألَّا يدعنَ الرجال يغيبون عن ناظرهنَّ، أو أن يسمحنَ لأنفسهنَّ أن يستميلهنَّ أحدهم بعيدًا ولو لثانية واحدة.»

فسألت الفتاة الأمريكية: «لماذا؟»

غمز المرشد غمزةً طفيفة للغاية لأحد الشباب.

وسأله: «هل أُخبرهم؟ أم أن هذا سيُخيفهم كثيرًا.»

قرر الشاب: «كلَّا، بل أطلِعْهم على كل شيء. يجب أن يكونوا حذِرين. أخبِرهم.»

قال المرشد بابتسامة: «قبل بضع سنوات، قام شابٌّ إنجليزي وأخته بجولةٍ مثل هذه، ولكن ليس معنا. شاهَدا العروض، وتناولا الطعام وفَعلا كل شيء. تمامًا مثلكم. في الواقع، قد تكون ليلتنا هذه مشابِهة تمامًا لتلك الليلة. وعندما كانا في وكر الأفيون، دُعي الشاب إلى الباب لرؤية رجلٍ كان لديه شيء مثير جديد. ولما عاد وجد الغرفة فارغة. كانت أخته قد اختفت.»

سألت الآنسة لوفابل: «إلى أين ذهبَت؟»

«الرب وحده يعلم. فقدَ الشاب عقله. أخذ يُهرَع من غرفةٍ إلى أخرى. لكنه لم يجد أحدًا. ثم استدعى الشرطة. داهموا المكان. لكنهم لم يجدوها مطلقًا ... ومع مرور الوقت، ركنت الشرطة إلى الاعتقاد بأن الفتاة الإنجليزية لم تكن حقيقيةً وإنما مجرد وهم. لأنها لم يُرَ لها أثر مرةً أخرى مطلقًا.»

«ماذا حدث لها؟»

«من الأفضل ألا تفكري في ذلك.»

فانفجرت الآنسة لوفابل في الضحك.

وقالت: «إذَن أنت في ورطةٍ أيها المرشد، سأتعلق بك ولن أدعك تغيب عن ناظِرَيَّ لحظة. لن أُشيح ببصري عن هذا المعطف الأبيض. إذ يجب أن أعود إلى إنجلترا غدًا؛ لأن لديَّ بعض الأعمال المهمة.»

تبادل الزوجان أمور نظرات ماكرة. خمَّنَّا طبيعة تلك المهمة، التي كانت إعادة الجواهر إلى الليدي بونتيبول.

اتجه الجميع إلى كهف الأفيون في جوٍّ من الشك والتمرد؛ ولكن عندما برزوا من حول الزاوية إلى غرفةٍ مظلمة ومتدنية السقف، لم يكونوا مستعدين للرعب الذي كان ينتظرهم. أظهرت بعض الأضواء الخافتة أرائك قذرة، وكان عليها أكوام من القُمامة، كأنها تنتظر عربة جمع القُمامة. كان هناك شخصٌ ما يبدو كأنه جثة تأخَّر دفنها كثيرًا؛ إذ كانت بشرته زرقاء مبرقشة ومشدودة بإحكام على وجهٍ برزت العظام منه؛ وكان هناك شخصٌ آخر ملامحه بلا شكل ومصفرة، مثل دُمية شمعية تُركَت في الشمس.

كان الجو معبَّأً بمزيج من الروائح التي اتحدت في رائحة واحدة نتنة وطاغية؛ رائحة عرق بشري متبخِّر من شدة الحرارة، ورائحة طعام ... طعام نتن، ورائحة صرف صحي ... رائحة قذارة، ورائحة فئران، وغازات، وبانجو، وتنباك، ورائحة الأفيون الكريهة.

كان الصوت الوحيد المسموع في المكان هو صوت هسهسة خشنة مستمرة، وكأنه صوت رئتين ترشحان آخر ما فيهما من هواء.

كسرت الفتاة الأمريكية حاجز الصمت.

فقالت، بنبرة محمومة: «لنذهب. أكره هذا المكان.»

وبينما كانوا يتبعونها جميعًا نحو الخارج، بدأ الشبان يضحكون.

وقال الشاب الإنجليزي: «بيتي مرتاعة. من الأفضل أن نقر بالحقيقة ... اسمعوا يا قوم. كل ما رأيتموه الليلة زائف، من البداية إلى النهاية. كل شيءٍ معدٌّ خصوصًا للسُّياح. وتلك الحكاية عن الفتاة المفقودة مشابهة لقصة «السجين الإسباني». كل شيءٍ زائف.»

وربَّتَ على كتف مرشد النزهة.

وحثَّه قائلًا: «أخبرهم بما أخبرتني به. أخبرهم أن الخدعة انطلت عليهم.»

الفصل السادس والعشرون

سحر

لم يرُدَّ المرشد على ما قاله له الشاب سوى بابتسامةٍ ساخرة. ثم دعا زبائنه ليجتمعوا حولَه وخطَب فيهم خطبةً صغيرة.

«سيداتي وسادتي، انتهَت الجولة الآن. آمل أن تَنتفِعوا بمَغزاها وعِبرتها وبأني لم أخيِّب ظنَّكُم باعتباري رفيقَكُم إلى العالم السفلي. آمل كذلك ألا نلتقيَ ثانية؛ في الجحيم. سيداتي وسادتي، شكرًا جزيلًا لكم.»

وبينما تفرَّق جمهورُه ليتَّجهوا نحو الحافلة، نادَى عليهم ثانية.

«لحظةً واحدة سيداتي وسادتي. على الرغم من أني لم أعُد مقرونًا بكم، ما زلتُ في خدمتكم. ربما ترغبون في زيارة أحد المستودَعات ومشاهدة بعض أعمال التطريز الصينية الأصيلة؟ لا أُخفيكم سرًّا، هذه بضاعة مهرَّبة، لذا لن يتعرَّض أيُّكم للغِش.»

كانت الآنسة لوفابل تتُوقُ للعودة إلى الفندق، لكن بقية السياح كانوا قد ابتلَعوا الطُّعم. كانت الفتياتُ يتطلَّعن إلى فرصةِ إبرامِ صفقة، وحاوَلْن أن يُشرِكنَها معهن.

قُلْن لها: «سنحصُل على أردية كيمونو وأرديةٍ منزلية في غاية الرَّوعة بنصف السِّعر.»

عاجلَتْهم الآنسة لوفابل بردها: «هناك جمارك.»

فقاطعَها المرشد: «كلَّا. سيُدَوِّن الصينيُّ على فاتورتكِ نصفَ ما تدفعين فقط. وسيُعيِّن البضائعَ على أنها تالفة.»

قالت الآنسة لوفابل: «إذن لا يُمكِن أن يكون الرجل صينيًّا أصيلًا. فالصينيون عِرقٌ صادقٌ ونزيه.»

حملَق فيها المرشد قبل أن يلتفتَ إلى بقية المجموعة.

وقال: «أخشَى أني سيتعيَّن عليَّ أن أطلبَ منكم أن نذهبَ سيرًا؛ فالشوارعُ أضيَقُ من أن تمُر بها حافلةُ الجَوْلات السياحية. لكن المكان ليس ببعيدٍ عن هنا. اتبعُوني أيها السيدات والسادة.»

فَرْقَع الرجل بأصابعه من خَلفِه إشارةً لهم أن يتبعُوه، وتقدَّمهم عَبْر مجموعة متشابكة من الشوارع الحقيرة والقَذِرة وشبكةٍ من الأفنية الصغيرة. تبعَته المجموعة كيفَما ذهب، عدا الآنسة لوفابل التي كانت تحفَظ المنعطفات بحذَرٍ غريزي.

قرَّرَت في نفسها: «لن تكونَ هناك قصةُ فتاةٍ مفقودةٍ أنا بطلتُها.»

وخلفَها تمامًا، كان الرُّباعي الأنجلو-أمريكي يتناقشون حول وَكْر الأفيون.

قال الشابُّ الإنجليزي: «على أيِّ حال، لقد أخبَرنا المرشد نفسه أن كلَّ شيء كان مزيفًا. وكان هذا هو رأيي الشخصي. كان باستطاعتكم تمييزُ وجهَين اثنَين فقط. الأزرق والأصفر. ومن السهل التنكُّر لتبدو الوجوه بهذا الشكل في ظلِّ الإضاءةِ الخافتة. تذكَّروا، لم يُسمح لنا سوى بالنظر. لم يُسمح لنا أن ندلفَ إلى الداخل ونتحرَّى الأمر.»

فسألَت الفتاةُ الأمريكية: «مَن الذي يُمكِن أن يرغَب في ذلك؟ إن نشقةً واحدةً من ذلك السُّم كفيلةٌ بأن تقضي على ظربان. كان الأمرُ كلُّه زائفًا بالطبع. كلُّ الأجسامِ الأخرى بدَت كالجُثَث، لأنها لم تكُن على قَيد الحياة. كانت مجرَّد دُمًى.»

جادَل خليلها قائلًا: «أوافقُ على أن العرضَ كلَّه يمكن تزييفُه بسهولة. في الوقت نفسه، سيكون من الأرخص والأبسط إعطاؤنا لمحةً عن الشيء الحقيقي. أنا متأكِّد من أن الأمر كان على هذا النحو. كان المرشد يَكذِب لأنه لم يرغَب في أن يُخيفَ النساء.»

استمعَت الآنسة لوفابل بغيرِ انتباهٍ للمناقشَة التي قطعَها وصولهم إلى المستودَع. وبعد المرور من خلال بابٍ في جدار غلف خلا من أيِّ شيءٍ سوى الباب، صعدوا درجًا خشبيًّا يُشبِه السلم للوصول إلى غُرفةٍ علويةٍ ضخمة. كان السقف متدنيًا، وشكلُ الغرفة غير مُنتظِم، لكن كان من المستحيل تصوُّرها بوضوح أو رؤيةُ أكثر من بضعة أمتار في أيِّ اتجاه، بسبب الكثير من الحُجُب والستائر والخزائن الطويلة التي كانت تحجُب الرؤية.

كانت الإضاءة الخافتة تأتي من فوانيس ورقية بلون العنب الأزرق، المزيَّنة بشعارات خضراء، أعطت انطباعًا بأن المكان مُضاءٌ بضَوء القمر. لم يكن هناك تهويةٌ وكان الهواء معبَّأً بروائحَ عطرية، وعطورٍ وأخشاب. كانت هناك مجموعةٌ كبيرة من البضائع الجميلة في كل مكان؛ أثاث بطلاءٍ أحمر، ولفائف سجَّاد راقية وبُسُط بيضاء بلَون الثلج، وستائر

ومطرَّزات حريرية، وأكواب شايٍ خزَفية، ومصابيح رقيقة تكمُن فيها زنابق يُفترَض أنها نادرة.

وبسبب الازدحام، انقسمَت المجموعة على الفَور إلى أزواجٍ ومتجوِّلين وحيدين بحثًا عن صفقة، حتى إن الآنسة لوفابل أخفقَت في ملاحظة أنهم لم يكونوا مجموعةً كاملة. وبعد همسة سريعة لزوجته، ظلَّ أمور متأخرًا ليتحدَّث إلى سائقِ الحافلة الرثِّ الهيئة.

ابتهلَت الآنسة لوفابل في سريرتها، وهي ضَجِرة ومُنهَكة، أن تأتيَ لحظةُ الإفراج حتى يُمكِنَها العودة إلى فُندقها. كان حماسُ الآخرين وترددهم يثبِّط تلك الرغبةَ باستمرار. كانوا كالفراشات التي لا يُمكِنها الاستقرارُ على أي زهرة؛ لأنه كان هناك الكثيرُ منها. وكان ثمَّة رجلٌ صينيٌّ بَدين يملك المُستودَع ينتظرهم في سكونٍ شرقي ريثما يحدِّدون اختياراتهم، بينما بدا أن مساعديه يدخلون في جو اللعبة.

أعطى المساعدون الانطباعَ بأنهم رجلٌ واحد فقط، ما لم يتصادف أن يظهَروا معًا؛ حيث كانوا يتجولون خلف الحُجُب ليخرجوا دائمًا ببضائعَ جديدة، كما لو كانوا تجسيدًا لرُوحِ الإغراء.

وأينما توجَّهَت الآنسة لوفابل بنظرها كانت ترى نسخةً مكرَّرة للتنِّين، مصنوعةً إما من الحرير أو الزينة الملوَّنة أو الطلاء. وبينما كانت تحدِّق، اعترَتها ذِكْرى وظلَّت تُراوِدها. وأصبح الشعور بالألفة قويًّا لدرجة أنها بدأَت تتساءل هل كانت في الواقع أميرةً خزفية في حياةٍ سابقة.

ثم انفجَرَت ضاحكةً عندما أدركَت التفسير. كان المكانُ يذكِّرها حقًّا بمسرحٍ لإحدى حلباتِ سباقِ الخيل اليونانية أو بمسرحِ الكولوسيوم؛ حيث يتَوارى الساحرُ الشرقيُّ المزعوم خلفَ حجاب لثانية واحدة ثم يعود للظهور في صورة فتاةٍ راقصة تدور حول وعاءٍ من النار.

كان سحرًا ... ولكنه سِحرٌ يعمل من خلال حِجاب.

بحثَت الآنسة لوفابل عن المرشد وثبَّتَت عينَيها على معطفه الأبيض.

وقالت في نفسها: «إن غابَ عن ناظريَّ لحظة، فسيتحوَّل إلى أرنب.»

مرَّ الوقتُ ببطء، وبدأَت الآنسة لوفابل تقترب من أقصى حدود قدرتها على التحمُّل. وفي حين رفضَت أن تتأثر بالإثارة المنظَّمة لوَكْر الأفيون، كان الانطباع التراكُمي للجولة يؤثِّر بشكلٍ كبير على عقلها. فعادت ومضاتُ الذكريات من الساحاتِ الصغيرة والأزقة القذرة تتزاحَم في ذهنها؛ الرباط المتيبِّس لُمتسوِّلٍ مشلول، مثل قطعة من السمك الميِّت ...

الملامح الملطَّخة لامرأةٍ غارقة في البراندي وجسمها المنتفخ ... وفتاة من الطبقاتِ المتعلِّمة في سنِّ المراهقة ثِملة وترقُص في مقهًى.

كانت تلك المشاهدُ الفظيعة حقيقيةً ومنفصلة عن أي شيءٍ مزيَّف يُعنَى بتوفير الترفيه والتسلية للسياح. ولأن الإرهاق الذي ألمَّ بها جعلَها في حالة من الحساسية المُفرِطة، فقد ملأَها إحساسٌ مفاجئ بالاشمئزاز من كل ما يُحيط بها. شعَرَت الآنسة لوفابل وكأنها تركَت النظافة واللياقة وتجاوزَت حدودَ القوانين والحضارة إلى ظلام الفوضى، التي كانت نتاجَ تفكيرٍ عميق لعقل مختل لشيطان فاقد الحس.

ثم نفضَت عنها هذه الحالةَ المزاجية حين حدَّثَتها الفتاة الأمريكية الجميلة.

«أتمنى أن نستطيعَ العودةَ إلى الفندق. أريد أن أتحمَّم. فهناك حشرةٌ تقرصُني.»

جعلَت كلماتُها الآنسة لوفابل تُدرِك أن برغوثًا قد أصابها هي الأخرى.

فردَّت عليها وهي تحكُّ ساقَها: «حالي كحالكِ. ألا يُمكنكِ أن تطلبي من أصدقائكِ أن يُسرعوا؟»

لكنَّ الزوجَين الإنجليزيَّين اليافعَين كانا يُناقِشان سعر كتل من الكهرمان ويرفضان أن يستعجلَهما أحد. وبدأَت الآنسة لوفابل تؤكِّد على استقلالها وهي تشعُر بالتململ.

«لن أظلَّ منتظرةً هنا من أجلِ أهواءِ الآخرين. سأعودُ إلى فندقي. إن لم أستطع أن أستقلَّ سيارةَ أجرة، فسأعود سيرًا.»

سألَتْها الفتاةُ الأمريكية: «أتعرفين طريقَ العودة؟»

«أوه! أجل؛ فأنا أتمتَّع بالقدرة على تمييزِ الاتجاهات.»

«أنا حقًّا معجَبة بهذا الهدوء البريطاني. نادرًا ما يسمع المرء عن امرأةٍ إنجليزية تَفقِد رباطةَ جأشها.»

ردَّت عليها الآنسة لوفابل بعدم اكتراثها الخادع المعتاد، وهي تعي سرًّا تفوُّقَها العِرقي على بقية العالم.

«أوه! نتمكَّن من تدبُّر أمرنا بطريقةٍ ما.»

وبينما كانت تتحدَّث، أبقت عينَها مُركزةً بصورةٍ تلقائية على المِعطَف الأبيض للمرشد. تثاءب المرشد وهو ينظر في ساعته قبل أن يتحدَّث إليها.

«ألا يُوجَد ما يثير فيكِ رغبةَ الشراء يا سيدتي؟»

فأجابَتْه: نعم. لا أومن بأن يحصُل المرء على شيءٍ مقابل لا شيء. لا بد أن هناك خدعة. لا بد أن هذا الرجل الصيني يَجني العمولات التي يتحتَّم عليه أن يدفعها.»

«تقصدين أني أحصل على عمولة أو فائدة. في الواقع، أنا لا أعمل لوقتٍ إضافي من أجل صحتي.»

في تلك اللحظة، اجتذبَت انتباهَ السيدة أمور، التي كانت قد دأبَت على تتبُّع الآنسة لوفابل، لوحةٌ من الحرير الأزرق الصلب والمزيَّنة بزهور اللوتس.

«ألن تبدو هذه قطعةً مركزيةً جميلة على غطاء الفراش في الزفاف؟»

أمسكَت بها الآنسة لوفابل أمام المصباح ثم هزَّت رأسَها.

وأجابَتْها: «إنها مهترئة. ألا تَرينَ الثقوبَ التي أحدثَتْها الدبابيس؟»

«ربما كانت من طرازٍ عتيق ... أوه! أين مرشدنا؟»

أدركَت الآنسة لوفابل أنها كانت قد نسيت قرارَها بألا تدَع مرشدَهم يغيب عن ناظرَيْها. فانطلقَت تتجوَّل حول الحُجُب حتى وقعَت عينُها على المعطف الأبيض وهو يغيبُ خلفَ ستارةٍ ما.

فسألَت: «أين ذهب؟»

وردَّت السيدة أمور: «إنه بجوار الباب. انظري، إنه يُشير إلينا أن نتبعَه. لا يُمكنكِ أن تلومي هذا المسكين. يتعيَّن عليه فعلُ ذلك كلَّ ليلة، أيامَ الآحاد وكلَّ الأيام.»

وبينما هي تتحدث، أحدث المرشد فرقعةً بأصابعه من خلفِ ظهرِه في إشارته المعتادة، وذلك قبل أن يخرجَ من المُستودَع.

سألَت الآنسة لوفابل: «أين الآخرون؟»

«أظنُّ أنهم ذهبوا. إنه ينتظرنا.»

في تلك اللحظة، سمعَت الآنسة لوفابل ضحكةَ فتاة.

فقالت: «كلَّا، ما زالوا هنا. يجب أن أُخبرَهُم أننا سنغادر. انتظريني هنا.»

أسرعَت الآنسة لوفابل في اتجاه الأصوات تنسلُّ خلف الحُجُب والستائر حتى وصلَت إلى كوَّة كانت فتاةٌ ورجل يتفاوضان فيها مع بائعٍ صيني.

فنادت تقول: «أسرِعوا. سنُغادر ... أوه! أنا آسفة. ظننتُ أنكم تنتمون إلى مجموعتي.»

وبينما كانت تنظر إلى وجوه الغرباء المتفاجئة، راودَتْها أولى بوادر الشعور بالقلق. بدا من المتعذَّر متابعة بحثها عن الرباعي الأمريكي البريطاني في هذا المكان المربك، خاصة وأن الاحتمالات كانت تقول إنهم تغوَّلوا فيه. صحيحٌ أنها تحدَّثَت عن العودة وحدها إلى فندقها، ولكن لأنها كانت قد حفظَت المنعطَفات في شبكة الشوارع، أصبح عقلها متعبًا ولم تعُد واثقة.

فقَرَّرَت: «يجب أن أتبعَ المرشد.»

لم يكن هناك أيُّ أثَرٍ له عندما غادرَت المستودَع وأخذَت تبحث عنه في ممر مظلم كريه الرائحة. كان الممر مضاءً بإضاءةٍ خافتة في الطرف الأقصى منه بشُعلةٍ واحدة من الغاز، انبثَق منها لهبٌ طويلٌ أزرق. كانت التُّخَت بالية، وقد قرضَت الفئران إزار الجدران، كما كانت جدرانُ الجَصِّ المتدرِّجة مليئةً بالخَرْبَشات.

اقشعرَّت الآنسة لوفابل من الاشمئزاز.

وفكَّرَت في نفسها: «ما هذه الحفرة القذِرة. لماذا لا ينتظرني ذلك الشقي؟»

وإذ كانت السيدة أمور قد اختفَت هي الأخرى، بدأَت الآنسة لوفابل تركُض محاوِلةً اللحاق بها. وعندما وصلَت إلى المنعطَف ولم ترَ إلا ممرًّا ثانيًا ينعطف خارجَ أفق الرؤية، شعَرَت بوخزةٍ أخرى من الاضطراب. وعلى الرغم من إدراكها السليم، كان لديها إحساسٌ بأنها تُستدرَج بعيدًا. في تلك اللحظة، كانت عالقة؛ لأنها فقدَت المرشدَ والسيَّاح الآخرين.

ولما توقَّفَت، رأت من خلال نافذةٍ صغيرة لها قضبانٌ صَدِئة مثبَّتة عاليًا في الجدار ضوءَ القمرِ الأحدب. جعلها إيمانُها بالخرافات تشعُر بشعورٍ غامض يتألف من الخوف والريبة، كلما كان القمر في طريقه إلى الاضمحلال. بدا ذلك تحذيرًا لها ... علامة لها على أن كارثةً قادمة.

حاولَت أن تقدِّم إثباتًا على الثناء الذي أثنَت به الفتاةُ الأمريكية عليها وأن تُحافِظ على رباطة جأشها بينما كانت تفكِّر مليًّا في إمكانيةِ وجودِ كارثةٍ كامنة. وحتى لو قبلَت بالتفسير المقرَّر بأن ما رأوا من إثارة مزيَّف وبقصة «الفتاة المفقودة» المختلَقة، كان عليها أن تواجه حقيقةَ أن امرأةً وحيدة وتفتقر إلى الحماية وتستكشف عالم الإجرام والفساد لمدينة كبيرة ما تزال تواجه خطرًا جسيمًا. وكانت قد قرأَت كثيرًا عن جرائم ارتُكبَت من أجل بضعةِ جنيهاتٍ فقط.

فحسمَت أمرَها قائلة: «سأعود إلى المستودَع. لا بد أن هناك أشخاصًا آخرين لُطَفاء سيريدون العودة إلى فنادقهم.»

كانت تستدير لتعود أدراجَها عندما سمعَت صوتًا خافتًا على مسافةٍ منها. كان شخصٌ ما يناديها باسمها.

في ظل هذه الملابسات، كان استبشارها بهذا النداء تقريبًا مثل استبشار الخَلقِ بالنَّفخِ في الصُّور. صاحَت الآنسة لوفابل لتُعلِن قُدومَها، فاندفعَت في الممَر وانعطفَت مع الشارع. ووصلَت في الوقت المناسب لترى رأسَ السيدة أمور تظهَر من بئرِ سُلَّمٍ متهدم.

صاحت السيدة أمور: «هلُمي. نحن جميعًا بانتظارك. أنتِ تُؤخِّرينَنا.»

وبينما توجَّهَت الآنسة لوفابل نحوهم في اضطراب — كأنها تلميذةٌ متقدِّمة في العُمر عن بقية زملائها — ونزلَت الدرَج المتهدِّم، استطاعت رؤيةَ مِعطَف المرشدِ الأبيض يلمع عَبْر الظلام تحتها. كان يُوليها ظَهرَه، ولكن عندما وصلَت إلى أسفل الدرَج، استدار بقوَّة وهو يرفع كلتا ذراعَيه كما لو كان يُسدِّد الضربة الأولى في لعبة الجولف.

ثم ضرب رأسَها شيءٌ رطبٌ وثقيل — وكأنها حلوى بودينج مربوطة في قماش — فانهارت على الأرض وظهرُها مُستندٌ إلى الجدار.

وقبل أن تفقد الوعي، مرَّت بها لحظةٌ من النفور الطاغي والصدمة القوية. فبدلًا من أن ترى ابتسامةَ المرشد المرحة، رأت وجهَ أمور المُكفهِر، وكان مشدودًا ومشوهًا بفعل ما بذل من جهدٍ مُرَكَّز.

في لحظة التكشُّف هذه، شعَرَت كأنَّ بالوعةً قد انفجَرَت أمامها فجأة، ليخرج منها جرذ مجارير …

انتزع أمور علبة المجوهرات ودسَّها في يدَي زوجته.

وأمرها قائلًا: «أسرعي. اقفزي في سيارة أجرة. سألتقي بكِ في محطة جار دو نور.»

ولم تلبث أن فتحت الباب حتى نادى عليها مرةً أخرى.

«تبًّا، تلك الخرقاءُ ثقيلةٌ للغاية. ساعديني في إرقادها في الخارج؛ اللعنةُ عليها.»

وبينما كانا يجُرَّان الآنسة لوفابل ويُزحزِحانِها على الحصى، كان هناك من يفتَقدُها في المستودَع. فعندما انتهى المرشد من التحقُّق من فواتيره مع المالك الصيني الغشَّاش، تذكَّر تأكيدها القاطع على الأمانة الفِطرية لهذا العِرق السامي.

وفكَّر في نفسه: «ليتَه كان صينيًّا بحق، وليس هذا المخادع.»

وعندما عاد إلى رعاياه، بحث عنها في المكان.

ثم سأل: «أين تلك الوردة الإنجليزية؟»

فأجابَتْه الفتاة الأمريكية الجميلة: «عادت إلى فندقها.»

«دون أن تقول لي «وداعًا». لكنها لن تتعرَّض لأذًى … تكاد تلك المرأةُ تجعلني أتطلَّع إلى الحياة الأسرية … لكن فات أوانُ ذلك الآن. نساءٌ أكثر من اللازم. لن تُفارقَني هذه اللعنة أبدًا.»

ثم أضاف وقد تغيَّرَت نبرته: «لم أعُد مسئولًا عنكم. ولكن إذا جئتم معي الآن، فسآخذكم إلى موقفِ سياراتِ الأجرة.»

بعد فترة وجيزة دخل الرجل شقَّتَه الصغيرةَ اللائقة، وعانَق زوجتَه الضئيلة وفرَك لثة الطفل.

ثم سأل: «هل خرج السنُّ بعد؟ كان لديَّ الليلةَ مجموعةٌ كبيرة من الأغبياء. واحدةٌ منهم فقط لم تسقُط. كانت صريحة ومُنصِفة. لونها كلون الورد وممتلئة دون أن تكون سمينة ... كلَّا، لا تصفعيني. لم أتحسَّس جسدَها.»

جلس الرجل الضئيل السعيد لتناوُل العشاء مع زوجته المُحِبة وقد ربط مئزرًا فوق بدلَته الأنيقة ...

كانت الآنسة لوفابل مستلقيةً على البلاط القذِر لِفناءٍ صغير وهي غائبةٌ عن الوعي إلى حدٍّ ما. وبين الحين والآخر كانت تُفيقُ للحظاتٍ على لمحاتٍ مروِّعة لما حولها. كان هناك صفٌّ مسنَّن من الزجاجات ناتئ على جدارٍ عالٍ. كما سمعت أصواتًا صاخبة لحفلة سُكر مُطوَّلة، وقتالٍ بين قطط؛ وكلاهما كان يدور بلغةٍ غير مفهومة لها. ثم هناك البرودة التي تسلَّلَت إليها، ورائحة القذارة — والألم النابض في رأسها المصاب.

كان أولُ ضوءٍ فاترٍ للفجر يُضيء السماء حين فتحَت عينَيها لتستقبل فريق الإنقاذ المؤلَّف من عاملِ نظافةٍ يرتدي قميص العمال وشرطي. كانا يتحدَّثان معًا همسًا وبانفعال.

وعندما رحَّب الموظَّف المسئول بعودتها إلى الوعي بسيلٍ من الأسئلة، أثبتَت كفاءةَ وعيِها في ظل الشدائد. إذ كانت لغتُها الفرنسية التي تحدَّثَت بها لغةَ فتاةٍ عادية على قدر جيد من التعليم، ولكنها كانت تفتقد للتعبيراتِ الأصلية. علاوةً على ذلك، كان اللَّبسُ يكتنفُ الموقف بينما كان ذهنُها غير قادر على تحمُّل الضغط.

ولَّما جلسَت، بدأ كل شيء يدور حولها، ولكن قبل أن يُغشى عليها، تمكَّنَت من نطق كلمتَين سحريتَين بوضوحٍ وثبات.

«توماس كوك.»

الفصل السابع والعشرون

السهر

يوم الثالث عشر من سبتمبر، استيقظَت إلسي مبكرًا وقطعَت الورقةَ القديمة من التقويم. وعلى الرغم من أنها كانت تتطلَّع إلى هذا التاريخ الذي كان من المقرَّر أن تعود فيه الآنسة لوفابل إلى إنجلترا، كانت سعادتُها مشوبةً بالحَيْرة. فطَوالَ ليلتِها التي قضَتها في نومٍ متقطع، كانت تُعيد النظر في مشكلتها كلما فكَّرَت في سيدتها التي تستقلُّ قطارَ كاليه.

الذهابُ إلى لندن أم عدمُ الذهاب إليها.

كان قرارها هو البقاء في المنزل وتجهيزه على مهل، ولكن كلما قرَّرَت أن تسلك الدرب الأسهل، كان ضميرها يتهمُها بالجبن. كانت نفسُها تضيق من فكرة عودة الآنسة لوفابل إلى منزلٍ مظلمٍ وفارغ، دون أحدٍ لاستقبال الطارقين على الباب ولإبعادِ الرجالِ الغرباء.

دفعَتْها ذكراها عن القمر الباعث على الكآبة والذي رأته عند الغسَق إلى أن تُمضي الصباحَ في فَورةٍ محمومةٍ من العمل، الذي كانت قوَّتُها لا تُكافِئ القيام به. وعلى الرغم من أنها كانت تعلَم أنها لم تحقِّق من هذا العمل سوى ما كانت الآنسة لوفابل ستُسمِّيه «عملًا طائشًا وغيرَ مُتقَن»، كانت ترتجفُ من الإرهاق، وحينها نزعَت عنها الوزرة وهُرِعَت عَبْر الحديقة نحو الخارج.

كان آلُ بيت يعيشون في منزلٍ كبير على الطراز الجورجي على أطراف القرية. وكانت الابنة الكبرى — واسمها أجاثا — تشذِّب الحديقة الأمامية عندما سمعَت صريرَ البوابة ورفعَت رأسَها لترى إلسي. على عكس المستوى العالي من النظافة المعتاد منها، بدَت الفتاة متسخةً ورثَّة الهيئة كما لو كانت تستغلُّ غيابَ السلطة.

سألت إلسي بنبرةٍ مرحة: «هل تودِّين دعوةَ شابَّين نبيلَين للبقاء معكِ هذه الليلة؟»

ولكن، للأسف، ضايقَت محاولتُها للتحدث بنبرةٍ مرحة الآنسة بيت.

فسألَتْها الآنسةُ بيت بصرامة: «هل تَعرِضين أن تصنعي لي معروفًا؟ إن كان الأمر كذلك، فأنا لستُ بحاجة إلى معروف، شكرًا لك.»

أكَّدَت لها إلسي بسرعة: «أوه! كلا يا آنسة. كل ما في الأمر أن سيدتي ستعودُ الليلة وأظن أنني يجب أن أكونَ في المنزل في لندن لأستقبلَها وأعتنيَ بها، لذا أطلبُ منكِ أن تتكرمي بالاعتناء بصغارنا.»

لم تتوقف أجاثا بيت لتنظُر في مزايا الأمر. كل ما كانت تعرفُه هو أن الضيوف المقترحين سيُسبِّبون مشاكلَ مع وجود كلابها القساة، بينما لم تكن تهتم بما يكفي لأمر إلسي لتُضحِّي براحة بالها.

فسألَتْها الفتاة: «هل تتوقع الآنسة لوفابل حضوركِ؟»

«كلا، ولكني أظُن أنها ستكون مفاجأةً سارة.»

«إذَن يا إلسي، ستُضطرِّين لمفاجأَتها في منزل البحيرة. لا أستطيع أن أتحمل مسئولية سكوتي وديفيد. فأنا مشغولة بالتزامٍ ما.»

ومن دون أن تنظر ثانيةً إلى إلسي، شرعَت أجاثا في تشذيب العُشب فجعلَته يُعاوِد التطاير في وابل أخضر قوي، دلالةً على أن هذه المناقشة قد انتهَت.

في واقع الأمر، كانت إلسي مرتاحةً إلى هذا القرار الذي أزال عنها نصَب القلق. فسارت ببطءٍ عائدةً إلى منزل البُحيرة؛ لأنه كان أمامها متَّسَع من الوقت بعد أن خرج الأمر من نطاق سيطرتها. فلم يكُن هناك غير الآنسة بيت تستطيع إلسي أن تأتمنه على الحيوانَين الأليفَين، ولم يكُن باستطاعتها أن تتركَهُما وحدَهما أثناء الليل.

مما يُؤسَف له أن ذهنها لم يكن يتمتَّع بثبات الرأي. فقبل أن تمُرَّ ساعةٌ أخرى، عادَت ثانيةً إلى حالةٍ من التقلُّب المزاجي. إذ جعلَها التذكير بأن عليها الاستعداد للِّحاق بقطار الثالثة وخمس وخمسين دقيقة — في حال احتاجَت الذهابَ لاستقبال سيدتها — تدخُل في حالةٍ من التنظيف والتلميع بجهدٍ كبير. ولَمَّا توقَّفَت من أجل أن تُغيِّر ملابسَها، أخرجَت لسانَها إلى الهاتف.

وقالت موجِّهة كلامَها له: «ليدقَّ جرسُك كما يحلو له. لن أنزل وأنا مبتلَّة لأُجيبَ عليك ...»

وبينما كانت إلسي تتحمَّم في حوض الاستحمام، كانت الآنسة لوفابل تُجري لقاءها الثاني مع ممثِّل توماس كوك في باريس. حدث هذا اللقاء في غُرفة نومها، حيث لم يكن بالفندق قاعاتٌ عمومية. على أيِّ حال، كان على الآنسة لوفابل أن تظلَّ ملازمة الفراش

بأوامرَ من الطبيب. وكان الطبيبُ قد وضع ضمادةً على جبهَتها وأوصَى لها بالراحة نتيجةَ الصدمة التي تعرَّضَت لها من الضربة، بينما أشار بلباقة إلى حقيقة أنها فقدَت وعيَها جرَّاء صدمةٍ قوية لا يُستهان بها.

«كلا، يجب ألا تنهضي. ستجلسين في القطار غدًا. الأفضل أن تظلِّي راقدةً على جانبكِ طَوال الوقت من أجل تهدئة الضغط.»

كان الانصياعُ إلى العلاج السلبي بمنزلة التعرُّض لتعذيبٍ نفسي بالنسبة للآنسة لوفابل. وقد تأجَّجَت نيرانُ تمرُّدِها بعد زيارة وكيل توماس كوك؛ لأنه أحضَر معه جوازَ سفرِها المفقود وتذاكِر القطار.

أخبرها الوكيل: «وجدوا العلبة في أحد الأزقة؛ حيث كانا قد تخلَّصا منها. لقد أخذا كلَّ ما كان فيها لكنهما لم يتركا سوى هذه الأشياء. على الأرجح كانا قلقَين من استخدام تذاكر القطار خوفًا من أن يتم التعرُّف على أرقامها التسلسلية. من حُسن الحظ أنهما تركا جوازَ سفركِ. إذ يمكن لهذا أن يسبِّب المشكلات إن وقع في الأيدي الخطأ. لكن يبدو أنهما لصَّان صغيران.»

قالت الآنسة لوفابل موافقة إياه: «كان ينبغي بكَ أن تراهما. لكن بعد أن استعدتُ جواز سفري، لا يوجد ما يعُوقني عن عودتي الليلة إلى لندن وعلى وجه السرعة. فلديَّ صفقةٌ مهمة عليَّ تولِّي أمرِها صباحَ الغد.»

وشدَّدَت الآنسة لوفابل على فكرة السفر، لكن وكيل توماس كوك أقنعَها في نهاية المطاف بالعُدول عنها بحُجة أنها لن تكونَ في حالةٍ تسمح لها بإجراء الأعمال. وبعد أن أتمَّ كلَّ ترتيباتِ عودتِها في الرابعَ عشرَ من الشهر، طلبَت هي منه أن يُجريَ اتصالَين هاتفيَّين إلى إنجلترا.

كانت المكالمة الأولى إلى البنك الخاص بها لضمانِ وضعِها المالي وترتيب التغطية لقرضها؛ وأما الثانية فكانت إلى السيد لِيمون وكيل العقارات، لتطلُبَ منه أن ينوبَ عنها في المقابلة مع الميجور براند.

ونصحَت الوكيلَ بقولها: «أبلِغه برسالتكَ قبل أن يبدأ في الكلام.»

وابتسمَت وهي مستلقية وتستمع بينما كانت أصواتُ الخشخشة تأتي من الهاتف عاليةً حتى أغلق وكيل كوك السماعة بقوَّة.

وقال: «كان يُخبرني عن زيارته الأولى إلى باريس. يبدو أن هذا كل شيء. وداعًا.»

وبينما كان يخرج من الغرفة، نادَتْه الآنسة لوفابل.

وقالت ملتمسة: «أتساءل إن كان باستطاعتك إجراء مكالمةٍ أخرى. إنها إلى منزلي. سأتولَّى أمرها بنفسي.»

كانت قد اتخذَت قرار إجراء المكالمة بعد خسارة معركةٍ شديدة مع طبيعتها الاقتصادية. في البداية، شعَرَت بالارتياح عندما أبلغ مشغِّل الهاتف أنه لا يُوجَد ردٌّ من منزل البحيرة.

فقالت: «لا بد أن خادمتي بالخارج. من فضلك انتظر. أظن أنني يجب أن أُعلِمَها. هل يمكنك أن تطلب لي رقمًا آخر؟»

ولما نجحَت محاولتُه الثانية، أعطاها الوكيل السمَّاعة وأسرع بالخروج من الغرفة قبل أن تتمكن من التفكير في طلبٍ آخر.

جالت الآنسة لوفابل بنظرها في أرجاء الشقة الفندقية التقليدية الكئيبة، بينما سمعَت صوت السيدة بوسانكيه الأجَش على الطرف الآخر من الخط. في تلك اللحظة، أدركَت المعجزة الحديثة التي ربطَتْها ببيت قسٍّ إنجليزي، لم يكن يمكنُ الوصول إليه إلا بصعود طابقَين طويلَين من الدرَج.

قالت بنَبرةٍ رزينة: «الآنسة لوفابل تتحدَّث من باريس. لقد اتصلتُ للتو بإلسي، ولكنها لم تُجِب. هل يمكنكِ أن تُخبريها أنني سأتجاوز الذهاب إلى لندن وأعود مباشرةً إلى منزل البحيرة بعد ظُهر الغد، في القطار المعتاد. يوم الرابعَ عشرَ من الشهر. هل فهمتِ ذلك؟ أنا آسفةٌ لإزعاجكِ ... أوه! ربما تخبرينَها أيضًا أنني في باريس من أجل ... من أجل شِراء قبَّعة.»

كرَّرَت السيدة بوسانكيه رسالتَها بأسلوبٍ عملي ومقتضب. ثم أضافت تَلومُها: «هذا توقيتُ اجتماع الأمهات.»

«كيف لي أن أعرفَ ذلك، وأنتِ ترفُضين الإقرارَ بوجودِ سكوتي وديفيد؟»

كانت السيدة بوسانكيه تضحك عندما اتصلَت بدَورها بمنزل البحيرة، وكان ضحكُها نابعًا من مشاعرَ مشوَّشة بأنه لا بد أن هناك ميزةً أكبر في إجراءِ مكالمةٍ محلية. وعندما لم تتلقَّ ردًّا، أطلَقت سُبَّةً واحدة، ولكن قويَّة. ثم نظَرَت إلى ساعتها وقرَّرَت أن هناك وقتًا يكفي لتسليم الرسالة شخصيًّا قبل اجتماعها.

وحيث إنها كانت شديدةَ الكَد والاجتهاد — وكانت ترتدي قبَّعتَها بالفعل — فقد خرجَت على الفَور متجهةً إلى منزل البحيرة ووصلَت إليه في الوقت نفسه الذي أنهت فيه إلسي استعدادَها. كانت ترتدي الفستانَ الأصفرَ الفاتح الذي اشترَتْه لحفل الحديقة وكانت تقفُ أمام المرآة تتفقَّد مظهَرَها عندما سمعَت جرسَ الباب الأمامي يدقُّ طويلًا.

ورغم أن غريزتَها كانت أن تُجيب على الجرس، فإنها ابتعدَت عن النافذة وقد اعتراها شعورٌ بأنها مخطئة ووقفَت تستمع. دقَّت السيدة بوسانكيه الجرسَ مرةً أخرى وطرقَت على الباب طرقًا شديدًا. كانت تعرف أن البيتَ لا يمكن أن يكون فارغًا؛ لأنها كانت تسمَع نُباحَ سكوتي في القاعة. ولكن عندما استدارت، نظرَت إلى النوافذ وتحيَّرَت حين لاحظَت أنها كلَّها مغلقة، وذلك على الرغم من اعتدال الجو في تلك الظهيرة الجميلة.

أطلَّت إلسي من بين ثنايا الستائر وأخذَت تراقبها حتى ابتعدَت عن الأنظار. وكان قلبُها ينبض بقوة وحلقها جافًّا عندما تسلَّلَت إلى الطابق السفلي وطمأنَت نفسها بأنها تركَت ما يكفي من الطعام والشراب للحيوانَين.

ثم واتَتْها فكرةٌ بائسة: «فلنَفترِض أن النارَ اشتعلَت في المنزل.»

لم تكن إلسي متأكدةً من الاتجاه الذي تؤدِّي فيه واجبها، حتى وهي تفعَل ما تفعَل. في الواقع، كانت تتخلى عن موقعها ومسئوليتها، رغم أنها كانت تفعل ذلك لخدمة سيدتها. كما كانت هناك مشكلةٌ إضافية تتمثَّل في أنها يجب أن تلحقَ بالقطار الذي يغادر في الساعة الرابعة إلا خمس دقائق، لكي تستلمَ مفتاحَ المنزل رقم «١٩» في ماديرا كريسنت، قبل أن يُغلَق مكتبُ وكيل العقارات.

ترك لها الاستعدادُ مبكرًا وقتًا لتقضيه في لندن، والذي كان بالإمكان استثمارُه بشكلٍ أفضلَ في منزل البحيرة.

ثم حدَّدَت ما ستقوم به قائلةً في نفسها: «سأجهِّز كل شيءٍ لأجل أن تتناول الطعام. ويُمكِنني أن أتركَه في المطبخ وأذهب إلى الأعلى وأنتظر في الردهة في الظلام. وعندما أسمع صوتَ مفتاحها، سأفاجئها … فإذا ما تعاملَت معي بعَجرفة، فسأعود إلى سكوتي وديفيد في قطار منتصف الليل. حينها لن يشغَل بالي شيء. ستكون قد وَجَدَت الترحابَ وسأعرفُ أنها في أمانٍ بالمنزل.»

ولما ارتاحت قليلًا لفكرة أنها كانت تترك طريقًا للانسحاب، قبَّلَت الحيوانَين الأليفَين بشغَف قبل أن تتسلَّل من المنزل عَبْر المدخل الخلفي.

وكانت على وشك أن تصل إلى المحطة، عندما أوقفَت أجاثا بيت سيارتها — وهي التي كانت في طريقِ عودتها من ملعب الجولف — لتنادي على السيدة بوسانكيه.

«تَبدِين في عجَلةٍ من أمركِ. أذاهبةٌ أنتِ لاجتماع الأمهات؟ سأوصِّلكِ حتى درَج الكنيسة.»

قبلَت زوجةُ القسِّ العَرضَ بالتوصيلة بسرور. وفي الطريق إلى الكنيسة، أخبَرَت الآنسة بيت عن رسالة الآنسة لوفابل وفشَلِها في إبلاغ إلسي بها. استمعَت أجاثا باهتمام ثم روَت بدَورها قصةَ زيارة الفتاة لمنزلها في الصباح.

فعلَّقَت قائلة: «ثِقِي فيما أقوله. لقد انفلتَت وذهبَت إلى لندن خفية. ستنالُ عقابًا شديدًا عندما تسمَع الآنسة لوفابل بذلك. وهذا شيءٌ جيد أيضًا. فذلك وضعٌ لا أحبُّه مطلقًا؛ أن تسيطر الخادمة على ربَّتِها. ربما ستترك لها كلَّ أموالها.»

وما أثار اندهاشَها أن السيدة بوسانكيه لم تُشارِكها رضاها. إذ بدا على وجَهِها المتجهِّم أنها مستغرقةٌ في التفكير عندما تحدَّثَت إلى السيدة بيت.

«عندما تكتشف إلسي أن الآنسة لوفابل لن تأتيَ الليلة، قد تُحاوِل حفظَ ماءِ وَجهِها بالعودة على متنِ قطار منتصف الليل. إنها فتاةٌ مهذَّبة، وقد تُزعِجها الأساليبُ الفظَّة. يجب أن تذهَبي خلفَها على الفَور وتُوقفيها.»

قطَّبَت الآنسة بيت عندما نظرَت إلى مِعصَمها.

وقالت: «فات الأوان. إنها الرابعةُ إلا خمس دقائقَ بالفعل.»

فردَّت السيدة بوسانكيه: «بل الرابعة إلا اثنتَي عشرةَ دقيقةً على ساعتي.»

«ثمَّة تأخير في ساعتكِ. ولكني سأرى إذا كان بإمكاني أن أدركها. إنها مشيئة الله. يعتمد كل شيءٍ الآن على أينا ساعتُها مضبوطة.»

وبينما وقفَت زوجةُ القس تُشاهِد السيارة تختفي عن الأنظار، كان وجهُها يحمل أمارات الجدية. وعلى الرغم من أنها كانت صارمةً في التأديب والانضباط، كانت تُؤمِن بتفاني إلسي للسيدة لوفابل والذي يُبرِّئُها من شَك الآنسة بيت أنها ذهبَت خلسةً في رحلة سريعة.

فكَّرَت في نفسها: «لقد فقدَت عقلها. لنأمل أنها لن تفقدَ شيئًا آخر.»

كانت تفكِّر في موقفٍ يتجانس مع شِيَم إلسي، لأن إلسي في رأيها ليست الخيارَ المفضَّل لدى الجميع. وبينما كانت تكدُّ في صعود الدرَجات الطويلة — والتي كانت الآنسة لوفابل قد تجاوزَتْها بسهولة شديدة أثناء مكالمتها الهاتفية — امتدَّت أصابعها تبحَث عن العقدة في خيوط تثبيت قُبَّعتِها، كما لو كانت تطمئنُّ عليها.

جاءت الأمهات للاجتماع. ثم غادرن. وألقت السيدة بوسانكيه محاضرةً عليهن وقدَّمَت لهن الشاي، متناسيةً إلسي. وعادت الآنسة بيت من مهمتها، وقبل العشاء، لعبَتْ مع والدها لعبة جولف الساعة (لعبة جولف، نشأت في منتصف القرن التاسع عشر.

يضرب فيها اللاعبون كرة جولف، من ١٢ موضعًا مُرقَّمًا ومُرتَّبًا في دائرةٍ كما في الساعة، إلى ثقب واحد يقع داخل الدائرة). ومع غروب الضَّوء من السماء، كان القط والكلب يلعَقان الطعامَ من طبقَيهما داخلَ منزل البحيرة، كمقدِّمة للانسحاب إلى سريرَيْهما …

حلَّ الظلامُ مبكرًا في لندن وخاصةً داخل المنزل رقم «١٩» بماديرا كريسنت؛ حيث كانت كل الستائر مُغلَقة. وكان الهواء حارًّا وراكدًا، والجو مشحونًا بالتوتُّر جرَّاء الانتظار الطويل والترقُّب. وبسبب قلة الحركة في المنطقة، أصبح لكل صوتٍ ثقلٌ غير متناسبٍ معه. وبدا أن هناك صوتَ خطواتِ أقدام تتحرك في أرجاء الطابق السفلي، كما لو أن شبَح طاهية قد عاد إلى المكان الذي كانت فيما مضى تقوم فيه بنشاطاتها الأرضية. وكان هناك صوتُ قرقعةٍ خافت قد يكون ناجمًا عن أطباقٍ خزفية — وصوت صريرِ ألواحٍ في الأفق — وصوت سقوط قطرات الماء.

وبينما كان كلارنس متربصًا في الظلام، تأجَّجَت في نفسه فَورة من الإثارة المكبوتة. كان شغفُه بالانتقام على وشك أن يتحقَّق. عندما يُوجِّه ضربته، لن تكون امرأة هي التي تنهار على الأرض، بل عدُوه هنري واتكينز. بعد ذلك، يُمكِنه قراءة الأخبار عن هذه المأساة في الصحف وإبداءُ إعجابِه بمسار العدالة الإنجليزية التي يُقيمُها القانون.

حتى الآن، كل شيءٍ كان يسير دون معوِّقات. كان يُمكِنه أن يُقسِم أن أحدًا لم يلاحظه عندما تسلَّق أنبوب الماء إلى شُرفةِ نافذةٍ خلفية في الطابق الأول. كان الزقاق الخلفي مهجورًا؛ إذ لم يرَ أيَّ وميض للضوء، ولم يسمَع ولو هَمسًا.

كل ما كان عليه فعلُه هو الاستماعُ وانتظارُ صوتِ مفتاحٍ يحتك في قفل الباب الأمامي، بعدها سيتسلَّل نحو أسفل الدرَج؛ حيث سيسقُط ضوءُ الشارع من خلال النافذة العلوية على الجدار.

سيكون الظل الذي ينعكس على هذه البقعة المضاءة هو الإشارة المنتظرة ليُوجِّه ضربتَه، بحيث يأخذ ضحيَّته على حين غِرَّة فتنهار على الأرض دونَ صِراعٍ أو صِياح.

بدا له أنه انتظر فترةً طويلةً جدًّا، لكنه لم يجرؤ على إضرام النار في عودِ ثقابٍ للنظر في ساعته. وعلى الرغم من أن منطقة كريسنت كانت هادئةً جدًّا ومنعزلةً عن حركة المرور في الشارع الرئيسي، كان عليه أن يتذكَّر وجودَ الناس في المنازل على كلا جانبَي المنزل. قد يلاحظ شخصٌ ما بالخارج في الحديقة خيطَ الضوءِ الخفيف من خلال شقٍّ في إحدى الستائر.

قال لنفسه إن القطار تأخَّر، أو إن ضحيَّته توقَّفت في مكانٍ ما لتتناول وجبة. عاجلًا أو آجلًا، من المؤكَّد أن ضحيَّته ستأتي إلى المنزل. ودَورُه هو الإنصات والانتظار ...

ولمَّا كاد صَبرُه ينفد، سمع صوتًا يأتي من الردهة بالأسفل. كان الصوتُ هو صوت إغلاق الباب الأمامي. كانت ضحيَّته قد أخذَته على حين غِرَّة؛ لأنه كان قد فاتَه الإنصات إلى خطواتِها على الرصيف، وكذلك صوت حقيبتها عندما ألقتها، لتُحرِّر يدَيها.

اكتست شفتاه بخيطٍ رفيع من الرغوة عندما أدرك أن لحظةَ انتقامِه قد حانت. ومن خلال الضباب الذي أغشَى عينيه، رأى ظلًّا مشوهًا لرأسٍ ينعكس على الجدار. خفَق قلبه بشدة عندما أمسَك بالمضرب الحديدي بشدة قبل أن يرفعه عاليًا، مستهدفًا الجسم المُعتِم الذي يقع أسفلَ منه في الردهة.

وعندما سمع صوت سقوط الجسم وشَعَرَ بعضلات ذراعه ترتجف، غمَرَه شعورٌ جامح بالانتصار.

بتلك الضربة، كان قد قتل للتوِّ رجلًا، رجلًا سيستمر في حياته بشكل طبيعي كما لو كان لا يزال على قيد الحياة.

الفصل الثامن والعشرون

قليلٌ من الحظ

عادت الآنسة لوفابل إلى إنجلترا في الرابع عشر من سبتمبر.

بينما كانت تجلسُ في القطار في طريقها من باريس إلى كاليه، كانت الكآبة البادية عليها تتناقَض بشدَّة مع حالتها المزاجية المتألقة التي كانت قد بدأَت بها عطلتها. كانت ثقتُها بنفسها قد وهنَت، ومثل سفينة فخمة مذهبة، تعرَّضَت لعاصفة، كانت تحمل علامات محنتها الأخيرة في مظهَرها المتدهور.

كان الطقس حارًّا، لكنها ارتدَت مِعطفَها المصنوع من شَعر الجمَل لتُخفي ما تعرَّضَت له بدلة الساتان السوداء من ضرَر. لم تستطع إخفاء جواربها المُنسلة بهذا المِعطَف، لكن حالتها المزاجية كانت قد انحدَرَت إلى مستوًى أصبحَت لا تهتمُّ فيه بالتفاصيلِ الشخصية التافهة. وقد كشَف وجهُها الباهت وعيناها الثقيلتان عن إصابتها بصداع نصفي، بينما غطَّى شريطٌ لاصق جرحًا سطحيًّا على جبينها.

كان ارتباكُ روحها أسوأَ بكثيرٍ من محنتها الجسدية. كانت قد عانت من نوبة مربكة للغاية من خيبة الأمل ومن خسارةٍ مالية. لكن أكثر ما كان يؤلِمُها هو معرفتُها بأن حظَّها كان قد تخلَّى عنها لأول مرة في حياتها.

لم تَستطِع فهمَ ما أصابه من نُضوب. وفيما هي تنظر إلى الحقول البُنية القاتمة ولوحات الإعلانات التي تمرُّ بسرعةٍ جوار النافذة، حاولَت تحديد مصدر سوء حظها.

وحسمَت الأمرَ في نفسها بقولها: «بدأ الأمر في لندن، عندما تركتُ الحقيبةَ الصغيرةَ خلفي واضطُررتُ لاستعارة صندوق المجوهرات من الليدي بونتيبول.»

لكن هذا الحل لم يُرضِها؛ لأنه أخفَق في تفسيرِ عُطلةٍ كانت دون المستوى في كُل تفاصيلها. بدايةٌ سيئة تبعَتْها رحلة قطار مروِّعة وتعقيدات التشابكات الشخصية.

قالت لنفسها إن من المؤكَّد أن اللصَّين حاولا سرقة صندوق المجوهرات منها لأنها كانت لا مبالية بما يكفي لئلَّا تُداري التُّويج الذي عليه. كانت حادثةً بشعة وشنيعة، لكن — وبما أن وقوعها كان محتومًا — كان من الأفضل لو أنها كانت قد حدثَت ذلك اليوم في كلين شايديج. إذ كانت ستتجنَّب الفظائع التي مرَّت بها في مغامرتها في باريس، وما كانت ستؤدي إلى تغييرٍ في خطَطها.

ولو كان الأمر قد جرى على ذلك النحو، كانت شركة توماس كوك ستُرتِّب لعودتها من جريندلوالد بحيث تتمكَّن من الوصول إلى لندن في مساء الثالثَ عشرَ من سبتمبر؛ أي في الوقت المناسب لتلتزم بموعدها مع الميجور براند. ولكن من المحتمل الآن أن يكون السيد لِيمون قد أتمَّ بيعَ أثاثِها وأن تكون قد أضاعت فرصةً ذهبية لإثبات نجاح العنصر الشخصي.

قالت لنفسها: «لقد بذلتُ قصارى جهدي. لم أترك شيئًا للصدفة. حتى إنني خاطرتُ بالتخلف عن القطار لشراء الخزامى البيضاء.»

ضاقت عيناها وهي تسترجع مساراتِ حظِّها والتواءاته. كان الضررُ ناجمًا عن حقيقة أنها كانت خلال أيامها الأخيرة في سويسرا في حماية رفيقاتها من النساء بشكلٍ لا إرادي. وبتأجيل الهجوم عليها حتى زيارتها إلى باريس، أصاب هؤلاء الناس الطيبون جدولها الزمني بالاضطراب في اللحظة الأخيرة، ومن ثَم دمَّروا جدول أعمالها المُحكَم التخطيط.

لو أنها كانت قد التقت بهن لأول مرة في الفندق في جريندلوالد، لَظَلِلنَ غريبات بالنسبة لها. كانت تلك الليلة في قطار كاليه–إنترلاكن بدايةً لعلاقةٍ عامة من الألفة بينهن، كانت فيفا هي المسئولة عنها. فلو كانت فيفا غير موجودة — وغير قادرة على إظهار تصرُّفها غير الأناني — لتجاوزَت عائلةُ فورس عربتَها عندما كانتا تقومان بجولتهما في القطار بحثًا عن مقعدٍ في زاوية.

ويمكن تفسير وجود فيفا هناك بحقيقة أنها كانت قد صاحبَت الآنسة لوفابل، وزعمَت أنها تعتبرها تميمةَ حظها. ومع ذلك، في المجرى الطبيعي للأحداث، لم يكن ينبغي لهما أن تلتقيا؛ حيث كان مقعد الآنسة لوفابل محجوزًا في عربة بولمان، بينما كانت فيفا في العربة الأخيرة. كان لقاؤهما نتيجةَ اندفاعِها في اللحظة الأخيرة للِّحاق بالقطار.

تمكَّنَت الآنسة لوفابل من فكِّ آخرِ حلقاتِ اللغز. فسألَت نفسها: «هل يُمكنكِ أن تتغلبي على ذلك؟ بدأ حظي السيئ بالخزامى البيضاء.»

أثار اندهاشَها أنها بدأَت تضحك. ثم لاحظَت أن القطارَ كان يقتربُ من الساحل. كانت الشجيراتُ تتأرجح مع الريح، وأشار تمايُل أسلاك التلغراف إلى أن عبور القناة سيكون صعبًا. وبينما هي تُشاهِد تحليقَ طيور النورس فوقَ رأسِها، واندفاعَ الرمال التي نفخَتْها الريح، سبقَتْها أفكارها إلى المنزل رقم «١٩» بماديرا كريسنت، بالجزء الشمالي الغربي.

كان من الغريب بالنسبة لها أن تفكِّر في أنه لم يعُد ملكًا لها بعد الآن. لم تكن تشعُر بالندم عليه ولكنها كانت مرتبكةً بسبب شعورٍ طفيفٍ بالقلق. وبينما اتخذَت قرارًا بأن تكتب إلى السيدة براند تطلب إعادة حقيبة يدها الصغيرة، تساءلَت إنْ كان بإمكانها أن تطلب تضمين ألعاب ديفيد وسكوتي في الطرد. كان معظمُها موادَّ مطاطية تضرَّرَت بسبب أسنان الحيوانَين وتُرِكَت في حُجرة لَعِب الحيوانَين الأليفَين في الطابق العلوي من منزل لندن.

ثم قرَّرَت بشيءٍ من التردُّد عندما فكَّرَت في انتقادِ بكنجهام: «ربما لن أفعل. قد يعتقدون أنني غريبة الأطوار.»

وبينما هي متجهِّمة وغارقة في التفكير في مشكلتها، كان العنصرُ الشرير قد طُرِد بالفعل من جو المنزل رقم «١٩» بماديرا كريسنت بفعل اجتياح الصِّبية له. كانت عائلة براند قد تملَّكَت منزلها الجديد. وأخذَت مجموعة من الأطفال تصرخ كالبرابرة من الحماس بينما يُهرولِون صعودًا وهبوطًا على الدرَج، يستكشفون مملكتهم من القبو إلى العلِّيَّة.

عندما وصَلوا إلى الطابق الأعلى واكتشَفوا الغُرفَ الكبيرة المجهَّزة بأرضياتٍ مطاطية، وسلالمَ مُعلَّقة مصنوعة من الحبال وأجهزة أخرى لممارسة الرياضة لحيوانَين محصورَين، استولَوا على مملكتهما على الفور. صاح الولدُ الأكبر بالخبر لأمه التي كانت في الردهة. كان قد سمع والدَيه يُناقِشان الآنسة لوفابل — ولكن ليس بالاسم — لذا عبَّر عن امتنانه بالتشهير.

«أمي، لقد تركَت لنا العزباءُ المباركة ألعابَ أطفالها.»

صعدَت الآنسة لوفابل على مَتْن العبَّارة المتجهة إلى القناة، غيرَ واعيةٍ لتحطُّم سمعتها. كان مزاجُها ما زال كئيبًا، رغم أن الهواء المالح بثَّ فيها رُوحَ الحياة بينما هي تتكئ على جانب السفينة وتُشاهِد فقاعات الرغوة أدنى منها. كانت السماءُ ملبَّدةً بالغيوم، ولكن، بين الحين والحين كانت ومضاتٌ من الضوء تنبثق من بين السحب وتسقُط على بقعٍ خضراء وسط البحر المتقلِّب.

ومع تمايُلها مع تمايُل السفينة، تذكَّرَت فجأةً الشاب الذي كان قد حدَّد موعدًا في وقتٍ مبكِّر من ذلك الصباح لإجراءِ عرضٍ على المِكنَسة الكهربائية. بحلول ذلك الوقت، كان الشابُّ المسكين قد أُصيب بخَيبة أمل. انزعجَت الآنسة لوفابل حين تذكَّرَت أنها قد خذلَتْه؛ لأنها كانت متأكدةً أنه أحد الفاشلين في الحياة، رغم عدم اكتراثه. وعلى الرغم من أنها في ظل تغيُّر الظروف لم تكن تستطيعُ شراءَ مكنسة كهربائية، كان بإمكانها أن تدفَع له مقابل خدماته.

فكَّرَت في نفسها: «أتمنى أن أتمكَّن من إرسال شيء له للتعويض عن إضاعة وقته. لكنني لا أعرف ماذا فعلت ببطاقته.»

لم يكُن عليها أن تقلَق؛ لأن العنوان الذي فقدَتْه كان مجرد عنوان خيالي ابتدعَه السيد هنري واتكينز لأغراض العمل. إضافةً إلى ذلك، كان السيد كلارنس كلوب قد غيَّر مكانَ إقامته في الوقت الحالي. فبدلًا من المكوث في الشقة القاتمة، كان يُقيم مرةً أخرى على نفقة الحكومة.

كان لديه ما يكفي لأن يشغَل عقلَه عن سجَّاد الآنسة لوفابل. كان من الصعب التفكير في دافعٍ حقيقيٍّ مقبول لشرح سبب اختبائه داخل مبنًى مغلَق ولماذا هاجم درابزين السلم بوحشيةٍ بواسطة قضيب تذكيةِ نار المطبخ.

مرةً أخرى كان محظوظًا بتجنُّب الفوضى التي كان يمكن أن يُخلِّفها قتل شرطي. كان الشرطي — الذي كان ظلُّه على الجدار قد خدعَ كلارنس بشكلٍ متعمَّد — مستعدًّا للهجوم وكان قد تجنَّبه في الوقت المناسب. ولكن ما كان يُزعِج كلارنس المسكين هو الانبعاجُ الشديد في درابزين السلم الخشَبي الصُّلب والمصنوع من الماهوجني؛ فقد بدا أن الشرطة تعتبره دليلًا على وجود نيةٍ للقتل …

لم تكن الآنسة لوفابل تعرف عن هذا، ولكنها نسيَت أمر كلوب بدَورِها بينما كانت تُشاهِد تلالَ دوفر البيضاء وهي تزداد وضوحًا. في واقع الأمر شعَرَت بفَورة من الحماس الوطني عندما لمسَت قدمُها أرضَ الوطن مرةً أخرى. وعندما كانت من بين أول مَن مرُّوا من خلال الجمارك دون أن يعترضَها أحد، ارتفعَت معنوياتُها إذ اعتبرَت هذا دليلًا على أنها تتلقى معاملةً تفضيلية.

وكان مرورها السريع من الجمارك قد وفَّر لها وقتًا لتناول كوبٍ من الشاي وشطيرة لحم من إحدى العربات. وحيث لم تكن قد تناولَت إلا وجبةَ الإفطار الكونتيننتال المعتاد،

فقد بثَّت فيها تلك الوجبةُ الخفيفة رُوحًا جديدة. وبحلول الوقت الذي غادر فيه قطارُها محطة دوفر، كان الصُّداع في رأسها قد توقَّف وكانت مطمئنةً وفي حالةٍ من القناعة الحالمة وهي تُطالع المناظرَ الطبيعيةَ التي تمُرُّ مُسرِعة.

لاحظَت أن أول نسمةٍ من الصقيع كانت قد أصابت البلاد؛ إذ كانت هناك أغصانٌ ذهبيةٌ مُعلَّقة بين أوراق الأشجار الداكنة. وكانت البساتين مكدَّسة بأكوام من التفاح الأحمر الصغير. وكدليلٍ آخر على حُلول الخريف، كانت الأسيجة مُزيَّنة بنباتات الظيان الأبيض التي ذكَّرَتها بمهرجان الحصاد في هايفيلد والمنافسة المحمومة لتزيين مِنبَر الوعظ.

فجأة، ارتفعَت معنوياتُها أكثر عندما أدركَت أنها عائدةٌ إلى كل ما كان عزيزًا عليها؛ حياتها المُنظَّمة، ومنزلها الوثير، وحديقتها الجميلة، وحياة القرية البسيطة الحركة وذات الأهمية الكبرى. كان أولئك الذين تُحبُّهم ينتظرونَها للترحيب بها. كانت سعيدةً بأنها عائدةٌ مباشرةً إلى منزل البحيرة بدلًا من العودة من رحلتِها إلى لندن. وعلى الرغم من خيبة أملها على الصعيد المالي، فلم يكن المال هو العامل الأول …

وبينما كانت سيدتُها تفكِّر فيها، كانت إلسي في حالةٍ من الإثارة السعيدة. ولكن حتى وهي تستعدُّ لاستقبال الآنسة لوفابل، كانت تشعُر بالبرودة كلما فكَّرَت في أنها نجت بأعجوبة. كانت اليوم لا تستطيع أن تفهم ما الذي حملَها على التمرُّد على الأوامر والشروع في السفر إلى منزل لندن.

كان عدَم ركوبها القطار الذي كان ينتظر عندما وصلَت إلى المحطة محضَ صُدفة. فعندما سمعَت بوق سيارة مستمرًّا على الطريق خلفَها، رأت الآنسة بيت تُشير إليها بجنون. للحظة، كانت عازمةً على الركض إلى الرصيف، ولكن تغلَّبَت التوجيهاتُ التي لديها على رغبتها وعادت متجهِّمة إلى السيارة.

وبعد أن أوضحَت الآنسة بيت تغيير خطة الآنسة لوفابل، أُصيبَت بغُصَّة في حَلْقها، بحيث لم تتمكَّن من شُكْرها على تدخُّلها.

قالت إلسي: «كنت سأنال عقابًا شديدًا لو أنها كانت قد اكتشفَت ما فعلتُه.»

وعلَّقَت الآنسة بيت: «وكنتِ ستستحقين كلَّ ما يحدث لكِ. ما الذي جعلكِ تفعلين شيئًا غبيًّا كهذا؟»

هزَّت إلسي رأسَها بخجل.

وأجابت: «سيطر عليَّ شيءٌ ما. لم أستطع أن أتحمَّل بقاءَها وحدَها في ذلك المنزل اللندني اللعين.»

وعندما غادرَت الآنسةُ بيت، نَدِمَت إلسي على تعبيراتها غير المهذَّبة، خاصةً أن ديفيد لم يكن موجودًا لتحمُّل اللوم عنها. لم تعرف إلسي أن الآنسةَ بيت أحبَّتْها أكثر عندما وقفَت وفغَرَت فاها، بينما تغيَّر وجهُها من الأحمر إلى الأبيض، دليلًا على شدة انفعالها ومشاعرها.

تلك الظهيرة، وفي ظل الأمان الذي كان يتمتَّع به منزل البحيرة، نسَّقَت إلسي وعاءً خلَّابًا من أزهار الكبوسين على طاولة الزينة الخاصة بالآنسة لوفابل، بينما حاولَت تثبيتَ فكرةٍ ما في رأسَي ديفيد وسكوتي بالتكرار المستَمر.

«السيدةُ عائدةٌ إلى البيت اليوم.»

كانت الآنسةُ لوفابل سعيدةً جدًّا بالعودة إلى البيت. مع مرور كُلِّ دقيقة كان القطار يُقرِّبها أكثر وأكثر إلى بابِ منزلها. كان هناك أمرٌ واحدٌ فقط غير واضحٍ بشأن المستقبل، وهو احتمالُ مقابلتها لبكنجهام. كانت متأكدةً أنه سيفي بوعده ويُخضِعها لمناقشة مزعجة أخرى.

بينما كانت في سويسرا، كان له تأثيرٌ مزعج؛ إذ أخذ يُعكِّر صَفْو أفكارها المستقرة ويُحاوِل أن يقلبَ روتينَها السعيد رأسًا على عَقِب. حتى في هذه اللحظة، بينما تعود تدريجيًّا إلى روتينها، كانت تشعُر وكأنَّ شيئًا ما ليس في مكانه الصحيح.

قالت في نفسها: «لا جدوى من قُدومه. إنه يعلَم أنني سأرفُضه.»

في تلك اللحظة، انبثقَت أشعة الشمس من خلال الغيوم وغمَرَت المشهد الكئيب بضوءٍ ذهبي. وبينما كانت تُحدِّق في الحقول التي تحوَّل لونُها، انشَق قالبُ عقلِها الصُّلب فجأة، ليُقبل بفكرةٍ جديدة ومُدهِشة.

«كل الناس الآخرين يتزوجون. أنا لستُ فريدة ... لماذا لا أتزوَّج؟»

كان التغييرُ في وجهة النظر يتضمَّن انعطافًا عنيفًا في مسار تفكيرها بحيث أثَّر عليها كصدمةٍ جسدية تقريبًا. أصبح وجهُها أحمر اللون وتوهَّجَت عيناها من شدة رفضها للتهديد بالتراجُع. كانت قد اعتادت أن تكونَ الآنسة لوفابل. كانت تعرفُ الآنسة لوفابل عن كثَب وكانت تُحبُّها كثيرًا.

ولكن الآن، كان هناك غريزةٌ قويةٌ مدفونة تحثُّها على أن تحلَّ غريبة محل الآنسة لوفابل. كانت السيدة بكنجهام هي العنصر المجهول وكان غموضُها يمثل تحديًا للمستقبل.

قبلَت الآنسة لوفابل هذا الاختبارَ الجديدَ لشخصيتها. وكما كانت قد أبلت بلاءً حسنًا في كل ما أخذَتْه على عاتقها، كانت متأكدةً من أن زواجها سيكون ناجحًا. كحافز،

سيتضمَّن الأمر خططًا وتعديلات. ستُضطَر إلى بناء جناح جديد لمنزل البحيرة ومساعدة بكنجهام في تأسيس مهنة ملائمة.

ولكنها كانت قد حسمَت أمرها بشأن نقطةٍ واحدة؛ يجب أن يغيِّر زوجُها المستقبلي اسمَه الأول. كان هناك «ديفيد» واحد فقط — القط الفارسي الأزرق. لتجنُّب الالتباس، ستمنَحُه اسمَها المفضَّل «هوبرت» مقابلَ هديَّته المتمثِّلة في اسم «فلورا».

بينما استمرَّت فكرة الزواج في التوسُّع داخل ذهنها، انجرفَت مع موجةٍ عارمة من الإثارة، بحيث لم تلاحظ عندما تبدَّلَت الحقول والأسوار وحلَّت محلها الأبنية. وقد نكَصَت مندهشةً عندما دخل القطار تحت قُبة محطة فيكتوريا. مرةً أخرى، سارت الآنسة لوفابل على الرصيف ووجهُها مشرقٌ بالسعادة. غادَرَت الباحة وعبَرَت الطريقَ إلى شارع فيكتوريا، بينما كانت تتدرَّب على إعلانِ خِطبتها لزوجة القس.

«لن توفِّري الشايَ من أجلي لفترةٍ طويلة. فأنا سأتأهَّل لاجتماعات الأمهات المباركة.»

وفجأة، وبينما كانت تدخل أحد متاجر الشاي، أصابَتْها نوبة من الشوق للبيت. شعَرَت أنها لا تستطيع تحمُّل دقيقة أخرى بعيدًا عن منزل البحيرة العزيز عليها. كان هناك قطار أبكر يعود إلى هايفيلد، ولكن ركوبه كان يتطلب التعجُّل للَّحاق به، لذا استبعدَتْه من برنامجها.

ألقت نظرةً سريعة على ساعتها، واكتشفَت أنه لا يزال هناك هامشٌ محدود من الوقت للَّحاق بالقطار. لكن للأسف، لم تستطع أن تقرِّر أي وسيلةِ نقلٍ أسرع. كانت قد سمعَت أن قطارات الأنفاق تُجنِّب الناسَ الازدحامَ المروري؛ ولكن إذا عادت إلى المحطة ونزلَت إلى السكك الحديدية الداخلية، فستُضطَر إلى السير صعودًا على التَّل من الجسر.

مرَّت الدقائق وهي واقفةٌ في حيرة من أمرها. وبعد أن تركَت سيارات الأجرة الفارغة تمُرُّ بجانبها، أخذَت السيارات تطُوف وراياتُها تتدلَّى. بدأَت تعتقد أنها أضاعت الكثير من الوقت وأنه كان من الأفضل لو أنها تخلَّت عن الفكرة لصالحِ تناوُل الشاي في هدوء، وذلك حين تقدَّمَت حافلة من تشارينج كروس من زاوية الشارع.

اعتبرَت الآنسة لوفابل مرور الحافلة اقتراحًا بائسًا؛ لأنها بدَت ممتلئةً بالفعل، بينما كان هناك مجموعةٌ من الناس تَنتظر في مكان توقُّفها، على مسافة بعيدة قليلًا في الشارع. لكن في تلك اللحظة، رفَع شرطيٌّ يدَه فتوقَّفَت الحافلة عند الآنسة لوفابل.

وعندما استغلَّ أحدُ الركاب توقُّف الحافلة فقفَز خارجًا، صَعِدَت هي على الدرَج وغاصت في مقعده الشاغر.

بدا ما حدَث فألَ خيرٍ للمستقبل؛ استعادة رسمية لمستواها الحقيقي من الحظ الجيد. فأخذَت تبتَسم لكُلِّ مَن حَولَها في حماس وابتهاج.

«أخيرًا! هذه هي المرَّة الأولى التي يَبتسِم لي فيها الحظُّ طَوال هذه الرحلة.»


هنداوي